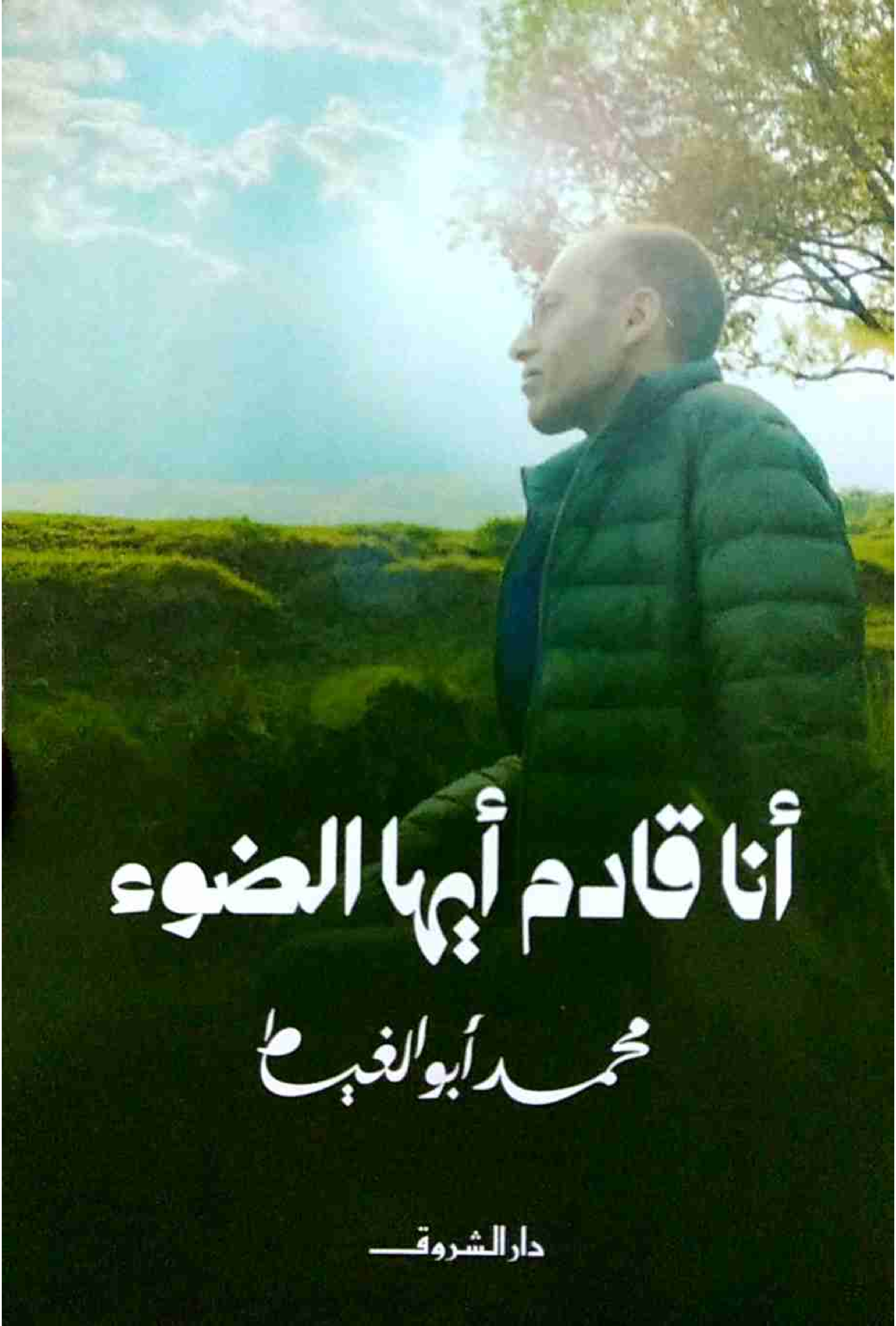

أنا قادم أيها الضوء

محمد أبو الغيط

دار الشروق

أنا قادم أيها الضوء

أنا قادم أيها الضوء

محمد أبو الغيط

تحرير: أحمد سمير

الطبعــة الأولى ٢٠٢٢

الطبعــة الثانية ٢٠٢٣

تصنيف الكتاب: أدب /سيرة ذاتية

صورة وتصميم الغلاف: حسام سرحان

رقــم الإيداع ٢٠٢٢/٢٣٢٦١

ISBN 978-977-09-3799-0

© دارالشروق

٧ شــارع سيبويــه المصــري

مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر

/dar.elshorouk /Darelshorouk

أبو الغيط، محمد،

أنا قادم أيها الضوء/ محمد أبو الغيط

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٢٢

٣١٦ ص، ٢٠سم

تدمك ٩٧٨٩٧٧٠٩٣٧٩٩٠

رقم الإيداع ٢٣٢٦١/ ٢٠٢٢

١- مذكرات أ. العنوان ٩٢٠/ ٦١٣

محمد أبو الغيط

أنا قادم أيها الضوء

دار الشروق

إلى من أضاءت حياتي؛ فاقتبست منها نورًا
يهديني في طريقي، ورحمة تخفف آلامي،
ولطفًا تسكن إليه روحي..
إسراء

المحتويات

مقدمة ٩
لماذا أكتب؟ ١٧
فأنا أيضًا لا يمكنني بالطبيعة إلا أن أكتب. ٢٨
البداية: كابوس. ٢٩
كم أنا محظوظ! ٣١
والآن أريد أن أتعرف على ٥١
صديق جديد: النسيان ٥١
نهاية الأرض ٨١
يا «حياتي الطبيعية» عودي..! ٨٤
اللهم أدخِلني في التجربة..! ١٠١
العلم الصادق والأمل الكاذب ١٢٦
محاولة لملء مكانٍ خالٍ على مائدة عيد ١٣٣
العازف ذو البذلة الحمراء ١٤٠
أبنائي الخُضر ١٦٢
سؤال الألم. ١٨٢
شمس وقمر في مهمة إنقاذ. ٢١٣
وردتي البيضاء الخارقة. ٢٦١

مقدمة

لم أرَ الضوء في ذلك اليوم..

أغمضت عينيَّ ثم فتحتهما لأعرف أن أربع عشرة ساعة قد مضت، أجرى خلالها الأطباء جراحة كبرى لاستئصال ورم سرطاني متوحش. كنت أعرف أنهم سيستأصلون المعدة بالكامل، لكن أخبروني بعدها أنهم استأصلوا أيضا الطحال، وجزءًا من البنكرياس، فضلا عن عدد ضخم من العقد اللمفاوية التي امتدت حتى صدري.

كنت قد قرأت مرارا عن «تجربة الدنو من الموت»، أو ما يسمونه بالإنجليزية بـ Near Death Experience NDE طالعت تجارب لمرضى تعرضوا لتوقف قلوبهم لدقائق، ووصفوا ما شهدوه في تلك اللحظات التي غابت فيها الحياة عنهم. الكثير منهم رأى نفسه يعبر نفقًا مظلمًا نحو ضوء ساطع، الأغلبية كانوا يشعرون بالسعادة والراحة وهم ماضون إليه، وقد يرون وجوه أموات يعرفونهم أو ذكريات مرت بهم، فيما البعض الآخر وصف مشاهد مختلفة لفزع رهيب عايشوه.

تختلف الأبحاث العلمية في تفسير الظاهرة؛ البعض يرجعها إلى إفراز «الإندورفينات» في المخ؛ كرد فعل على خطر حرمانه من الأكسجين، وفي فبراير ٢٠٢٢ أظهرت دراسة كندية حديثة أن موجات المخ لشخص يحتضر أظهرت في الثلاثين ثانية قبل وبعد الموت موجات دماغية تشبه أنماط الحلم أو استرجاع الذكريات.

ولكن بعيدا عن التفسير العلمي، فإن الصورة نفسها تتواتر عبر الثقافات، وتنعكس في الفنون.

في القرن السادس عشر، رسم الهولندي هيرونموس بوس، لوحته «صعود المباركين» التي تظهر الملائكة حاملين أرواح بشر، يمضون عراة صعودا في نفق يتجلى الضوء عند نهايته. وفي ٢٠٢٠، قدمت ديزني فيلم الأطفال Soul الذي يظهر النفق ذاته. (ترجمة اسم الفيلم بالعربية هي «روح»، لكن تمت ترجمتها إلى «مغامرة ذاتية» لمخاوف دينية أو تسويقية على الأرجح!).

كنت في تمام التأهب النفسي، والوعي باحتمال ألا أصحو مجددا، وقلت: لعلي سأعبر النفق صوب الضوء إلى ما لا أعرف، ولن أعود لأحكي.. لكن لم يحدث لحسن الحظ.

لكنني أبصرت لاحقًا ذلك الضوء الكوني، يقظة لا مناما.

حدث هذا بعد أشهر، بعد أن أخبرتنا الطبيبة الأمريكية المرموقة في (مركز أندرسن للسرطان)، بولاية تكساس، أن لا أمل على الإطلاق في شفائي، بعدما عاد الورم أكثر شراسة بعد العملية.

قالت إن أقصى ما بوسع الطب عمله الآن هو محاولة ربح بعض الوقت؛ الوقت الذين لن يتجاوز أقل من عام، أو ربما، وبكثير من التحفظ، قد يصل إلى عامين، ذلك «لو حظيت بأفضل استجابة لأفضل دواء متاح».

حدث ذلك في فبراير ٢٠٢٢، وكنت قد شُخصت بالسرطان في منتصف العام السابق ٢٠٢١. أضحت التواريخ مهمة جدًّا؛ لأني أصبحت أراها ساعة رملية، يتناقص محتواها باستمرار. محتواها هذا ليس رملًا، بل هو أيام حياتي الباقية..

في تلك الليلة قبل النوم قالت لي إسراء فجأة وبكل هدوء: إذن فلتفكر ماذا تريد أن تفعل في الوقت المتبقي؟ هل هناك مدينة تود زيارتها. أكلة تريد تذوقها؟ كيف أساعدك لنمنح ابننا ذكريات سعيدة؟

في ذلك اليوم، لمحت الضوء في عينيها؛ ضوء جمال الجوهر الإنساني...

تعلمت عبر حياتي، وبالتدريج، البحث عن هذا الجوهر الإنساني، وأن أشعر بذلك الضوء الذي يشع من الأرواح الطيبة. أحب أن أكون على مقربة من هؤلاء، بينما أهرب من ذوي الأرواح المظلمة والقلوب الغليظة.

في الماضي، كنت أعتقد أني - في مصر - أعيش بأعظم بلد في الكون، وكوني مسلمًا متدينًا يعني فوريًّا أني وأمثالي أفضل من كل

البشر بمن فيهم باقي المسلمين. ثم عرفت أن جوهر الإنسان هو الأصل، وأن ما سوى ذلك كله ليس إلا أغطية يستخدمها لينشر ما بداخله من ضوء أو ظلام.

ما من علاقة بين الجوهر المضيء وبين لون الإنسان، أو عرقه أو دينة أو لغته. يقول حديث نبوي إن خيار الناس في الجاهلية هم أنفسهم خيارهم في الإسلام، أي أن ذوي «مكارم الأخلاق» سيظلون هم أنفسهم كذلك، من قبل ومن بعد.

يخبرنا التاريخ أن كفار الجاهلية ظهر بينهم قبل الإسلام صعصعة بن ناجية، الذي حمل لقب «محيي الموءودات»؛ لأنه أنقذ ثلاثمائة بنت من الدفن أحياء. كذلك خرج من بينهم حاتم الطائي الذي صارت قصص كرمه كالأساطير. وهناك عبد الله بن جدعان الذي اجتمع في داره مؤسسو «حلف الفضول»، وقد تعاهدوا على نصرة المظلوم، أي مظلوم.

ينبع قسط وافر من إضاءة روح الإنسان أو ظلمتها من ظروف نشأته، سواء ما تربى عليه في أسرته، أو عبر تلك الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي أحاطت به. لكن قناعتي هي أن العامل الأهم يكمن في اختيار الإنسان الواعي أن يربي نفسه ويلزمها بأن يظل ضميره ما يحركه لا مصلحته الشخصية. الضمير، أو الوازع الأخلاقي، أو «الأنا العليا» بتعبير فرويد، أو «ريشة ماعت» بتعبير المصريين القدماء، كلها وجوه لنفس المفهوم الذي يعلو به الإنسان أو ينحط، والذي تضيء به روحه أو تظلم.

لكن الحياة معقدة، بمثل ما هي مؤلمة. يدور جدل علمي جاد حول دور الجينات في وجود أشد الأرواح إظلاما، أعني الشخصية السيكوباتية التي لا يمكن لصاحبها التعاطف مع الآخرين؛ «لا يستطيع» وليس «لا يريد»، وهو ما يستتبع جدلًا أعقد عن مدى المسئولية القانونية لهؤلاء عن أفعالهم.

قيل لي إن مرضي جاء من الجينات بشكل رئيسي. ومرارا تساءل الأطباء، المندهشون من صغر سني، لو كان أحد من أسرتي لديه سابقة الإصابة بذلك الورم، فكررت دائما جوابي بالنفي.

قد تهبط الكارثة فجأة علينا. وقد نحملها داخلنا منذ الميلاد دون أن نعرف. لا حيلة لنا في ذلك. كما لا حيلة لنا أمام كثير من المآسي؛ الفراق، والضعف، والموت. لا حيلة لنا بمشاعرنا. لكن لنا حيلة بأفعالنا، أو على الأقل في السعي لذلك، دون ضمان النجاح. فلا إنسان كامل أبدا، وكلنا، كلنا بلا استثناء، قد نمر بأوقات من النقص والخوف والأنانية والطمع وغيرها من الأخطاء والخطايا، لكن الفارق هو بين من يترك نفسه لتلك الأهواء، وبين من يعيها ويواصل الصراع معها بنسب نجاح وفشل متفاوتة، يغالبها، و«يسدد ويقارب»، قدر الإمكان.

مؤخرًا أجريت حوارًا صحفيًّا مع الصحفي البريطاني إيدن وايت. وخلاله اندهشت بينما أنظر لحياتي عن بُعد من مدى ثرائها؛ حياة قصيرة، ثلاثة وثلاثين عامًا، لكنها اشتملت حيوات عدة. عشت في صعيد مصر، وانتقلت إلى القاهرة، ثم إلى لندن. عملت طبيبا،

ثم انتقلت إلى الصحافة المحلية، ثم إلى الدولية. وقد صادف ذلك مرحلة تاريخية نادرة للغاية، بوقوعي في قلب أحداث الربيع العربي.

ذات يوم، لم يكن بجيبي جنيه مصري واحد، وذات يوم آخر، كان حسابي البنكي عامرا بعشرات الآلاف من الدولارات. في أوقات، حاولت شرح أفكاري لفلاحين في قريتي بصعيد مصر، وفي أخرى كنت أشرح الأفكار ذاتها لأنطونيو جوتيرش؛ أمين عام الأمم المتحدة، خلال مراسم تسليمه جائزة لي.

عجيبة هي الأقدار وألاعيبها؛ كأنما طُويت حياتي وكُثفت، فمنحتني بسرعة كثيرًا من السعادة والتوفيق، كما انهارت على رأسي بنفس السرعة. كنت مرارًا أصغر صحفي في صحف وقنوات عملت بها، كما أنني الآن أصغر مقيم في جناح الرعاية الخاصة بمرضى السرطان في ذلك المستشفى البريطاني.

عبر ذلك المسار كله، تغيرت داخليًّا وخارجيًّا، حتى إني أُدهشُ اليوم من شكلي في المرآة. تبدلت الكثير من قناعاتي، كما تغيرت من حولي الوجوه والعوالم، لكن ما لم يتغير قط هو بحثي عن ذلك الضوء الذي يشع من الأرواح الطيبة؛ ضوء التعاطف مع الإنسان من حيث كونه إنسانًا قبل أي شيء آخر.

منذ تشخيصي، وبعد تجاوز الصدمة، وجدت يدي تكتب عن المرض، وعن كل ما حولي.

وجدتني لا أكتب يوميات مريض، بل ما أكتبه هو مزيج من مشاركة الأحداث والمشاعر، ما جربته وما تعلمته، وكذلك سيرة ذاتية لي ولجيلي

أيضا. ودونما أشعر، عبرت كتابتي من الخاص إلى العام، وهكذا صرت أنتقل من شرح علمي لأدوية السرطان، إلى أخبار التطورات السياسية في مصر والشرق الأوسط، ومن تفنيد بعض الخرافات المتعلقة بما يسمى «الطب البديل»، إلى متابعة وفاة الملكة إليزابيث. أتأمل في الموت والحياة، ثم أفكر في حلول أزمة التغير المناخي.

ذات يوم، زرت قلعة «برج لندن»، وهناك شاهدت «بوابة الخونة» التي تم إدخال السير توماس مور عبرها، بعدما رفض رغبة الملك هنري الثامن في تغيير قوانين الكنيسة؛ لأجل رغبته في تطليق زوجته والزواج من آن بولين. صمد مور ضد التنكيل، وضد تهديده بتجريد أسرته من ممتلكاتها كافة، وفي النهاية صعد إلى منصة الإعدام مرفوع الرأس.

كتب مور في رسالته الأخيرة شاكرًا لابنته مارجريت أن اقتحمت صف الحراس وعانقته وقبلته للمرة الأخيرة، فهو يحب ما يحدث «حين تتجاوز عاطفة البنوة، وعاطفة فعل الخير، قواعد الحذر الدنيوي».

وفي القلعة نفسها، شاهدت متحفًا لأدوات التعذيب، وقد أصابني الهلع لمجرد تخيل ما كان يمر به الضحايا المساكين. لكم هو مبهر المدى الذي قد يذهب إليه الإنسان في الشر أو الخير، في ضوء روحه أو ظلامها.

في لحظة ما، وجدتني أمضي في ممر مظلم بالقلعة، فيما الضوء الوحيد مصدره شعاع شمس يتسرب من بين ثقب طولي صغير بين الأحجار الصخرية. ووجدتني أتجه إليه لا إراديًا.

لو تحققت نجاتي بمعجزة ما، فسأسعى لما بقي من عمري نحو ذلك الضوء الذي زادت خبرتي به وتقديري له في أيام مرضي. وسأمنح ما أستطيع عرفانًا لكوني محظوظًا بزوجة مضيئة، وبأبٍ وأمٍ مضيئين، وبالكثير من الأصدقاء الذين يطمئنني ضوءهم لحقيقة الخيرِ في الدنيا.

ولو وافاني القدر، ورحلت في الوقت الذي قدره الأطباء، فإني أرجو أن يكون ما بعد نفقي نورًا وهدوءًا وأمنًا، وأن يكون في هذا الكتاب ما قد ينقب ولو ثغرة واحدة، ليمر منها بعض الضوء إلى من يقرأ.

لماذا أكتب؟

قبل أشهر قليلة، تحديدًا في أغسطس ٢٠٢٢، وجدت نفسي في آخر مكان أتخيله.

كنت في مركب يمضي ببطء داخل المسار البحري بكهف كوسكور في مارسيليا الفرنسية، أشاهد رسومات صنعها الإنسان القديم قبل نحو ٢٧ ألف عام.

أسأل نفسي: لماذا فور إشباع حاجاته الأساسية من طعام ودفء وأمان وجد ذاك الإنسان الأول نفسه منجذبًا لفكرة أن يطبع بالفحم وبقايا العظام والشحم آثار قبضته، أو يرسم حيواناته بأشكال فنية بدائية؟

الإجابة: هي أنه أراد أن يقول لمن بعده: لقد كنت هنا.

كلنا تتملكنا تلك الرغبة؛ رغبة الخلود في الحياة، فإن لم نخلد بأجسادنا فلنخلد بآثارنا، ولكلٍّ آثاره.

قد تبدأ آثار الإنسان من تلك الرسوم البدائية، وقد تتعقد لتصبح ملحمة جلجامش المثيرة على الألواح المسمارية، وقد تصبح

أهرام الفراعنة، أو كاتدرائيات البيزنطيين، أو مساجد المماليك والعثمانيين، أو الكتابة لكاتب مثلي يشعر بخطر دنو نهايته.

لماذا أكتب؟

أكتب لأن الكتابة هي أثري في الحياة، هي أهراماتي الخاصة، فإلى متى ستبقى منتصبة بعدي؟

الكتابة هي محاولتي لمغالبة الزمن والموت بأن يبقى اسمي أطول من عدد سنوات حياتي التافهة مقارنة بعمر الكون الشاسع المقدر حاليًّا بـ ١٤ مليار سنة.

أعرف أني مهما عشت فإن حياتي، والعالم كله، كذرة غبار لا تُرى على شاطئ ذلك الكون الفسيح. لكن الكتابة قد تجعل ذرتي ألمع بين باقي الذرات على الأقل.

هذه صيحتي: محمد أبو الغيط مرَّ من هنا!

* * *

كنا قد سافرنا بشكل مفاجئ إلى مارسيليا حيث شاهدت الكهف بناء على سؤال مؤلم من ابني يحيى ذي السنوات الثماني، والذي كانت زوجتي قد أخبرته لتوها بحقيقة مرضي. قال لي: إذن لن تسافر معنا مرة أخرى للبحر أبدًا يا بابا؟ إذن لن تسبح بجانبي أبدًا يا بابا؟

أصابني السؤال بلحظة جنون تحدٍّ، فقلت له: لا يا حبيبي ما زال بإمكاني فعلها وسنفعل فورًا، وهكذا متحديًا نصح الطبيب وجدتني

سافرت معه، وصممت على نزول البحر مرتيْن رغم تثبيت أنبوب نزح داخل المرارة في ذلك الوقت. شعرت بالإنجاز العظيم، وبأني أريد أن أوثق ما فعلت؛ ليعرف ابني كيف نظرت للموت في عينه ولم أهبه.

أتذكر «متون الأهـرام»، تلك الأسطر المهيبة التي ملأ بها الفراعنة جدران الأهرامات الجنائزية في منطقة سقارة. يقول جيمس برستد، مؤلف «فجر الضمير» عنها: إن غايتها المهمة هي ضمان سعادة الملك في الحياة الأخروية؛ لذلك «نجد أبرز شيء في هذه المتون الاحتجاج الملح، بل الاحتجاج الحماسي ضد الموت، ويمكن اعتبارها صورة لأقدم ثورة عظيمة قام بها الإنسان ضد الظُّلمة والسكون العظيميْن اللذيْن لم يعد منهما أحد».

يلاحظ برستد أن كلمة الموت لم تذكر قط في متون الأهرام إلا في صيغة النفي أو مستعملة للعدو، فترى التأكيد القاطع مرارًا أن المتوفى حيٌّ يرزق: «الملك تيتي لم يمت موتًا، بل جاء معظمًا في الأفق»، «هيًّا أيها الملك «وناس»، إنك لم تسافر ميتًا بل سافرت حيًّا...»، «إنك لن تموت، هذا الملك بيبي لن يموت».

وإذا لم يكن بدٌّ من الإشارة إلى حقيقة الموت المُرَّة فإنه يسمى «النزول من البحر» أو ربط حبال السفينة في المرساة أو حتى قول: «ليس حيًّا» بدلًا من النطق بالكلمة المشئومة.

أكتب هنا عن رحلتي ضد مرض السرطان كمحاولة لتحدي الموت وقهر الزمن، ولو مؤقتًا.

وكما يقولون في «قانون الجذب» فإن تخيل الصورة بتفاصيلها قد يحولها حقيقة، فأنا أكتب لأوثق تفاصيل معركتي المتحدية وأتخيل امتدادها، ليس سليمًا وصف كل مريض سرطان بأنه «مقاتل»، لكني أنا شخصيًّا لا أشعر بالأمر داخليًّا إلا كذلك، أنا مقاتل في معركة شرسة، أستخدم فيها كل أسلحتي البشرية، بما فيها قوة الخيال العاتية تلك، آملًا أن تتحول إلى حقيقة، فأراني الآن أقرأ ذلك الكتاب مع ابني بعد نحو عشرين عامًا، نتناقش في تفصيلة هنا أو موقف هناك، ونضحك!

* * *

دائمًا ما عظَّمت أديان البشر وأقدس أفكارهم الكتابة. نعرف في المسيحية أن بداية كل شيء كانت «الكلمة»، هي إرادة الله، وهي «كن فيكون» في الإسلام.

أول ما نزل من القرآن آية تأمر الرسول: «اقـرأ»، ويخاطب الله البشر في القرآن بأنه هو «الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم».. ماذا علمه؟ علمه «الأسماء كلها»، وبهذا العلم تمَّ تفضيل آدم على الملائكة.

أعتقد أن جانبًا من السرِّ في ذلك هو أن الكتابة تمنح البشر للمرة الأولى جانبًا ولو محدودًا من ذلك الحق الإلهي في الخلود، وما يستتبع ذلك من مسئوليات. أعني بها المسئولية الأخلاقية الممتدة، فتلازم صعود الكتابة قبل نحو ٥٠٠٠ عام في حضارة

ما بين الرافديْن مع صعود القوانين والشرائع بعدها وعلى رأسها أول نصوص أخلاقية في تاريخ البشر بالحضارة الفرعونية، وكذلك قوانين حمورابي بالحضارة الآشورية.

كثيرًا ما فتنني «كتاب الاعتبار»، وهو من أوائل نماذج السيرة الذاتية في التراث العربي، نقرأ قصة الأمير أسامة بن منقذ على لسانه، وهو قائد عسكري، ووزير سياسي، عاش ستة وتسعين عامًا في عصر الحروب الصليبية. اليوم بعد نحو ألف سنة أقرأ في الكتاب تأملاته السياسية والإنسانية عن الفوارق بين العرب والأوروبيين، وعن علاقاته المتشابكة بين أصدقاء منهم وقت السلم ومحاربتهم وقت الحرب، وكذلك أسئلته البشرية عن فوارق المجتمعات، وكذلك عن تقلبات الزمن. كان خبيرًا في صيد الأسود، والتي يقول عنها: «الأسد كالناس، فيها الشجاع وفيها الجبان»، ثم يتأمل في عجز قوة يديْه بعد كبر سنه، وهما ذات اليديْن اللتيْن طالما قيدتا أعتى الأسود.

كأن الكتابة اكتسبت كل تلك المكانة؛ لأنها فرصة للإنسان لإطلاق دفاع عبر الزمن عن شرفه.

«الشرف» المقصود به ذلك المكون الأخلاقي الروحاني الغيبي داخله.

ذلك المكون المتكرر عبر الزمن، حتى إن عنترة بن شداد يقول: «هل غادرَ الشعراءُ من مُتَرَدَّمِ؟»، أي قد تمَّ طرق كل الموضوعات والأفكار سابقًا، ورغم ذلك لن ينتهي تقليد تلك الكتابة أبدًا؛ لأنه

مرتبط بتعريف البشر لأنفسهم من حيث كونهم بشرًا، لا جمادًا ولا حيوانات، بل لدينا شيء مختلف يقع عميقًا عميقًا في نقطة داخل ذلك الكيان الشفيف الغامض المسمى الروح.

وهو ذاك الشرف الشخصي الحقيقي، ليس الشرف الزائف المتوارث على طريقة الأسر المالكة الأوروبية أو السلالة النبوية عند الشيعة المسلمين، أو الشرف المارّ عبر الآخرين الأضعف كأجساد الفتيات.

في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، نقرأ في بردية فرعونية تروي قصة «الفلاح الفصيح» الأهناسي قوله: «إن العدالة خالدة الذكرى، فهي تنزل مع من يقيمها إلى القبر، ولكن اسمه لا يُمحى من الأرض، بل يُذكر على مرِّ السنين بسبب العدل».

هذا ما أودُّ تركه من إرث لأسرتي وأحبائي، أني هكذا فكرت، وهكذا عشت، وهذا ما تعلمت.

لماذا أكتب؟

أكتب كي أدافع عن شرفي..

* * *

حين تمَّ تشخيصي مصابًا بسرطان المعدة، أخبرني الأطباء بصراحة أني لن أعود كما كنت سابقًا أبدًا؛ فأفضل السيناريوهات هي استجابة الورم للعلاج الكيميائي، ثم استئصال كامل للمعدة، ثم التعايش مع نمط حياة جديد.

نصحتني طبيبة التأهيل بالرياضة والكتابة.

كان مقصدها بالطبع الاستفادة من القيمة العلاجية النفسية التي ثبتت للكتابة الإبداعية.

وجدت بعض الأبحاث أن النساء المصابات بسرطان الثدي اللائي كتبن عن أعمق أفكارهن ومشاعرهن أبلغن عن أعراض أقلّ، وكان لديهن أقلّ عدد من الزيارات غير المجدولة إلى أطبائهن. أظهرت دراسة أخرى نُشرت في عام ٢٠٠٨ أنه حتى جلسة كتابة واحدة مدتها ٢٠ دقيقة قد تكون كافية لتغيير الطريقة التي يفكر بها المصابون، بل إنه لا يزال لجلسة الكتابة تأثير إيجابي على نوعية حياة الشخص بعد ثلاثة أسابيع.

تقول أندريا هاتون؛ الناجية من سرطان الثدي، وصاحبة كتاب «أصلع أفضل مع أقراط»:

«لقد قصفتنا فكرة مريضة سرطان الثدي «المثالية» بعبارة أخرى، المحارب الذي يأكل الطعام العضوي فقط، ويرتدي الكمية المناسبة من المكياج، ويفتخر بالصلع، ويؤسس جمعية خيرية محلية، وبالطبع يمكنه المشي أو الركض لأميال في جمع التبرعات، لا يبدو أنها بحاجة إلى أي مساعدة للحفاظ على حياتها المزدحمة بالترتيب».

من خلال تجربتها تعلمت أن هذا غير صحيح دائمًا، بل قد يحتاج المريض للجهر بالشكوى أو إبداء الضعف وطلب المساعدة أو محاولة فهم ذاته، وكل ذلك قد تساهم به الكتابة، وهي آلية تتمّ

لكل مريض بشكل خاص جدًّا؛ حيث لا خطأ ولا صواب بشأن وسيط الكتابة، أو من سيتمّ السماح له بقراءتها، المهم أن يضع كل مريض نظامه الخاص.

في تجربتي الشخصية وجدت أن الكتابة فعل خارق الصعوبة كما هو خارق الإمتاع والمساعدة أيضًا؛ لأن تكثيف مشاعري هي عملية قاسية ومدمرة للأعصاب في أثناء حدوثها، تجعلني بعد كل مرَّة منهكًا للغاية، وكم شاهدتْ زوجتي دموعي تملأ وجهي بينما أنا مُنكبٌّ على «اللاب توب»، لكنها أيضًا عملية «مُطهرة» نفسيًّا، تثير في نفسي الراحة والهدوء والرغبة في الاسترخاء والنوم بعد إتمامها، كأني قد تخلصت مما يثقلني بوضعه على الورق.

لماذا أكتب؟

أكتب لأن الكتابة ببساطة تمنحني شعورًا أفضلَ.

* * *

وبقدر ما يمثل المرض شأنًا بالغ الخصوصية، فإنه في الوقت ذاته يمثل شأنًا عامًّا، تطلق الأمراض الخطيرة فورًا أوسع الأسئلة العلمية والفلسفية، يسأل المريض نفسه: «لماذا أنا؟»، ويسأل المحيطون: «لماذا هو؟»، تمتدّ الإجابات من أحدث الأبحاث العلمية وحتى العودة إلى «سؤال الشرّ» الذي ناقشه الفلاسفة والأديان عبر آلاف السنين.

سؤال فلسفي آخر عن التعامل الأخلاقي الصائب مع المآسي، والأحكام القيمية المرتبطة بذلك، في عام ١٩٤١، ثار جدل في الصحافة الأمريكية إثر انتحار الكاتبة فيرجينيا وولف بالقفز في نهر، بعدما أثقلت جيوبها بالحجارة، قالت في رسالتها الأخيرة إنها «لم تعد قادرة على مزيد من المقاومة»؛ بسبب عودة مرض الاكتئاب الحاد، تراشق الكتّاب في الصحف بين من يعظّم فعلها لكونه دلالة على أنها «أكثر حساسية من معظم الناس لوحشية الحياة في وقتنا»، وبين من يرى أن ما فعلته أنانية وضعف، وتخلٍّ عن مبادئ الإيمان والحب.

دوائر الشأن العام تشمل أيضًا جوانب بلا حصر في الاجتماع والاقتصاد والسياسة.

في كتابها «باولا» الذي تروي فيه إيزابيل الليندي عن ماضي أسرتها لابنتها الساقطة في غيبوبة عميقة، تناولت الليندي تشريح المجتمع التشيلي الطبقي والسياسي، والانقلاب على قريبها على يد الجنرال بينوشيه، كما تمَّ ربط انتحار فيرجينيا وولف بالظروف السياسية للحرب العالمية الثانية.

وأعتبر أحد أبرز الأمثلة قصة سيدة المجتمع الأمريكية، ماري لاسكر، التي توفِّيَ زوجها بالسرطان، ويدين العالم أجمع اليوم لجهودها الممتدة عقودا منذ الأربعينيات. كانت ماري أول من تعامل مع السرطان بوصفه قضية شعبية يمكن العمل عليها احترافيًّا بحملات سياسية وإعلامية في قاعات الكونجرس والمحاكم

الأمريكية المحلية والفدرالية، وأروقة الأحزاب والصحف؛ مما أنتج، في النهاية، تأسيس جمعية السرطان الأمريكية ذات التمويل الملياري كوعد رئاسي وورقة انتخابية.

وكذلك لاحقًا خاضت ماري وحلفاء لها حربًا شعواء ضد شركات التبغ؛ مما أحدث كل الإجراءات التقييدية التي نعرفها اليوم. من يتصور أن شركات التبغ ظلت تحظى بحق الدعاية القانوني رغم الثبوت التام علميًّا لمسئولية موادها عن تضاعف نسب الوفاة بسرطان الرئة تحديدًا، ولم تضطر للتنازل طوعًا إلا بعد معركة قضائية تمَّ استغلال بند قانوني غير متوقع فيها يلزم وسائل الإعلام بتخصيص ذات المساحة الإعلانية للدعاية ضد التدخين أسوة بمبدأ المساواة في فترات البثّ المتوازنة المسموحة للدعاية السياسية؟

من زاوية أخرى، ثمّة نقاشات اقتصادية تصل إلى عمق النظام المالي العالمي في وقائع عدة حول تأخر كشف علاجات واعدة لأنواع نادرة من السرطان؛ لأن الشركات رأت أن من غير المجدي إنفاق مليارات لإنقاذ بضعة آلاف من البشر فقط، وتطلب الأمر ضغوطًا شعبية وحكومية.

وفي عالمنا العربي تجارب عديدة، كتبت الروائية المصرية، رضوى عاشور، تجربتها مع سرطان بالمخ في كتاب «أثقل من رضوى»، الذي وثّق بدقة أحداث ثورة يناير المتزامنة مع إجراء الكاتبة عمليتيْن لاستئصال الورم عام ٢٠١١. وواصلت المسار نفسه في «الصرخة» الذي توفيت قبل نشره، ووثقت فيه عودة الورم وكذلك عودة الحكم السلطوي إلى مصر.

وفي قصيدتيْه «لاعب النرد» و«جدارية»، يتناول الشاعر الفلسطيني محمود درويش تجربته مع مرضه بالقلب، ويغوص عميقًا في أسئلة الحظ والقدر، والموت والحياة. وعلى الرغم من ذلك، تطلّ السياسة في تقاطعاته منذ الطفولة مع الاحتلال الإسرائيلي.

وهكذا في تجربتي الخاصة أيضًا، وجدت كالعادة أن العامَّ يتقاطع مع الخاصِّ، حتى إني أراجع بنفسي الأوراق العلمية والقانونية لأفهم عن الأدوية التي لا توفرها هيئة الصحة الوطنية البريطانية توفيرًا للنفقات، خاصة في ظل السياسات التقشفية لحزب المحافظين الحاكم، وأناور ألاعيب بنود شركة التأمين الخاص التي لا تريد أن توفر لي في البداية دواء تجريبيًّا بل رفضت تغطية كلفة اختباره، قبل أن تتراجع عن ذلك.

لماذا أكتب؟

لأني أريد إصلاح حياتي الخاصة المباشرة، فأجدني عاجزًا عن إصلاحها دون العودة للشأن العام الذي يشمل المساهمة في إصلاح ولو ثغرة واحدة في جدار سياسات البلاد التي أعيش فيها، أو العالم أجمع الذي لا سبيل حقيقيًّا لتحسين حياتي الخاصة فيه إلا عبر التعاون لصالح حياة أرحم وأرحب لكل البشر.

وبعد كل ذلك لا تنفي خصوصية تجربة المرض كونها شأنًا عامًّا، كما لا تلغي عموميتها ذاتيتها البالغة، تخاطب إيزابيل الليندي ابنتها: «إنني أتقلب في هذه الصفحات في محاولةٍ لا عقلانية

للتغلب على رعبي، ويخطر لي أنني إذا ما أعطيت شكلًا لهذا الخراب، فسوف أتمكّن من مساعدتك ومساعدة نفسي»..

لماذا أكتب؟

بالنسبة إليَّ الكتابة كأنها إفـراز طبيعي، لا أملك له دفعًا ولا تفسيرًا.

كما أن النحلة لا يمكنها بالطبيعة إلا أن تصنع عسلها، والنار لا يمكنها بالطبيعة إلا أن تكون ساخنة حارقة، النمور متوحشة، والأرانب أليفة، والماء بارد.

فأنا أيضًا لا يمكنني بالطبيعة إلا أن أكتب.

البداية: كابوس

قبل نحو عام بدأت أحلم بكابوس متكرر بحذافيره.

أراني مختنقًا بأشواك طويلة تملأ فمي. أندهش من حجمها كلما انتزعت واحدة طويلة تصل لأعماقي. ثم أستيقظ مفزوعا وأشعر بألم حقيقي في حلقي.

في نهاية مايو الماضي تكرر الحلم للمرة الخامسة. لا آخذ تلك الأمور بجدية عادة، لكن فكرت في أن التكرار ربما يحتمل معنى أكبر من المصادفة. سألت أطباء نفسيين ورجال دين حول تفسير الأحلام.

لكن سرعان ما ظهر المعنى. كان جسدي يستغيث ولا أفهمه..

بعد أسبوعين عانيت مشاكل معوية حادة؛ قيئًا وألمًا وصعوبة تنفس، ظننتها في البداية أعراضا اعتيادية تظهر أحيانا بسبب تعاطي أدوية تخص آلام ظهري، لكن تدهور الوضع بشدة.

قاد ذلك لسلسلة فحوصات انتهت بتشخيصي مصابا بسرطان المعدة، وقد انتشر الورم لعقد لمفاوية في أماكن أخرى.

حصلت على برنامج علاجي مبدئي يتضمن العلاج الكيماوي والجراحة لنحو ٧ أشهر قادمة، ثم يُعاد تقييم الموقف.

ليست مرحلة مبكرة، لكن ليس ميئوسًا منها بحمد الله..

لم أكن أنوي مشاركة الأمر علانية حرصًا على مشاعر أقارب وأصدقاء قررت أن أخفي عنهم، لكن تكرر أن أضطر لإبلاغ من تأخرت عليهم في رد أو عمل، فأصبحت حياتي سلسلة من تكرار لحظة الصدمة الأولى، وهو عبء لا يمكنني تحمله أكثر من ذلك.

* * *

في الكابوس في المرة الأخيرة اختلف شيء واحد. تكاثرت الأشواك فقررت أن أتوقف عن انتزاعها وبدأت في ابتلاعها داخلي، وحين فعلت ذلك اختفت كلها فجأة.

سأعتبر هذا فأل خير بزوال المرض بعد معاناة ورضا؛ بفضل دعم المحبين وصلواتهم.

كم أنا محظوظ!

يعرف القريبون مني أني أردد قاعدة: «السعادة إرادة».

خلاصتها أن الحالة النفسية للإنسان هي أمر يمكنه تطويعه بيده، ما لم يكن قد وصل إلى مرحلة المرض النفسي التي تتطلب تدخلًا طبيًّا.

لا يمكننا التحكم في الأحداث الأليمة بالحياة، لكن يمكننا التحكم في أنفسنا.

المشاعر يمكن أن تُختلق، فتُصدق، فتتحول حقيقة.

كان فرويد أول من ذكر فكرة «الحيل النفسية الدفاعية»؛ حيث يستخدم اللاوعي حيلا مثل «التبرير»، «الإسقاط»، «أحلام اليقظة» وغيرها لتخفيف وقع الحقائق، وفي هذا الإطار أنا بارع جدًّا في الابتكار الواعي لحيل نفسية للتعامل مع أي وضع كارثي، بل استخراج إيجابيات منه.

لكن لم يخطر ببالي قط أن تتعرض قاعدتي لاختبار بهذا الحجم.

* * *

حين دخلت المستشفى للمرة الأولى في ١١ يونية الماضي كانت الحيلة الأصلية «يحدث للآخرين فقط» تعمل بكفاءة.

أقصى ما يقلقني هو فقط إضاعة الوقت.

قلت لطبيبة الطوارئ بعد سرد أعراضي المعوية: أنا كنت طبيبا وأقف مكانك بالضبط، أفهم تماما أن أغلب من يأتون ليسوا حالات طارئة، وأعرف أنك الآن تفكرين في إعطائي «باراسيتامول» وستطلبين أن أعود للمنزل. أؤكد لكِ أن الأمر ليس كذلك. لقد جربت بالفعل أدوية كذا، وهناك علامات مميزة كذا؛ وبالتالي الأرجح أن التشخيص هو حصوة في المرارة.

أقنعها منطقي، ورفعت الهاتف وسمعتها تجادل طويلًا مع قسم الجراحة ليقبل حجزي. حصلت على موعد للسونار (الموجات الصوتية) بعد أيام قليلة.

تذكرت صديقا احتاج أشهرا للوصول لتلك النقطة. شعرت بالسعادة لحسن حظي.

* * *

أنظر بملل للطبيبة المتدربة التي استغرقت وقتا أطول من اللازم لفحص السونار، ثم استعانت بزميل.

في النهاية قالت إنه لا حصوات بالتأكيد، لكنَّ هناك تضخمًا بالعقد اللمفاوية في كل مكان ببطني، وإن هذه قد تكون علامة التهاب ما.

خرجت من عندها لأفاجأ أنه تم حجز موعد الأشعة المقطعية فوريًّا بعد ساعتين فقط.

شعرت بالخطر. هذه السرعة ليست منطقية، كما أني أعرف تماما احتمالات تضخم العقد اللمفاوية المنتشر.

لكن قررت تفعيل حيلة «تأجيل التفكير إلى حين اتضاح المعلومة».

أمضيت الساعتين في مشاهدة فيديو وقراءة معلومات عن العملات المشفرة، مجال اهتمامي الجديد الذي لا يهدف للاستثمار بل لإغراق أفكاري في عالم مختلف عن عالمي المعتاد ـ حيلة أخرى ـ لم أفكر لحظة في الأمر.

بعد الأشعة المقطعية جاءت الطبيبة الشابة التي طورت معي علاقة أعمق بعد أحاديث ودية حول تحولي للعمل الصحفي.

كانت مرتبكة بوضوح. قالت باختصار إنهم وجدوا «تضررا» lesion داخل المعدة، وإن هناك حاجة لمزيد من الفحوص للتأكد من طبيعته.

سألتها بشكل مباشر: تريدين أن تقولي ورما tumor؟

قالت: لا أقول: tumor، بل أقول: lesion.

لكني شاهدت عينيْها تدمعان خلف القناع في سلوك غير معتاد هنا إطلاقا. لعلي الحالة الأولى في حياتها التي تضطر لمواجهتها.

سحبت التقرير وخرجت لأقرأ، ففوجئت بأنها لم تقل المكتوب!

منذ أول سطر العبارات منذرة. خفق قلبي وارتبكت أنفاسي وفقدت القدرة على القراءة.

قفزت عيناي لتلتقط عبارات مجتزأة سريعة.. كتل متعددة.. ٥ سم.. تحت الفص السفلي من الرئة اليسرى.. الطحال.. تضخم كبير بعقدة كذا.. ٥ , ٣ سم.

لقد انهارت الحيل. لا مزيد من «يحدث للآخرين فقط»، بل أصبحت أنا «الآخرين» الآن.

لم أتصل بزوجتي.

أمام المستشفى حديقة بها صخور. جلست وحيدا على صخرة كبيرة، ووجدتني أبكي فقط.

فكرت أنه مشهد درامي جدًّا يليق بفيلم ما، وتذكرت أبيات الشاعر المصري إبراهيم ناجي «سألتُكِ يا صخرة الملتقى»، فغرقت في المزيد من شلل التفكير والدموع. حقًّا «إذا الدهرُ لجَّ بأقدارِهِ..».

بقيت مكاني حتى أفرغت الشحنة، فاستعدت بعض الهدوء وعدت إلى عقلانيتي.

السرطان كلمة مخيفة نفسيًّا جدًّا، لكنه في الواقع أقرب لأمراض مختلفة تماما.

حتى السرطان في نفس العضو قد يختلف.

مثلا سرطان الثدي له نوعان رئيسيان؛ أحدهما مرتبط بالهرمونات وبالتالي علاجه أسهل كثيرا بدواء يغلق مستقبلات الهرمون، بينما لا يعمل نفس العلاج مع النوع الآخر مطلقا، ويظل كلا النوعين للجمهور اسمه «سرطان ثدي».

فتحت التقرير وقرأت هذه المرة بهدوء وبدقة كلمة كلمة، لأجد أن الخلاصة أنهم يرجحون أن ما عندي هو إما ورم في المعدة من نوع GIST، وإما هو أحد أورام الغدد اللمفاوية Lymphoma، وأنه ستتم عملية منظار لأخذ عينة ستحسم ذلك.

فورا قفزت للبحث في جوجل عن 5 years prognosis

هذه هي العبارة الأهم على الإطلاق في عالم السرطان، وتعني كم نسبة المصابين الذين يبقون أحياء ٥ سنوات بعد التشخيص؟

من يصلون إلى ٥ سنوات يعدون «الناجين»، ويكتسبون اللقب الذهبي Cancer survivors (رغم عموميته، فهناك من يموت بعد السنوات الخمس بأشهر، وهناك من يعيش عشرات السنوات).

من البحث قدرت أن تشخيصي الأرجح هو سرطان معدة من نوع «جيست»، وأني في المرحلة الثالثة من انتشاره. وجدت أن نسبة الناجين هي ٨٠٪، بل حتى المرحلة الرابعة ينجو منها ٥٥٪.

مررت سريعا على أرقام «ليمفوما» فوجدتها في أغلب الأنواع جيدة أيضا. ممتاز.

تنفست الصعداء وقررت العودة إلى حيلة «كل شيء سيكون بخير».

* * *

في المنزل أخبرت إسراء مستخدما أقصى تعبيرات التلطيف والتشكيك. «من المحتمل» «من الوارد».

أكدت ما قالته الطبيبة أننا مازلنا نتحدث عن «ضرر» وليس عن «ورم» إلى حين ظهور نتيجة العينة، وسردت الأرقام المتفائلة.

تقبلت الأمر بثبات. لكن بعد ساعات اختفت، ووجدتها تبكي وحدها في غرفتنا..

اقترحت إسراء أن أتصل بالدكتور حسام عبد الله، وكان هذا أفضل ما فعلته يومها.

الدكتور حسام شخص ملهم على كل الأصعدة.

سيرته العامة أطول من أن تُروى هنا. من شاب ناشط سياسيًّا في العمل الطلابي في السبعينيات، تعرض للسجن عدة مرات لنشاطه مع مجموعات يسارية تعارض الرئيس أنور السادات، فاضطر لمغادرة مصر قبل إتمام الكلية، إلى أن أصبح اليوم الطبيب ذائع الشهرة، الذي نُقش اسمه على جدار الشرف الزجاجي في الجمعية الملكية البريطانية؛ اعترافا بفضله في تأسيس مركز ليستر أحد أوائل المراكز المختصة بالتلقيح الصناعي حول العالم. ارتباطه بمنح الحياة للأطفال يليق به فعلا.

لكن الأهم لنا هي سيرته الخاصة معنا.

في مطلع انتقالنا إلى لندن أسعدنا الحظ أن دعتني الصحفية والمحررة الأدبية الكبيرة منى أنيس لمنزل د. حسام وعرفتني عليه، ومنذ حينها هو بمثابة الأب لي ولإسراء، ولطالما فتح هو وزوجته د. مديحة منزلهما وقلبيْهما لنا.

تعلمت منه أهمية الاحتفاظ بالمراجعة الذاتية النقدية دائما، وأن مواجهة الأصدقاء والرفاق بالاختلاف معهم يتطلب شجاعة قد لا تقل عن مواجهة الخصوم، وذلك في سياق حكيه عن تحوله من اليسار السلطوي على طريقة ستالين إلى الديمقراطية الاجتماعية. ذات مرة روى موقفا طريفا عن هتافه ضد الرفاق القياديين من داخل زنزانته حين قرروا منع السجناء كافة من الاستماع لمباراة كرة قدم في راديو ستوفره إدارة السجن.

حين اتصلت بالدكتور حسام لم يخيب ظننا. بحماسه البالغ كأنه شاب في العشرين، وبصوته الجهوري، غمرنا بالضحك والتفاؤل.

«هُوَّ فيه أي حد ضامن يعيش ٥ سنين بنسبة ٨٠٪ يا بني؟ الرقم ده كإنك ماسمعتوش»

ذكرني بتجاربه الصحية البطولية الخاصة، فقد قام بزراعة الكبد أربع مرات، خلال ٢١ عامًا، منذ استئصال كبده بسبب إصابته بالسرطان عام ٢٠٠١. إن المرء قد يتعافى لسنوات من جراحة كبرى واحدة، فما بالنا بمن مر بأربع بكل مضاعفاتها وتفاصيلها؟ لقد رأى كل شيء من موقعي الطبيب والمريض أيضا. قال مازحا: «ما أنا قدامك زي القرد أهو».

أيضا تولت د. مديحة التأكيد على جودة النظام الصحي هنا، وشرحت لي آلية عمل لجان السرطان متعددة التخصصات.

The Multidisciplinary Team (MDT)

يعمل النظام الصحي البريطاني على أساس أن السرطان أكبر من تركه لطبيب الأورام وحده؛ لذلك بكل منطقة طبية لجنة تجتمع أسبوعيًّا، تناقش مطولًا كل الأبعاد وتتخذ القرار. «كونصولتو» كما نسميه في مصر.

فكرت بإيجابية أنه لو جاز وصف ما يحدث بحسن الحظ، فأنا محظوظ بالمرض هنا حيث العلاج أضمن.

قال د. حسام: «أنت تعرف معزتك عندي أد إيه، أنا هدخل أنام وأنا مطمن عليك، كإنك النهاردة بتقول لي: عندك دور برد».

أنهينا المكالمة بوجه غير ما بدأناها به.

سأظل للأبد ممتنًّا لـ د. حسام أننا تجاوزنا صدمة اليوم الأول بفضله.

* * *

في النظام الصحي الحكومي البريطاني ثمة عيوب عديدة منها التأخير البالغ، لكن النظام نفسه يتحول لكفاءة وسرعة مع الحالات الخطيرة.

الجداول الزمنية محددة: حالة اشتباه السرطان يتم إبلاغها بتشخيصها النهائي خلال أسبوعين، ويتم بدء العلاج خلال ٣٠ يوما من التشخيص.

لكن من الواضح أني جئت في ذيل القائمة، لم يعتبروني حالة طارئة جدًّا، كان موعد عملية المنظار في اليوم الأخير من الأسبوعين.

تناسيت الأمر تماما خلالها، وكانت أغلب الأعراض قد اختفت بعد تعديلات في نظامي الغذائي.

جاء تقرير المنظار الظاهري موافقا لما قبله: جيست تيومر أو ليمفوما، كما حمل عبارة صريحة أسعدتني: بناء على كذا «يبدو أن أدينوكارسينوما Adenocarcinoma مستبعد»، هذا هو النوع الأخطر، وهكذا كانت هذه نقطة الصعود التي اطلعت فيها أسرتي على التفاصيل كافة، بعد طول محاولات تهرب وتلطيف. والدي طبيب ومن الصعب الإخفاء عنه طويلا، وقد سعد بهذه العبارة تحديدا في التقرير.

أختي طبيبة أورام، وهكذا تولت التأكيد بدورها على أن حالات ورم «جيست» بسيطة قد مرت عليها.

كان لإخوتي دور معجز في تثبيت أبي وأمي، ونحن نعاني فراقًا طويلًا كافيًا للضغط العاطفي قبل كل شيء. لم ألتقِ أبي وأمي وإخوتي منذ ٦ سنوات!

بعد يومين وصلتني رسالة أن نتيجة العينة ظهرت، لكن حين دخلت تطبيق هيئة الصحة الوطنية البريطانية (NHS) على هاتفي ظهر أني غير مصرح لي بالاطلاع.

هذا الإجراء متبع مع ما يجب أن يبلغه الطبيب للمريض وجها لوجه.

لم أقلق، لكن حين قابلت الطبيب الأشيب سألني: «هل أتيت وحدك؟ ما الذي تعرفه عن حالتك؟» فشعرت بنُذر الخطر.

بثبات أخبرته بما أعرف، هذا ورم بسيط بنسب شفاء مرتفعة جدًّا، وبدأت استعراضًا معلوماتيًّا وخطبة متفائلة.

قاطعني فجأة مشفقا عليَّ من الأوهام:

«هذا يكفي. دعني أخبرك. العينة أظهرت أن هذا ليس جيست تيومر. هذا أدينوكارسينوما. هذه حالة نادرة جدًّا أن تظهر في عمرك، وأن تحمل هذا الشكل غير المعتاد لهذا الورم. كلنا كنا مصدومين من النتيجة. أنا تقريبا لم أشاهد مثل هذا في حياتي، وثق بي حين أقول إني رأيت الكثير!».

كان صرحا من خيال فهوى..

عادة تستفزني الأسئلة الإنكارية الغبية، لكني طرحت واحدًا: هل هذا مؤكد؟ هل من الوارد حدوث خطأ ما؟

قال ما أعرفه مسبقا: هذا ليس رأيًا فرديًّا.

ثم أضاف ضربة أخرى: بل أريد أن أعلمك أن خلايا سرطانك بوضوح poorly differentiated، وأنت تفهم معنى هذا.

يعني هذا أن الخلايا ليست فقط منقسمة بشكل غير طبيعي، بل إن خصائصها تتشوه، كاختلاف عدد الأنوية أو الميتوكوندريا، وهي علامة مميزة جدًّا للمراحل المتقدمة.

قال إن الحالة الآن خرجت من إطار لجنة السرطان الخاصة بهم (لجنة تحالف المستشفيات الأقرب لمنزلي غرب لندن: نورث ويك بارك - إيلينج - سان مارك)، وإنهم قرروا إحالتي للجنة مستشفيات الإمبريال كوليج: هامر سميث - سان ماري - تشيرنج كروس.

هذه أسماء مميزة جدًّا طالما ترددت مرتبطة بالأسرة المالكة البريطانية، وكانت د. مديحة قد قالت لي إن هامر سميث تحقق إحدى أفضل نسب الشفاء في العالم.

واصلت «الحيل» المرتبكة وقلت: بالتأكيد سأسمع هناك الأفضل.

لكن القادم كان أسوأ.

* * *

ذهبت لمقابلة الطبيب الجديد الأكبر، وهذه المرة أصرت إسراء على الذهاب معي.

كلما تذكرت تلك الأيام فلا أتصور كمَّ العظمة والقوة اللتيْن تختفيان خلف الوجه الرقيق لإسراء.

بكل ما تعرضت له مع والدها ووالدتها، بكل ما رأته في حياتها، ما زالت صامدة. تعمل بمجالها المعقد المختص ببحوث السوق،

ترعى طفليها؛ يحيى وأنا، تحافظ على عاداتها المميزة كالتدقيق البالغ في نظافة المنزل بعادات أقرب للتقديس. تخرج وتضحك. وتتفهم الأوقات الصعبة.

تذكرني بقصة أم روسية في أثناء حصار ستالينجراد، تمسكت بأن يلتزم منزلها وأبناؤها النظافة والنظام بينما يتقاتل الناس حتى الموت على ثمرة بطاطس فاسدة أو جرعة ماء ملوثة. لاحقا قالت إن هذا هو ما أبقاها تشعر ببشريتها. هذا ما أبقاها حية.

تاريخ حرب السرطان مليء بالنساء العظيمات الشهيرات من مواقع العلم أو السياسة مثل ماري كوري وماري لاسكر وغيرهما.

لكني أعرف جيدا أعظمهن في حياتي: إسراء.

* * *

كان الطبيب الجديد «إنجليزيًّا جدًّا»، وقررت بعد المقابلة أني لن أواصل المسار معه.

لا أحب إخفاء الحقائق، لكن بالمقابل ثمة قدر مطلوب من الحساسية شعرت بافتقاده معه.

قال بوجه متجهم إن الحالة خطيرة وصمم على تكرار very serious عدة مرات، كأننا نحتاج المزيد من التأكيد.

قال إن اللجنة تجمع على أن الحالة نادرة جدًّا في هذا العمر، وإن حجم الانتشار في العقد اللمفاوية أكبر بكثير مما يتناسب مع حجم الورم الأصلي؛ مما يعني أنه ورم شديد الشراسة very aggressive

وأن هذا إلى جانب علامات أخرى يضع احتمالَ أن الورم قد انتشر بالفعل عبر غشاء البطن «السائل البريتوني»، وبناء عليه سأكون قد وصلت للمرحلة النهائية ولن يكون أي إجراء جراحي ذا جدوى.

أخبرني أنه سيتم اجراء «جراحة استكشافية» لحسم الأمر.

غادرنا المكان، وفتحت الإنترنت بحثا عن الـ 5 years prognosis لهذه الحالة.

صفعتني أول نتيجة من صفحة سرطان المعدة بمؤسسة بحوث السرطان البريطانية[1]:

There are no 5 year survival statistics for stage 4 cancer. This is because, sadly, most people don't live for that long after diagnosis.

«لا توجد إحصاءات لمعدل النجاة بعد سرطان المعدة بالمرحلة الرابعة؛ نظرا إلى أن الناس لا يعيشون طويلا بعد التشخيص للأسف».

بحثت في مصادر أخرى فكانت الأرقام تتراوح بين ٤-٨٪ فقط.

كانت هذه أسوأ الأيام على الإطلاق.

بدأت جديًّا في تحضيرات ما بعد الموت. المعاش. الأموال. كلمات السر. ملكية المنزل.

أكدت لإسراء أن تتزوج بعدي من تشاء، ولا تغرق في دراميات «أعيش لابني».

---

(١) رابط صفحة سرطان المعدة بمؤسسة بحوث السرطان البريطانية:
https://www.cancerresearchuk.org/about-cancer/stomach-cancer/survival

في لحظات مفاجئة أشاهد بخيالي صورة النعي، ردود أفعال من أعرف، فأبكي رثاءً.

كلما صحبت ابني للنوم شاهدته يتيما في جنازتي فتطفر الدموع من عيني فورا.

لجأنا مرة أخرى لسدنا المنيع: د. حسام.

هذه المرة أخرج من جعبته أسلحة جديدة «للتفاؤل العقلاني»، وهو بالضبط ما يمكنني فهمه.

أولا: تشكك في دقة انطباق الأرقام على حالتي أصلا، قال إن تلك الإحصاءات تشمل كل الأعمار والحالات الصحية، بمن فيها مسنون وحاملو أمراض أخرى، بينما أنا شاب وحالتي مختلفة.

وانتقل للتأكيد على أن الأعوام الأخيرة شهدت قفزات علمية جديدة، بينما تلك الإحصاءات مبنية على علاجات أقدم.

ثانيا: انتقل لقراءة مختلفة للأرقام، قال إنها عامل مهم يوضع في الاعتبار طبعا، لكنها لا تعني شيئًا لكل فرد على حدة.

«إنت مش هتعيش بنسبة ٤ ولا ٨٪ مافيش حاجة اسمها كده، إما عايش ١٠٠٪ وإما ميت؛ فالاحتمال لكل فرد لوحده صفر أو واحد»

قال إنه يمكن أيضا النظر للنسبة من الناحية العددية، الـ ٤٪ الناجون لو افترضنا أنهم من إجمالي ١٠٠ ألف مريض فالفرصة ١ من ٤٠٠٠، وهي فرصة كبيرة أيضا.

لاحقا حين توفيت صديقة أصدقائي ريما شيري رحمها الله تذكرت حديثه، فهي كانت مصابة بسرطان الثدي من المرحلة الثانية، مفترض أنه من أسهل الأنواع وأفضل النسب (٩٠٪)، لكن ما حدث للأسف هو أن نصيبها أنها كانت من الـ ١٠٪ الذين لا ينجون.

بقدر ما يحمل هذا حزنا بالغا، فإنه يحمل نظرة أخرى للأرقام.

إذا كان يجوز أن يموت من نسبة نجاته ٩٠٪، يجوز أن يحيا من نسبته ١٠٪؛ لأنه فعلا في الحالتين كل فرد النسبة الخاصة به هي - كما يقول دكتور حسام - صفر أو واحد.

إذن لا خيار لنا إلا فعل ما بيدنا دون الإفراط في الاعتماد على الأرقام، وترجيح أي احتمال بعينه.

قال د. حسام أن أركز على اللحظة الحالية، الآن وهنا حالتي جيدة، لا أعراض مؤلمة جدًّا ولا عجز عن الحركة، لا يوجد ما يسبب الهلع الآن، مش هتموت بكرة.

* * *

أجريت الجراحة وأفقت منتظرا النتيجة.

فكرت أني لطالما انتظرت بتوتر الكثير من النتائج؛ امتحانات، انتخابات، مسابقات، لكن هذه المرة أنتظر نتيجة حياتي نفسها، بدت لي كل الانتظارات السابقة صغيرة وتافهة.

جاء الطبيب الصارم مع مرافقه الطبيب الأصغر، وكلاهما كان يضحك. خمنت أن الخبر جيد.

بدأ الحديث بأن طبيب التخدير أخبره أني صحفي وأن لي كتابات بالإنجليزية وأنه سيبحث عن اسمي، ضحكت وقلت ما معناه: تمام أنجز، ماذا وجدت؟

فقال بلهجة عابرة: لا يوجد أي انتشار بغشاء البطن، ولا بالأعضاء الرئيسية. لقد نظرت إلى كبدك بنفسي وتأكدت أن الورم لم ينتقل من العقدة المجاورة له إلى العضو نفسه.

جاء دوري للتشكك المتشائم: ماذا عن تحليل عينة السائل البريتوني؟ كيف تحسم منذ الآن؟

قال بابتسامة واسعة حاسمة: سنجريه طبعا، لكن ثق في خبرتي، ستكون نتيجته سلبية.

كأنه أعتقني!

قال إنه سيتم فورا إحالتي لبرنامج العلاج الخاص بالمرحلة الثالثة: ٤ دورات من العلاج الكيماوي، ثم عملية لاستئصال المعدة بالكامل، ثم ٤ دورات كيماوي أخرى، وإن هذا سيستغرق نحو سبعة أشهر قادمة على الأقل.

سألته ضاحكا: ولن تترك لي ولا جزءا صغيرة من معدتي المسكينة؟

قال: لا على الإطلاق.

قلت له: لا مشكلة، لقد ابتكرت حكمة: «إنسان حي بلا معدة أفضل من إنسان ميت بمعدة».

ضحكنا جميعا كأنه أفضل خبر في العالم.

أرقام النجاة بالمرحلة الثالثة سيئة، لكنها أفضل من السابق.

أخيرا يمكن أن نشاهد أرقاما مثل ٢٤٪ و٣٢٪. فرصة واحد من كل ثلاثة أو أربعة ليست بالفكرة عسيرة التخيل.

الوفاة لا تحدث عادة بسبب الجولة الأولى من المرض، بل بسبب الجولة الثانية بعد عودته Cancer relapse؛ حيث نسبة العودة ٧٠٪ خلال عامين فقط بعد العملية، ٩٠٪ خلال ٥ أعوام.

لكني لم أعبأ، فلننجُ الآن، وأشاهد بعيني عبارة «كلير»، وإذا عاد لاحقا فليكن لكل حادث حديث.

الآن أعرف أني كنت محظوظا بما حدث بهذا الترتيب، بالتأرجح نحو الأسوأ تماما ثم العودة للأفضل نسبيًّا.

لو كان قد تم ابلاغي بالتشخيص النهائي في البداية لكان الأمر أسوأ نفسيًّا بكثير في تقبله، خاصة أن هذا الاستئصال الكامل له تبعات ستؤثر مدى حياتي.

ساهم هذا أيضا في تفعيل حيلة «الحمد لله الذي عافانا».

الجيوش النفسية تتراجع لخطوط دفاع أكثر تأخرًا.

فكرت في الأمور التي أخافها أكثر من السرطان وأفضل الموت عنها. أمور مثل الشلل الرباعي أو ألزهايمر مثلا، فشعرت بالعزاء أنها لم تصبني.

لكني داخليًّا فكرت أيضًا في مخاطر هذه الحيلة التي تتطلب دائما التعامل معها بحذر، من ناحية بعدم إعلانها لعدم جرح

مشاعر من يعرف مصابا بالأصعب، ومن ناحية لأنه يمكن في لحظة أن يجد الإنسان نفسه في الوضع الذي كان يعزي نفسه بنجاته منه.

للجيوش حدود في الانسحاب حين تجد نفسها محاصرة للجدار الأخير. لكن قلت إنه الآن وهنا ما زالت هناك خطوط، إذن سأستغلها وفي المستقبل سنرتجل حسب التطورات.

حسنا، آليات «التفاؤل العقلاني» تعمل بشكل أفضل الآن. نعود إلى «السعادة إرادة».

* * *

قدرت أن الأسلم نفسيًّا أن يظل الخبر غير منتشر، سيحملني انتشاره عبئا لا داعي له.

تدريجيًّا بدأت إبلاغ عدد محدود من الأصدقاء والأقارب، غالبا يكون السياق هو تفسير تأخري عن الرد على رسالة أو طلب.

لكن الأمر أصبح عبئا رهيبا.

بعض ردود الأفعال كانت جيدة جدًّا، تحديدا من فئة الأصدقاء «الهزليين» و«المتفائلين العقلانيين».

صديق من فئة الهزليين تعامل حرفيًّا كأني قلت له نكتة، وانقلبت المكالمة ضحكا بلا أي سؤال جاد على الإطلاق، وآخر أطلق دعابة بذيئة عن الأعضاء الأهم في الجسم من المعدة، بينما تحدث «متفائل

عقلاني» عن نسب وفيات الشباب في حوادث السيارات وأنها لن تختلف كثيرا عن احتمال الحياة خمس سنوات بعد تشخيصي.

لكن بعض ردود الأفعال كانت تدمر خطوط دفاع جيشي النفسي.

بعض الأحباء انهاروا في البكاء فبكيت معهم. هناك من تحدث بصيغة الماضي، «إنت كنت كذا»؛ فشعرت أنه ينعاني وأني مت بالفعل.

بعد مكالمة بعينها قلت لإسراء إني لن أفعل هذا مرة أخرى أبدا، ولن أبلغ أحدًا أعرف أن مشاعره رقيقة مثل فلان.

لا ألومهم أبدا، هو فقط فرق مراحل، هم ما زالوا في أول يوم، بينما أنا تجاوزته من زمن، ومشكلتي أنا هي تكرار ذلك اليوم الأول مرارا.

هكذا قررت أن الإعلان ربما أصبح هو الأفضل، وقد كان.

* * *

فوجئت بحجم التفاعل وبمدى شخصيته.

تبارى الجميع في الابتداع. هدايا مفاجئة تصل للمنزل. ترشيحات كتب للقراءة. صديق وجد أخيرا «الرَّدة» (نخالة القمح) في لندن لنعقد ولائم سمك بالطريقة المصرية بعد طول حرمان. حفلات مرتجلة. استضافات مطولة ليحيى. عروض عديدة باستشارات طبية تمتد من فرنسا وألمانيا إلى أمريكا.

من أكثر الأمور المؤثرة هو ما يحدث بظهر الغيب دون أن أعرف أصلا.

وجدت مرارا أشخاصا كتبوا أدعية أو تمنيات ولم يضيفوا اسمي «وسمًا» tag فلم أرَ ما كتبوه».

شخص تصدق باسمي لمؤسسة «مرسال» الخيرية وأرسل الإيصال لي، أيضا نفس السلوك مع مؤسسة «أبواب الخير» وغيرها. قريبة أرسلت عن صديقتها التي لا أعرفها أنها ذهبت للعمرة وتدعو لي.

فتحت التعليقات التي تجاوزت الآلاف الستة فوجدت أني نادرا ما أقع على اسم لا أعرفه، الغالبية أعرفهم بشكل شخصي، أو على الأقل بشكل «إنترنتي».

أصدقاء وزملاء من عوالم ومراحل مختلفة في حياتي.

دفعتي في كلية الطب. أصدقاء وزملاء في دورات اقتصاد وعلوم سياسية. المنتديات عصر ما قبل الفيس البوك. فعاليات ومظاهرات ثورة يناير. حملات انتخابية وغير انتخابية. الصحف والقنوات التي عملت بها في مصر وخارجها. دورات تدريبية وتجمعات متنوعة أدبية وفنية. مصريون ومختلف الجنسيات العربية والأجنبية. بكل دائرة عشرات الأحباء ومئات الذكريات.

* * *

فكرت أني محظوظ فعلا.

ليس لأن التشخيص ظهر أنه أفضل نسبيًّا مما توقعت.

وليس لأن الأسوأ لم يقع (خاصة أنه يظل من الوارد أن يتغير الوضع في أي لحظة. هناك علامات منذرة معينة تعذر تحليلها، وقال الطبيب إنه سيتم فحصها بعد جولة الكيماوي وقبل العملية).

بل أنا محظوظ بهذه الحياة التي منحتني كثيرًا جدًّا من الثراء الإنساني والحب في سنوات قليلة.

محظوظ بكم جميعا.

ليست حيلة نفسية ولا جسدية جديدة، لكنه توصيف للواقع بحلوه ومره. مُنحت كثيرًا وفزت كثيرا، وأيضًا خسرت كثيرا، وسقطت على رأسي مصائب كثيرة آخرها تلك المصيبة الكبرى، لكن في الصورة الكبيرة أجدني رابحًا لا خاسرًا.

ربحت كل هذا الحب. كل فرد من أسرتي وأصدقائي أحبني وأحببته، ومنحني من نفسه ومنحته من نفسي.

وبهذا عشمي أن أحيا.

عشمي أني لا أكتب الآن رسائل وداع لتُنشر كرثائيات بعد رحيلي، بل نصوصا للذكريات الحاضرة نتذكرها معًا بعد سنوات طويلة، وربما نسخر من دراميتها. «قاعد على قلبكو».

ولعل الحياة تثبت مثل السعادة أنها أيضا إرادة...

والآن أريد أن أتعرف على صديق جديد: النسيان

«وأنا أريدُ، أريدُ أن أحيا، وأن أنساك...».

يخاطب الشاعر محمود درويش الموت في قصيدته التي كتبها بعد عملية جراحية خطيرة بالقلب.

من معجزاتنا البشرية قدرتنا على نسيان الموت، وإلا لتوقفت الحياة تماما، وانقسم كل البشر إلى منتحرين، أو شهوانيين عابثين، أو نُسّاك زاهدين.

وإذا كان يمكن أن ننسى الموت، فهل يمكن أن ننسى أي شيء آخر بما في ذلك المرض؟

* * *

٢٨ يولية ٢٠٢١

التقيت الطبيب الذي سيشرف على مرحلة العلاج الكيماوي الأولى.

كنت في أفضل حالاتي المعنوية والجسدية. «الحيل» التي تحدثت عنها سابقا تعمل بكفاءة.

كنت قد قرأت قبلها قائمة الأعراض الجانبية باطمئنان تام. أنا متأكد من أنها ستكون محتملة ومؤقتة، ولن تصيبني الأعراض الأخطر.

«يحدث للآخرين» فقط طبعا!

قرأت أيضا أن كل جلسة علاجية بهذا البروتوكول تمتد إلى ٣٠ ساعة، أمضي ٦ ساعات في المستشفى ثم أغادرها إلى المنزل حاملا مضخة صغيرة تواصل حقن الدواء في عروقي لمدة ٢٤ ساعة، ثم أعود للمستشفى.

فكرت فقط أن ٦ ساعات هي فرصة لطيفة للقراءة والكتابة أو مشاهدة أفلام مملة لا ترحب إسراء بمشاهدتها معي، وهكذا خصيصا اشتريت «تابليت»، وحمَّلت عليه برنامج «كيندل» للقراءة الإلكترونية.

محمَّلًا بهذه الروح مفرطة التفاؤل التقيت الدكتور الذي يحمل اسما مزيجا من الآسيوي والإنجليزي. ارتحت لكونه يبدو يابانيًّا، أي أن انطباعي الأول أنه ذكي بالتعريف، لكن فورًا فكرت أن هذا تنميط غير عقلاني. بالتأكيد هناك يابانيون أغبياء وفاشلون. وماذا لو كان هنديًّا أو عربيًّا؟ هل هي أشباح العنصرية العكسية؟

ثم ماذا لو لم يكن يابانيًّا فعلًا؟ أتصور أني أستطيع تمييز الأعراق الآسيوية، لكن ربما هذا مجرد وهم، والرجل كوري جنوبي أو صيني أو فيتنامي. مستحيل أن أسأله طبعا.

ثم سعدت أن «حِيَلي» تعمل إلى حد أني غرقت في هذه الأفكار المتفلسفة وفقدت التركيز على حديثه حول الأعراض الجانبية، ولم أسأله أي سؤال.

* * *

في كتابه بالغ الإفادة «إمبراطور المآسي: سيرة للسرطان» يقول د. سيدهارتا موكرجي؛ طبيب الأورام الأمريكي البارز ذو الأصول الهندية، إن من أبرز تحديات السرطان ألا يلتهم حياة من يحتك به.

يروي عن بدايته في هذا المجال، حين اكتشف أن سنوات تعليمه وعمله السابقة كانت أشبه بلعب الأطفال. انتبه لمدى كآبة حياته بعد أول عامين من الزمالة.

«لقد استنفد السرطان حياتنا، غزا خيالاتنا، شغل ذكرياتنا، وتغلغل في ثنايا جميع أفكارنا ومحادثاتنا. وإذا كنا ـ نحن الأطباء ـ قد وجدنا أنفسنا منغمسين في السرطان فلابد أن مرضانا وجدوا حياتهم مأخوذة به تماما».

يحكي أنه سأل امرأة مصابة بسرطان عنق الرحم عن رأيها في رواية شبه فيها الكاتب المرض بالسجن، فقالت له: «لسوء الحظ لم أكن بحاجة لأي استعارة لأقرأ الكتاب، لقد كان السرطان دولتي المستبدة، كان سجني».

قرأت الكتاب بعد أيام من التشخيص النهائي، وقررت أني سأفلت من هذا السجن.

دائما هناك تحدي عدم اختزال الشخص في معاناته. ألا يكون تعريف اللاجئ أنه لاجئ فقط، أو الناجية من التحرش أنها الناجية فقط.

لا أريد أن يكون تعريفي وهويتي هما «مريض سرطان»، بينما ينمحي كل شيء آخر.

كالعادة وضعت خطة.

الخطوة الأولى: النسيان العمدي

يجب أن أنساه، أن يكون حضوره مرتبطًا بأعراضه وبالأوقات التي يعلن فيها عن نفسه فقط.

تصورت أن هذا سهل حيث إنه في تلك النقطة كانت الأعراض قد تراجعت إلى حد كبير. سيقتصر حضوره على اليومَيْن اللذَيْن أتلقى فيهما العلاج، وربما بضعة أيام بعد كل مرة لا أكثر.

النسيان لا يمكن تحفيزه بالتفكير فيه، لو قررت أنك ستنسى كذا فستكون هذه الفكرة نفسها هي أكثر ما يذكرك بما تريد نسيانه.

النسيان طريدة مراوغة، لن تحصل عليها بملاحقتها أبدا، بينما ستتمسح بك إذا تشاغلت عنها.

الحل الانغماس في أفكار وأنشطة أخرى.

كان مفيدًا للغاية أني تلقيت في ذلك الوقت زيارة من السيد إيدن وايت[١]، وهو صحفي بريطاني مرموق ذو سيرة مهنية مثيرة طالما كانت ملهمة لي.

---

(١) رابط صفحة إيدن وايت على موسوعة ويكيبيديا:
https:en.wikipedia.org/wiki/Aidan_White_(journalist)

ربما بحكم ميلاده في أيرلندا الشمالية ورث طباع النضال الطويل لأجل ما يؤمن به حتى لو وقف ضد التيار السائد، منذ قاد حملة دولية ضد قصف الناتو لمقر الإذاعة والتلفزيون في صربيا عام ١٩٩٩، ومرورا بمهاجمته برنامج رصد أطلقه البنتاجون يستهدف الصحفيين الذين يكتبون حول الحرب على الإرهاب، وحتى انتقاده الحاد لتفجير إسرائيل برج الجلاء في غزة عام ٢٠٢١؛ مما أسفر عن تدمير مقرات مؤسسات إعلامية عالمية وعربية.

أمضى وايت ربع قرن في منصب السكرتير العام للاتحاد الدولي للصحفيين، وهو أكبر منظمة من نوعها، ينضوي تحت مظلتها اليوم نحو ٦٠٠ ألف صحفي من ١٨٧ نقابة وجمعية من ١٤٦ دولة حول العالم، ثم أسس شبكة «الصحافة الأخلاقية».

لكن كان هذا وقت تعرفي على جانب آخر من سيرته الشخصية. حكى لي عن شريكته الراحلة بريتا بيترز التي توفيت قبل عام واحد بالسرطان في ٢٠٢٠. لم أكن أعرف هذا.

قال إن المرض تم اكتشافه وهو في مرحلته النهائية بالفعل، أظهرت الأشعة الأورام منتشرة حول هيكلها العظمي في كل مكان، «كأنها أضواء شجرة الكريسماس!».

توقع الأطباء أنه ربما ما تبقى لها من وقت هو أشهر، لكنها عاشت خمس سنوات، منها عامان على الأقل بصحة جيدة، وخلال كل هذه الفترة كانت تواصل أنشطتها الشخصية والمهنية ما أمكنها ذلك.

كانت بريتا مديرة التطوير بمؤسسة رويترز، ولها نشاط بارز في مجال توثيق الفجوة الجندرية ضد النساء بالمؤسسات الصحفية؛ لذلك أطلقت المؤسسة «منحة بريتا»(١) التي تحمل اسمها لدعم تمكين الصحفيات.

واليوم السيد وايت نفسه، وهو في السبعين من عمره، ورغم أنه ما زال يساهم في مشاريع كبرى عديدة، يبدأ تجربة جديدة كشاب في مقتبل العمر عبر إطلاقه صحيفة صغيرة محلية في منطقته «نيوهام» شرق لندن. قال لي إنه بدأ المهنة في صحيفة محلية قبل ٥٠ عاما، واليوم هو بالغ الحماس للعودة لما بدأ به.

كنت وقت تدهوري الصحي قد اعتذرت تباعًا عن أي ارتباط مستقبليّ سواء مهني أو شخصي، بل توقفت عن متابعة الأخبار، حتى إني لم أعرف عن أحداث انسحاب أفغانستان إلا بعده بيوم.

لكن مع دفقة الحماس، وبالنموذج الملهم أمام عيني للسيد وايت، قررت العودة للحياة ومحاولة متابعة ما يمكن من أنشطتي.

* * *

قرأت نصيحة رئيسية أخرى للنسيان العمدي:

Avoid the triggers

تجنب الأشياء التي تحفز على التذكر.

---

(١) رابط صفحة منحة بريتا بموقع مؤسسة رويترز:
https://www.thomsonfoundation.org/projects/The-Bettina-Fund

كنت قد بدأت قراءات مكثفة حول السرطان علميًّا وأدبيًّا، كل تجربة متاحة، فقررت أني حصلت على ما يكفي، ووضعت خطة قراءات، وقررت أن أكتب سلسلة من عروض الكتب.

ولحسن الحظ حُلت تماما مشاكل إمدادات الكتب بفضل «كيندل»، وأيضًا بفضل كرم الأصدقاء.

أهداني السيد وايت تشكيلة من القراءات المثيرة منها أعداد قديمة منتقاة بعناية فائقة من مجلة «نيويوركر ريفيو». أهداني الأستاذ حسين عبد الغني قادما من مصر اختيارات موفقة جدًّا؛ حكاية فرح لـ د. عز الدين شكري. وشوق الدرويش لحمور زيادة. ينتظرني تاريخ موجز للخليقة وشرق القاهرة التي أهداها لي سابقا شادي لويس، بينما وصلت من رام الله هدية طازجة عابرة للبحار من كاتبها عباد يحيى، والقائمة لا تنتهي من الأصدقاء والقراءات.

القراءة بالنسبة إليَّ ليست تسلية ولا هواية، بل عمل بالغ التركيز، لا يصاحبه أي أعمال أو أفكار أخرى. لا أقرأ أبدا إلا بصحبة قلم أو الـ «نوتس» على هاتفي، أسجل ملاحظات وتعليقات تصنع فهرسًا خاصًّا لي.

هذا وقت للنسيان التام ليس للسرطان فقط، بل للدنيا كلها.

على صعيد آخر، وجدت أنه من المفيد تدريب النفس على الاستغراق في أفكار بعيدة عن اللحظة الآنية حتى بدون أفعال مصاحبة ـ كأفكاري السارحة حول الطبيب ذي الأصل الياباني!

* * *

الخطوة الثانية: صيد الدوبامين

العلاقة بين الحالة النفسية والسرطان أمر جدلي جدًّا، بدأت أقرأ أوراقًا علمية تحمل ربطًا منطقيًّا.

على سبيل المثال، يؤدي الضغط النفسي إلى زيادة إفراز الكورتيزون؛ وهذا بدوره يؤدي إلى انخفاض «السيتوكاينز» وهي خلايا طبيعية تقتل السرطان.

أيضا أبحاث أخرى[١] حملت ربطا دامغا بين انخفاض مستقبلات «الدوبامين» في المعدة ورفع احتمالية الإصابة بسرطان المعدة أو رفع قدرة الخلايا السرطانية على النمو، إلى حد وجود دعوات جدلية حول استخدام الدوبامين لعلاج سرطان المعدة تحديدا رغم أنه لم يثبت بعد مدى فائدة ذلك.

الدوبامين، أو «هرمون السعادة» مرتبط بالحالة النفسية بشكل مباشر؛ لذلك الأدوية التي تعمل عليه هو والسيروتونين تستخدم في علاج الاكتئاب.

حين قرأت عن ذلك؛ قررت أني سأرفع دوباميني بشدة.

سأدخل تعديلا على أنشطتي: البعد عن مسببات التعاسة والبحث عن التفاهة.

امتنعت تماما عن مشاهدة أي شيء قد يثير مشاعر غضب أو حزن. كل الأفلام الحزينة، أو الأخبار السياسية التعيسة. اخترت

---

(١) https://pubmed.ncbi.nlm.nih.gov/15240521

«إخفاء» للكثير من الأشخاص الذين كنت أتابعهم على فيس بوك. يكفي أن يثير أي منشور مشاعر الغيظ أو الحزن لأخفي المكتوب وصاحبه من أمامي. كل تلك الأمور تزيد من إفراز «إسيتايل كولين» أو «أدرينالين» وهي هرمونات يدور الحديث حول أثرها السلبي.

وبالمقابل حان وقت التركيز على عشقي قديم لفئة معينة من الأفلام والأغاني التافهة.

يندهش بعض أصدقائي حين يعرفون حبي لبعض أفلام تامر حسني الكوميدية التي أعتبرها أقرب لأفلام الكارتون. «عمر وسلمى» بأجزائها الثلاثة من أفلامي المفضلة، و«أهواك» مع الفنانة الشاملة انتصار فيلم رائع!

في أحد الأيام بدأت بالشكوى لإسراء، فقالت: «اطلع من المود ده» وفتحت فورا فيلم «البدلة»، فخرجت من ذلك «المود» فعلا. تامر مع أكرم حسني أنتجا ميكس هايل!

المهرجانات أيضا وصفة عظيمة.

في العموم أنا أتابعها بشكل معمق جدًّا منذ سنوات، والتقيت شخصيًّا ببعض المؤسسين الأوائل وبعض الأقل شهرة؛ بهدف عمل صحفي لم يُنشر بسبب سرقة اللابتوب وقتها ـ لعلي أستدعي بعضه من الذاكرة لاحقا.

كثيرا ما وضعت سماعات الهاتف في أذني وشغَّلت تلك الأغاني الصاخبة في الطريق من أو إلى المستشفى. أرفع الصوت ليغمر

كل شيء. تختفي لندن، والعبارات الإنجليزية، والباصات الحمراء. أطير عبر المكان والزمان إلى «إمبابة دولة وأنا فرد منها» وإلى «عمود كردان الجيزة».

مغامرات «شواحة» مع «الضابط أبو نجمة»، و«أبو عبير» مع «مفتاح المكنة» على الكوبري، وغيرهم من الرفاق.

فجأة يصبح السرطان بعيدًا جدًّا، وصغيرًا جدًّا.

* * *

٣ أغسطس ٢٠٢١

مفاجآت تتحدى النسيان..

أتوجه للمستشفى لتركيب «القناة الوريدية» Picc line

عرفت عن الأمر قبل أيام وفاتني أن أقرأ عنه، كنت قد مررت عليه بشكل عابر باعتباره أمرًا هامشيًّا مثل «الكانيولا» أو الحقن.

لكن لماذا يحددون له موعدًا مستقلًّا قبل بدء الجلسات؟

حين بحثت فوجئت أنها عملية جراحية بسيطة تشبه القسطرة القلبية، يتم بها إدخال أنبوب رفيع من وريد في ذراعي عميقًا إلى وريد قرب القلب، أو في حالات أخرى إلى الأذين الأيمن من القلب نفسه، ويبقى مكانه طيلة أشهر العلاج.

خيانة!

شاهدت الصور: شكله الخارجي أكبر وأسوأ من الكانيولا بوضوح. ما اتفقناش على كده!

كان إجراء تركيبه في حد ذاته بسيطًا، لكن مشهده حمل ثقلًا نفسيًّا سيئًا جدًّا.

أفكر أن هذا السلك المتدلي من ذراعي بقطعه البلاستيكية وألوانه يخترقني حتى القلب، ويقيدني. أملاني الطبيب الذي قام بالإجراء قائمة الأنشطة الممنوعة كي لا يتحرك أو يتلوث، تضمن ذلك السباحة والرياضة ذات الحركات المتكررة وغيرهما.

ماذا عن الاستحمام؟ رشح لي واقيا معينا. شاهدت الصور. ضخم وسخيف جدًّا كأنه جزء مبتور من بذلة رائد فضاء.

لقد أصبحت أسيرًا وهذا وشم السجن.

أدركت أنه عمليًّا لا يمكنني أن «أفويد ذا تريجر»، سيكون ملاصقا لي في كل لحظة.

قلت للطبيب إني لا أريد أن يشاهد طفلي شكل القناة الوريدية وأريد غطاءً له، فمنحني غطاءً قماشيًّا مخصصًا. كان الغطاء لي لا لطفلي.

انضممت لمجموعة على فيس بوك تضم حاملي «البيك لاين»، العديد منهم تفننوا في الرسم أو التلوين عليه كما نفعل بجبيرة المكسورين، ومهم من غطاه بملصقات أطفاله.

بالنسبة إليَّ، ورغم تفنني في حيل خداع الذات والأوهام التي تتحول إلى حقائق، شعرت أنها خدعة سخيفة جدًّا لتجميل ما لا يُجمَّل. الأفضل إخفاؤه عن ناظري فقط.

رغم كل شيء خلال أيام كان جسدي قد اعتاد ملمس اللاين، وفهمت كيف أنام به، وأصبحت كثيرا ما أنسى وجوده تماما، ما لم يذكرني الجزء البلاستيكي الصلب فيه بنفسه في حركة خاطئة.

* * *

٥ أغسطس ٢٠٢١

ذهبت مع إسراء لجلسة الكيماوي الأولى سعيدا فعلا.

تغلب لديَّ شعور المغامرة والفضول، أحب تجربة كل شيء جديد، وهذا الشيء جديد جدًّا. كنت سعيدا كطفل ساذج يقترب من الخطر بضحكة عالية.

لحظة تسرب الدواء الأولى لعروقي شعرت ببعض السخونة تغمرني تدريجيًّا، وفي طريق العودة بعض الغثيان، ضيق التنفس. عدا ذلك أنا بخير.

لا شيء خارق الألم أو المعاناة.

بعد ساعة في المنزل سخرت: «ده آخره في الأكشن؟ هسميه كيمو الضعيف». قلت ذلك وأنا أفتح الثلاجة وأتناول عصيرًا ما، فتلقيت الصفعة فورًا.

ألف شرارة اندلعت في فمي. غزو مفاجئ لخيوط العنكبوت الكهربائية.

تركت ما بيدي مرتاعا، وهرعت للمياه الدافئة لأعادل الأثر مرددا: أنا آسف يا أستاذ كيماوي.

هذا هو عرض «فرط الحساسية للبرودة» الموصوف في الأوراق مع تحذير واضح من السوائل الباردة.. ده طلع بجد!

بعد قليل بدأت الزغطة أو الحازوقة أو أيًّا كان اسمها حسب اللهجات العربية. قرأت عنها في الأوراق وبدت عرضا تافها مثيرا للضحك، لكنها حين تستمر لساعات لا يصبح الأمر مضحكا.

دخلت مجموعة من مرضى سرطان المعدة وكالعادة تنوع التجارب شاسع، بين من لا يصيبه ذلك العَرَض أصلا وبين من تحولت حياته جحيما، واحتاج عملية جراحية خطيرة لقطع عصب معين.

لحسن الحظ لم يطل الأمر طويلا، ونمت بسلام تام.

في اليوم التالي ذهبت للمستشفى لنزع المضخة، وفي اليومَيْن التاليَيْن كانت الأعراض في إطار المعقول جدًّا، قلت إني أصبت بأدوار برد أصعب.

مصر ما زالت بالقائمة الحمراء البريطانية بسبب الكورونا، لا تأشيرات، تحمست جدًّا لفكرة أن ألتقي أسرتي في دولة ثالثة، وبدأنا نخطط للحجز إلى ألبانيا أو لبنان.

استشرت الممرضة المختصة (لكل مريض سرطان رقم هاتفي يتصل من خلاله بـ«الممرضة الإكلينيكية» المسئولة عنه، قد تجيب أو تتواصل مع الطبيب)، فقالت إن من الأفضل عدم السفر لأنه في حال أي طارئ مثل تلوث القناة الوريدية، أو ارتفاع درجة حرارتي،

«نحن هنا ٢٤ ساعة لكن لن نكون جانبك بالخارج»، لكن أخبرتها أن الأمر مهم فقالت إن هذا ممكن «لو كنت تحتمله».

* * *

٩ أغسطس ٢٠٢١

اليوم الخامس. ضربة غادرة قاسية. آلام في أذني وعيني وجيوبي الأنفية. أصوات ماكينات هادرة في أذني كأنها مضخة مياه لا تتوقف.

آلام عضلات في كتفي ورقبتي مختلفة عن كل ما عرفته، كلما جلست شعرت كأنها مياه تغلي داخلي وتريد الخروج للخارج، فأتحول للوضع النائم. قرأت تعبير «الغليان» مكررا حول العالم.

مستحيل ركوب أي طائرة بهذا الوضع. ده طلع بجد!

كنا قد رتبنا كل شيء، وتواصلت مع صديق في لبنان للتأكد من وجود رعاية طبية حال الحاجة لها، وعرفت ما يمكن أن يحضره والدي من مصر من أدوية.

تم إلغاء فكرة أي سفر تماما.

* * *

٢٣ أغسطس ٢٠٢١

ذهبت للحلاق لإزالة شعر رأسي بعدما وجدت أكواما منه على الوسادة صباح ذلك اليوم.

كان الأمر قد بدأ يتزايد قبلها أيام، وقررت أني سأزيله فقط بعد عيد ميلاد يحيى ٢٦ أغسطس، لكن فجأة أصبح من المستحيل الانتظار.

لم أهتم قط بالأمر سابقا، عموما لا يوجد عندي الكثير من الشعر، كثيرا ما فضلت تقصيره لأقصى مدى.

لكن بينما أشاهد ما بقيَ منه يتساقط، كان المؤسف هو فقد التحكم.

لم يعد يمكنني التحكم حتى في تفاصيل شخصية بسيطة كهذه.

أيضا هكذا حملت الشكل المميز لمتلقي العلاج الكيماوي. حاولت التفكير بإيجابية: دائما ما أكره حلاقة ذقني، أسوأ نشاط بيولوجي ذكوري. أدينا أخدنا مصلحة من القصة دي على الأقل!

* * *

تدريجيًّا أفهم ما يحدث.

أفهم أسبابًا أخرى لتسميته بالمرض الخبيث؛ لأنه يتحدى النسيان!

صحيح أن قدرة الإنسان على التعود والنسيان لا يضاهيها شيء، لكن هذا يشترط وجود نمط ثابت يمكن التعود عليه.

لكن ما يحدث هو أن حياتي أصبحت سلسلة من المفاجآت. مفاجآت سيئة أو جيدة، لكن كلها تتحدى التخطيط.

كل يوم هو مغامرة جديدة. بعض الأيام حالتي ممتازة إلى حد أنشطة جسدية كالرياضة والمشي ١٠ أميال وممارسة أعمال زراعية، وبعض الأيام أعاني تشكيلة من الأعراض، أو نائم ١٥ ساعة.

لا قاعدة على الإطلاق.

ساهم في شعور المفاجأة المتجددة إدراكي العملي للجدلية الفلسفية الخاصة بعجز اللغة.

أذكر كتاب د. عبد الوهاب المسيري «اللغة والمجاز» وقد عنون أحد الفصول بعبارة «هاتان تفاحتان حمراوان»، متأملًا في أن هذه العبارة لن تنقل لك أبدا الانطباع النفسي لمشاهدة التفاحتيْن، ولا طعم هاتين التفاحتين، ما لم يكن لديك «خريطة ذهنية» مسبقة.

ببساطة يمكن أن تقول إن التفاح والمانجو فاكهتان طعمهما حلو، لكن لا يمكن أبدا بالكلمات فقط أن تفهم ما هو طعم التفاح وطعم المانجو.

لم أكن قد تذوقت قط معنى شعور تضرر الأعصاب الطرفية «بريفيرال نيوروباثي» رغم أنهم في الأوراق يضعون توصيفًا شعريًّا له «الإبر والدبابيس» needles and pins

ظننتها أمرا تافها كالتنميل، لكن فجأة في أحد الأيام كنت أكتب على اللاب توب، وتناولت شيئا باردا بيدي، وواصلت بشكل اعتيادي لأفاجأ بانفجار الشرارات الكهربائية في أصابعي لأتوقف فورا.

أيضًا لم أكن قد تذوقت قط معنى blurring of vision لا أظن أن ترجمتها بعدم وضوح الرؤية كافية. الترجمة الأوقع بالعامية هي زغللة أو غلوشة. كان المزيد من التجارب المفاجئة بالانتظار.

* * *

١٠ سبتمبر ٢٠٢١

في الدورة الثالثة، بعد إتمام أول شهر، والذي كانت خطة القراءات المتنوعة ناجحة فيه، فجأة انفجرت أعراض الرؤية إلى ذروتها.

سابقا بدأ الأمر بحساسية شديدة للضوء، وهكذا أنا الذي كنت أبحث عن الشمس في كل ثقب لتخفيف مشاكل ظهري، أصبحت أهرب من الخروج في النهار.

في أحد الأيام كنت أمشي مساءً في إضاءة محدودة قرب قناة مائية بجوار منزلي، فصدمت من أثر انعكاس ضوء خافت على المياه.

ثم أتت تلك الغلوشة وأنا أقرأ على التابلت بشكل مفاجئ. كأن العالم أصبح فيديو «مبكسل» كالأفلام المسروقة من السينمات قديما.

القراءة تصبح مستحيلة في ذلك الوقت.

الكتب الصوتية حل ممتاز. لجأت إلى تطبيقات الكتب الصوتية مثل «اقرأ لي» و«ستوري تيل»، لكن في بعض الأحيان تزامنت مشاكل الأذن مع العين.

هو الحصار إذن. لكن يمكن كسره: أنا عامة أعترف بالسعادة الكيميائية والمساعدات الخارجية. دواء يحتوي مادة كودايين ثم الغرق في نوم طويل طويل، دائما أصحو منه أفضل وربما ناسيًا سبب النوم.

«أنا (محمد) العربي، فليأتِ الحصار. (نومي) هو الأسوار، فليأتِ الحصار!».

* * *

كنت قد قرأت أن من الأعراض انحرافًا في حاسة التذوق قد يمتد إلى الطعم المعدني Metallic taste

لم أهتم حتى غمرتني الموجة. كل شيء طعمه مُرٌّ جدًّا، حتى المياه، حتى لعابي.

فقط «أدس الطعام» في فمي؛ لأنه يجب مكافحة خسارة الوزن.

كنت أتناول الغداء ذات يوم ثم توقفت وابتسمت.

سألتني إسراء: مالك؟ فقلت لها إني تذكرت قصيدة سمير عبد الباقي «بابلو نيرودا» حين يقول: «وأحس بطعم المر في حلقي حين أتذكر شيلي»، فكرت أني حين سمعتها قبل سنوات طويلة كنت أحولها في خيالي «حين أتذكر مصر»، أما اليوم فأشعر بطعم المُر حرفيًّا دون أن أتذكر أي شيء.

تذكرت أيضا «القمح مُرٌّ في حقول الآخرين. والماء مالح». القمح مُرٌّ في حقولي الآن. ثم ضحكت من مدى درامية تلك الأفكار، وفائدتها أيضا؛ لأني سرحت فيها فواصلت الأكل ونسيت الطعم.

قالت ما معناه: ربنا يهديك يا بني.

* * *

في لقائنا قبل بدء العلاج، قدم الطبيب لي رزمة من الأوراق للتوقيع، شدد على القراءة الجيدة، وقَّعت بلا اهتمام.

رغم أني وقَّعت وانتهى الأمر قال: أريد أن أنوه بشكل خاص أنك تفهم تماما ثلاثة مخاطر بعينها قد تتحول ضررا دائما في حالات نادرة هي: العقم، فقد السمع للأصوات عالية التردد (مثل حروف ش، س)، فقد الإحساس الدائم في الأطراف.

قلت له بروتينية: تمام.

لكن حين داهمتني الأذن والعين، أصبح من المستحيل ألا أشعر بالهلع: ماذا لو كان دائما؟

اتصلت بالطبيب قال بطريقة إنجليزية معهودة: «لا يمكنني أن أضمن لك ١٠٠٪ أنه لن يكون دائما، لكن ما يمكنني قوله إني أستخدم هذا البروتوكول منذ ٦ سنوات ولم أشاهد أي مريض يتعرض لضرر دائم في عينه».

بروتوكولي العلاجي حديث، تم استخدامه فور التأكد من أنه يحقق نسبا أفضل للحياة ٥ سنوات بعد التشخيص، أما آثاره طويلة المدى فلم يتم إذن بشكل عملي التأكد منها.

كيف يمكن أن أنسى القلق؟

* * *

سابقًا كان النسيان يمثل لي معنى سلبيًّا. منذ تعودت في طفولتي على أهمية الحفظ والذاكرة؛ حفظ القرآن، حفظ المواد الدراسية في بلد يشكو أهله دائما من اعتماد نظامه التعليمي على الحفظ

لا الفهم. ثم كبرت وحمل الأمر أبعادًا أخرى؛ حيث التذكر هو فعل مقاومة لمحاولات سياسية لفرض سرديات معينة ومحو غيرها.

الظاهرة متكررة عالميًّا.

في مزيج من الرواية والسيرة الذاتية يحكي ميلان كونديرا في «كتاب الضحك والنسيان والسياسة» عما مرت به بلاده، تشيكوسلوفاكيا، بعد غزو حلف وارسو عام ١٩٦٨ لإجهاض «ربيع براج»، وهو صعود جناح إصلاحي يؤمن بالحريات داخل الحزب الشيوعي المحلي الحاكم. يصف كونديرا تلك الأيام قائلًا: «لقد عمّت بهجة عجيبة لا تصدّق، إنه الكرنفال!».

لكن البهجة لم تدم أكثر من بضعة أشهر؛ لأن «روسيا لم تكن لتسمح بشرود النغمات». اجتاحت الدبابات البلد، وسرعان ما هرب منها نحو مائة وعشرين ألف تشيكي، بينما عُزل نحو نصف مليون آخرين من وظائفهم.

عام ١٩٦٩، نصَّب الاتحاد السوفيتي هوساك رئيسا جديدا، لقّبه كونديرا «رئيس النسيان»؛ حيث أطلق حملة تضمّنت طرد ١٤٥ مؤرخًا، وتم هدم كل التماثيل المرتبطة بما لا ترغبه السلطة.

قال المؤرخ المفصول ميلان هوبل: «لتصفية الشعوب، يُشرع بتخريب ذاكرتها وتدمير كتبها وثقافتها وتاريخها... بعد هذا يبدأ الشعب شيئا فشيئًا في نسيان من هو وكيف كان، فينساه العالم من حوله بشكل أسرع».

نشر كونديرا هذه الرواية عام ١٩٧٨ من منفاه الاختياري في فرنسا. لم يكن ليتخيَّل وقتها أن الاتحاد السوفيتي سينهار عام ١٩٩١، وحينها سيعود الربيع وقد تحوَّل إلى عاصفة عارمة.

لست من المغرمين بتقديس أو تحقير كيانات أسطورية اسمها الشعوب. الشعوب بشر، يصيبون ويخطئون، ولا قاعدة ثابتة؛ لذلك أتردد في تكرار شعار أن «الشعوب لا تنسى»، لكنه يبدو صحيحًا على المدى الطويل في أغلب الحالات على الأقل.

لكني كفرد لا شعب، أريد أن أتذكر أحيانا وأنسى أحيانا.

أريد أن أحتفظ بذاكرتي العامة قوية، ألا أنسى رغم كل شيء «ربيعنا»، لكني أريد أن أنسى تمامًا أمورًا شخصية عديدة قديمة أو حديثة، على رأسها تلك اللعنة داخلي.

ما أقبح ذلك النسيان الأول، وما أجمل ذاك النسيان الثاني..

* * *

٢٦ سبتمبر ٢٠٢١

أنهيت الدورة الرابعة والأخيرة قبل العملية. نكاد ننتهي من تلك المرحلة.

قال الطبيب إنه يفضل أن تبقى «القناة الوريدية» في يدي طيلة الأشهر القادمة، فاعترضت بشدة وصممت على نزعها فورا.

كأنما انعتقت.

أقام أصدقائي مشكورين حفلاً مفاجئًا لنحتفل بنهاية هذه المرحلة. فوجئت بأنهم طبعوا صورتي بشكل طريف على مجسم ثلاثي الأبعاد من الكرتون ينتصب فوق كعكة، وارتدوا جميعًا «الطراطير»، وهكذا التمسنا النسيان بالضحك..

ذلك مع حدث سعيد هو فوزي بجائزة هيكل للصحافة العربية عن تحقيقاتي بسوريا والسودان بالعام الماضي ٢٠٢٠.

كنت سعيدًا جدًّا وأنا أشاهد عبر «زوم» حضور الحفل، ومنهم صحفيون شباب من أصدقائي، ومنهم بعض أشهر نجوم الصحافة المكتوبة والمرئية في مصر. حرصت أن يكون محتوى كلمتي موزونًا بدقة بمعايير عدة، لكن لا توازن في العواطف. خفق قلبي حين قلت: «حصلت سابقا على جوائز دولية لكن التقدير من الأهل يلمَس القلب كما لا يلمسه أي تقدير آخر». تمنيت لو نبتت أجنحتي وطرت للقاهرة الآن الآن!

لكن الوحش هاجمني، لن يتركني أهرب بسهولة، لا بالضحك ولا بالنسيان ولا بخيال الطيران! قبل الحفل بيوم بدأت أعراض نزلة برد بسيطة...

بعد قليل كنت في المستشفى وقرروا حجزي. في أول يومين كان الأمر صعبا ومحبطا ومفاجئا.

أصبحت معزولًا تمامًا.

حين جرؤت على فتح الباب وخطو خطوة للخارج قالوا: لا تخرج أبدا، اضغط على زر الجرس ونحن نأتيك.

تحاليل كثيرة جدًّا.

الزيارة ممنوعة مطلقا في أول يوم، في اليوم الثاني سمحوا بساعة واحدة فقط تأتي فيها إسراء.

التقينا طبيبا ذا ملامح يابانية (أو آسيوية؟)، أيضا قال إنه مساعد للدكتور بارك، وأخبرنا بالطريقة الإنجليزية المباشرة المعتادة أني مشتبه بإصابتي بعدوى بكتيرية، وأن العدوى في وقت انخفاض المناعة بعد كل جرعة هي أكبر سبب للوفيات في أثناء العلاج الكيماوي.

ظهر تحليل خلايا «النيوتروفيلز» المناعية ٩ , ٠ بينما يفترض أن الطبيعي هو ٢، في اليوم التالي انخفض أكثر. كان هذا أصعب يوم. تقريبا دائما على السرير في الظلام أسمع شيئا أو أكون نائمًا.

هل سأموت الآن؟ نهاية غير منطقية في لحظة مبتورة. لا أعتقد أن هذا الفيلم ينتهي هنا. لكن تذكرت أحمد مدحت وحازم دياب والبراء أشرف، أفلام مبتورة في وقت غير منطقي على الإطلاق وخارج كل القواعد الدرامية.

كأن المخرج قد مارس (الغرس) بمعناه الدرامي، ثم فجأة أنهى الفيلم قبل ذروة أدوار الممثلين لتوظيف ما تمَّ غرسه. كان نجم حازم دياب صاعدًا كصحفي مبدع، ومدحت يتلمس طريقه كروائي، والبراء يواصل إبهار من حوله بشلالات أفكار الأفلام الوثائقية والإنتاج التلفزيوني. كل هذا الجمال والإبداع انتهى في طرفة عين.«والموت يسخر من ضحاياه ومن أبطاله، يلقي عليهم نظرةً ويمرُّ».

في اليوم الثالث بدأت في التحسن وارتفعت نتائج الخلايا، وفي الرابع كنت قد نسيت الدراميات كلها، وأمضيته في مشاهدة أفلام لتحقيقات استقصائية أجنبية وعربية بينما أضع خططا وأفكارا طموحة لسنوات قادمة، وخرجت في الخامس.

نجوت مرة أخرى.

* * *

بدأت فحوص نتائج الكيماوي والاستعداد للجراحة.

تزامن ذلك مع تحسن غير مسبوق في قدرتي على الأكل. بعض ما انقطعت عنه لأشهر طويلة، عدت إليه لأول مرة بلا مشاكل.

استخدمت مؤشرًا مهمًّا: وجبة كنتاكي. إذا مرت كنتاكي بسلام فأي شيء يمكن أن يمر بسلام.

وضعت قائمة بمطاعم أريد تجربتها أو توديعها.

أذكر فيلما للأطفال يدور حول فتاة تحول إخوتها لبجعات وقررت إعادتهم من اللعنة عبر الصمت لسبع سنوات بينما تنسج قمصان الكتان (فيلم به مشاهد تعذيب، وأوشكوا على حرق ليزا حية، لا أفهم كيف يكون هذا فيلما للأطفال!).

بدأت ليزا سنوات الصمت بالصياح أمام الجبال لتردد الصدى: «وداعا يا صوتي. وداعاااااا».

قلت لأصدقائي إني سآكل بأقصى طاقتي لأقول: وداعا يا معدتي.

* * *

٧ أكتوبر ٢٠٢١

اجتماع اللجنة متعددة التخصصات. النتائج «وقفت اللقمة في زوري».

الخلاصة أن حجم الورم الرئيسي أظهر تراجعًا محدودًا، بينما بعض المنتشرات في العقد اللمفاوية لم تتغير قط، مع بعض الضبابية حول بعض الصور، هل هذه عقدة لمفاوية ملاصقة لعضو كذا، أم هو انتشار وصل إلى عضو كذا نفسه؟

قال الطبيب إنه يشك في أن الورم قد انتشر إلى غشاء البطن والسائل البريتوني، وبناء عليه ثمة تغيير في الخطة؟

سنجري مرة أخرى عملية الجراحة الاستكشافية «اللابروسكوبي»، لنتأكد بالنظر والعينات مرة أخرى من الوضع، ثم نعرف هل ستجرى العملية الكبيرة أصلا أم فات الأوان.

لم أعرف فعلا بمَ يجب أن أشعر. لعله الإحباط، كأن كل ما مرَّ لم يحدث وقد عدنا مرة أخرى إلى نقطة البداية قبل ٣ أشهر.

على كل حال، هذه المرة كانت أرحم من الانتظار الماضي. أصبحت مشغولًا جدًّا أو متعبًا جدًّا، فلم أفكر كثيرا..

استخدمت كل معلوماتي الطبية الممكنة لأؤكد لوالدي الطبيب أيضًا أن المرجح أنهم لن يجدوا شيئًا بناء على أسباب علمية بحتة في الأشعة المقطعية والتحاليل، ولعل هذا مما طمأنني نسبيًّا أيضًا، فقد صدقت نفسي.

أجريت العملية الأسبوع الماضي، وظهرت النتائج جيدة. قال الطبيب: ما زلنا في المرحلة الثالثة «في حدود ما نراه». تعبير إنجليزي متحفظ آخر.

لكن ما خلصوا إليه أيضا أننا سنجري جراحة أكبر في المعدة وأماكن انتشار أخرى أبعد قرب الكلى والطحال والرئة، كما سيتم اتخاذ قرارات معينة بناء على ما سيشاهدونه وقتها.

ستستغرق العملية ١٠ ساعات، وبدلا من البقاء في المستشفى ٥-٧ أيام، أصبحت المدة ١٠-١٤ يومًا، ثم رحلة أشهر أخرى من الكيماوي والتعافي لها وقتها.

سرد قائمة طويلة من الأعراض الجانبية المتوقعة، وتوقع العودة لوضع أقرب للطبيعي خلال ٦ أشهر إلى عام.

حاولت التفاوض فقط على أن يترك لي الصمام الخاص بالتحكم في الطعام أسفل المريء، قرأت أن هذا يخفف من الارتجاع الحمضي، وهو عرض مزعج جدًّا، لكنه أكد أنه لابد من استئصاله أيضا لأسباب كذا وكذا.

لكن الآن وهنا، ورغم كل شيء، هذه أنباء جيدة «ربحت مزيدًا من الصحو».

قلت سابقا إن إنسانًا حيًّا بلا معدة، أفضل من إنسان ميت بمعدة، وأنا حقًّا «أريد أن أحيا...».

* * *

في غمرة انشغالي بمحاولة التحكم وتفعيل الخطط، تعاملت أحيانا كأنها منافسة لا بديل عن أن أكون الأول فيها. أحيانا أصبت بالإحباط حين تفلت بعض الخيوط، وأحيانا أقرر بعناد أنه سأفعل كذا وسيستمر كذا.

لكن تدريجيًّا تعلمت أن هذا غير منطقي.

قرأت أكثر ووجدت مراجعات غربية عديدة لفكرتيْ «مقاتل السرطان» و«الشجاعة أمام المرض» ونحوهما.

نشرت مريضة مقالا في الجارديان قالت فيه إن التركيز على أن تكون حالتها النفسية جيدة أصبح بحد ذاته ضاغطا عليها. تبكي ثم تشعر بالذنب أنها تبكي فتسوء حالتها أكثر. لكنها وصلت أخيرا إلى أنها «ليست مقاتلة»، بل مريضة.

قالت طبيبتها لها: من قال إن حالتك النفسية لها هذا الدور الرئيسي؟ لقد رأيت بنفسي أكثر الناس تفاؤلًا وقوة يموتون، ورأيت أكثرهم تشاؤما يعيشون.

كتبت ريما شيري تحت عنوان «السرطان ليس معركة، وأنا لست مقاتلة»[١]:

«تجربتي مع السرطان فتحت عينيَّ على المصطلحات المرتبطة به. كلمات مثل معركة، قتال، ناج، فوز، خسارة، محارب، وما إلى ذلك. بينما تهدف هذه المصطلحات إلى مساعدة المرضى، شعرت أنها تحفز الشعور بالذنب والفشل في حالات أبعد من قدرة المريض

(١) https://medium.com/@rimacherri/cancer-is-not-a-battle-and-i-am-not-a-warrior-bf01ab5a49ad

على السيطرة. أولئك الذين ماتوا بسبب السرطان كانوا أقوياء أيضًا... إن القول بأنهم خسروا المعركة يعني ضمنيًا أنهم لم يقاتلوا بما يكفي من أجل مرض ربما لا يمكن علاجه بالدواء أو حتى بالحظ».

لا يعني هذا أن الحالة النفسية غير مهمة، ثمة حالات تنهار إلى حد الاستسلام للموت فيتوقف المريض عن علاجه أو عن طعامه ويتوفى.

لكن الفكرة هي أنه ما دام المرء يتعاطى علاجه في جدوله الطبيعي، وما دام لا يعاني اكتئابًا مرضيًّا، فما سوى ذلك هو في الإطار الطبيعي. الحزن والخوف وارتكاب الأخطاء. لسنا آلات.

قد يختار الإنسان أفعالا نبيلة أو شجاعة، لكن المرض ليس اختيارًا، فلا تعني محاولة الشفاء منه بالضرورة إضفاء مثالية ما على المريض، قد تتحول لعبء في حد ذاته.

وما ينطبق على مصارعة النفس، ينطبق على مصارعة الجسد.

زارني السيد وايت بالأمس مرة أخرى. حكى لي زاوية أخرى عن بريتا. لم تستخدم الطائرة قط طيلة ٥ سنوات من المرض. سافرت بالقطارات والسيارة فقط، ودائما ما حملا معهما الكرسي المتحرك حتى لو كانت حالتها بأفضل ما يمكن.

نحن بشر، لسنا آلات.

* * *

كُتب هذا النص خلال شهرين، وتذبذبت بوصلته بتذبذبي صعودا وهبوطا.

الآن أختمه بينما لم تزل الضمادات والآلام في بطني من العملية الأخيرة، أنسى الأمر أحيانا، لكني أتذكر مع كل تغيير لوضعي، ولا مشكلة في ذلك.

في الصورة الكبيرة انتهت هذه الجولة بأقل الأضرار الممكنة.

في بدايتها كنت أقول إن لديَّ school index «مؤشر المدرسة»، ما دمت قادرا على اصطحاب ابني للمدرسة صباحا فكل شيء بخير. لاحقا خفضت السقف إلى bathroom index «مؤشر الحمام». إذا كنت في منزلي وبإمكاني دخول حمامي بنفسي فالأمور بخير.

اعتدنا الحديث عن كسر المستحيل، لكن واقعيًّا ما ينكسر هو الممكن لا المستحيل.

المطلوب هو فقط أقصى الممكن.

كثيرا ما تحدثت عن الواقعية في السياسة، وأن موازين القوى لا تغيرها الأماني، أو النوايا الطيبة، أو ما يعتبره كل طرف الحق والباطل.

ويبدو أنه حان وقت تطبيق تلك الأفكار على نطاق أصغر: الواقعية في التعامل مع الأجساد والنفوس.

يمكننا تحفيز أجسادنا ونفوسنا، والتحايل عليها، لكن مع إدراك حدودها.

الخطط والحيل كلها من «النسيان العمدي» إلى «صيد الدوبامين» مفيدة، لكن توضع في حجمها وحدودها.

لا وجود للتحكم الكامل، ولا إحباط من غيابه لأن هذه طبيعة وجودنا.

وكما قد تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، قد تأتي الجينات أو تصاريف الحياة بما لا تشتهي الأجساد والنفوس.

يمكن الاعتماد على الذات لأقصى مدى، لكنَّ له سقفًا، وفي الوقت ذاته طلب المساعدة.

عادة أتعامل مع مؤسسة «ماكميلان» لدعم مصابي السرطان فيما يخص الأسئلة العلمية ومساعدات ترتيب المواعيد ونحوها. ذهبت مؤخرا إلى مقر مؤسسة «ميجان» المعروفة ببرامج اليوجا والدعم النفسي وسأبدأ معها.

سواء شفيت قريبا أو بعيدا، سواء عاد المرض أو لم يعد، هي ليست حربا بانتصار أو هزيمة نهائية لأن الصحة والمرض، السعادة والحزن، النسيان والتذكر، الحياة والموت، كلها ثنائيات تتدافع داخلنا دون أن يزول أحدها أبدا.

بالضبط كما يتدافع عبر التاريخ الخير والشر، العدل والظلم. لا لحظة تحقق كاملة أبدا.

حقًّا «الأمل توأم اليأس أو شعره المرتجل».

قد يغلب أحد أطراف ثنائية على الآخر أحيانا بقدر يزيد أو ينقص، بالأسباب المادية أو المعنوية، بالصبر والإرادة والتخطيط، المهم أنه بهدوء نفعل ما بيدنا ثم نتقبل النتائج التي تحمل عواملَ خارجة، ما بيدنا كثير وكبير، لكنه في الوقت ذاته يظل الممكن، وهذا بحد ذاته يجعل كل شيء أسهل وأهدأ.

«لا أَقول: الحياة بعيدًا هناك حقيقيَّةٌ
وخياليَّةُ الأمكنةْ

بل أقول: الحياة هنا ممكنة».

نهاية الأرض

قال لي الطبيب: أنت الآن وصلت إلى نهاية الأرض التي يعرفها العلم وانتهى الأمر. لا أقول لك إن رأي د. فلان خاطئ أو إن رأيي خاطئ، كلانا لا يعرف، نحن نخمن فقط!

قال ذلك في إطار نقاشنا حول اختيار أحد مسارين علاجيين كلاهما يحمل احتمالا ضئيلًا بالنجاح، بعد سلسلة من النتائج السيئة وفشل الأدوية مؤخرا؛ ، فقد عادت ثانويات الورم أكثر انتشارًا وجنونًا بعد العملية، كأذرع وحش أسطوري تواصل النمو والبطش رغم قطع رأسه.

«نهاية الأرض التي يعرفها العلم».. في ظروف أخرى كنت سأفكر في هذا التعبير الشاعري، متأملًا في عجز الإنسان أمام الأسئلة الوجودية المجهولة، وكذلك أمام أعدائه القساة منذ الأزل: الزمن والموت.

أذكر حين قرأت إجابة ستيفن هوكنج على سؤال: ماذا كان قبل الانفجار الكبير؟ قال إنه يشبه السؤال: ماذا يوجد جنوب القطب الجنوبي؟

اقترح هوكنج نظرية الكون اللا محدود no-boundary proposal حيث لا بداية ولا نهاية، وحيث لا يمكن معرفة ما قبل الانفجار الكبير لأنه لم يكن هناك «قبل»، لم يكن الزمن قد وُجد بعد.

فكرت وقتها أن هوكنج عند هذه النقطة لم تختلف إجابته كثيرا عن إجابة رجال الدين عن سؤال: ماذا قبل الله، أو من خلق الله؟ الإجابة الدينية ـ بعد الاستعاذة من التفكير فيها ـ ستكون أنه لا يوجد ما «قبل» الله؛ لأنه هو «الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية».

* * *

سألت الطبيب: إذن بماذا تنصحني؟ هل أبدأ مسار كذا، أم كذا؟

قال: أنصحك بأن تستمع إلى صوت قلبك Listen to the voice of your heart بماذا يخبرك قلبك.

تبًّا، أريد طبيبا لا شاعرا!

قلت له بحدة: أنا لا أسأل قلبي في الأمور العلمية.

صمت قليلا، فواصلت الغضب: حسنا، هل تريد أن تعرف ما يقوله قلبي؟ يقول ما تقوله الأرقام، أن كليْهما احتماله ضعيف جدًّا، لذلك قلبي متشائم الآن أن كليْهما سيفشل على الأرجح وسأموت.

قال: إذن قلبك لن يفيد في هذه الحالة.

ثم أعاد شرح رأيه الطبي الذي انتهى لتفضيله بشكل متحفظ جدًّا لأحد الخيارين.

شكرته وأنهيت الاتصال لأجد رسالة وصلتني من طبيبة أورام مصرية استشرتها تقول: «صلِّ استخارة!».

إذن فقد انتهت الطبيبة المصرية المسلمة إلى نفس ما انتهى إليه الطبيب البريطاني الذي لا أعرف ما يعتنق: «نهاية الأرض التي يعرفها العلم»..

حسنا، فلأفعل. أصلي استخارة، أحاول التنصت على قلبي لعلي أسمع له صوتا ما، أطلب من أمي المزيد من الدعاء، أتناول عسل النحل الجبلي الذي أكد جاري اليمني الكريم أنه يشفي كل العلل، لا مانع من الكركمين وبذور الكتان إلى آخر الصحبة الكريمة، ملتمسًا بأي وسيلة ألا أهوي بينما أخطو في الأرض المجهولة القادمة.

يا «حياتي الطبيعية» عودي..!

فلنبدأ حديثنا بموضوع غير معتاد: القمامة المنظمة. قبل عام ونصف انتقلنا لمنزل جديد هنا في لندن. يختلف المجلس المحلي بهذا الحي في كونه يفرض نظاما دقيقا لجمع القمامة، يتطلب وجود ٣ صناديق خارج كل منزل.

١ ـ صندوق أزرق ضخم توضع به قمامة إعادة التدوير بدون أكياس أو في أكياس بيضاء.

٢ ـ صندوق أسود ضخم توضع به القمامة غير القابلة للتدوير في أكياس سوداء.

٣ ـ صندوق أخضر أصغر حجما توضع به القمامة العضوية (بقايا الطعام) في أكياس خضراء يُشترط أن تكون مصنوعة من مواد عضوية تتحلل في التربة BioBag /Compost Bag.

يتطلب ذلك بطبيعة الحال وجود ٣ صناديق مقابلة داخل المنزل، ثم رحلات شبه يومية لتفريغها بالخارج.

داخل التفاصيل تفاصيل، مثلا في حال وضع الصناديق الورقية (الكراتين) جوار صندوق إعادة التدوير يجب تفكيكها للوضع المسطح، ونزع أي شريط لاصق (سلوتيب)، وإلا سيتركها العمال مكانها.

يلقي العمال نظرة سريعة داخل الصندوق الأزرق، وإذا ضبطوك متلبسًا بإلقاء شيء غير قابل للتدوير يتركون الصندوق كاملا، لتقع أنت في حيص بيص؛ حيث البديل اصطحاب قمامتك إلى مكب نفايات عمومي بعيد يتطلب دفع مقابل مالي.

«تسليك» القمامة في ركن خفي من الشارع كما يحدث بمصر أحيانا غير وارد مطلقا، هذه جريمة fly–tipping تتدرج عقوبتها من غرامة ٤٠٠ إسترليني إلى المحاكمة وغرامة ٥٠ ألف إسترليني أو السجن، والأخطر: التأثير على فرصة التقدم للجنسية البريطانية.

منذ انتقلنا للمنزل توليت هذا الملف بشكل كامل، ووجدت فيه متعة خاصة.

يكفي التخلص من تأنيب الضمير حين نلقي طعاما زائدًا، هذه النعمة لا تُهدر، بل ستتحول سمادًا لإنتاج نعمة أخرى.

وثمة متعة ما في الانتماء لقضية ضخمة جدًّا تساهم فيها بأثر فراشة ضئيل جدًّا؛ لذلك رفضت تماما نصيحة أحد جيراني العرب بأن أضع أي قمامة أسفل صندوق إعادة التدوير فالعمال لا يفحصون إلا الجزء العلوي، وأيضا يقوم بعضهم بإلقاء الطعام ضمن القمامة غير المعاد تدويرها لتوفير ثمن الأكياس العضوية المرتفع نسبيًّا.

(وبالمثل اخترت طوعًا دفع مقابل أغلى قليلًا لشركة الكهرباء نظير أن تكون الطاقة بمنزلي من مصدر متجدد، مع علمي التام بتفاهة تلك المساهمة مقارنة بدور الدول).

ثمة أيضا متعة في الغرق في تفاصيل صغيرة بعيدة عن عملي.

كما يُغرق البعض أفكارهم في تركيب «بـازل» من آلاف القطع، أو تلوين صورة ذات تفاصيل دقيقة، فأنا أغرق أفكاري في تفاصيل فصل القمامة، والحفاظ على توازن زمني دقيق مع دورات جمعها.

يتم تفريغ الصندوقين الأزرق والأسود بالتبادل كل أسبوعين، بينما يتم تفريغ الأخضر مرة أسبوعيًّا.

مثلا إذا زادت كمية قمامة إعادة التدوير خلال أسبوعي الملء، أدقق في تفكيك أصغر المنتجات الورقية كعلب مناديل المنزل؛ لتوفير مساحة كي لا يمتلئ الصندوق قبل الأوان.

أيضا عبوات اللبن والعصير يمكن تحويلها للشكل المسطح بطريقة معينة شاهدتها على «يوتيوب».

أقوم بفصل المواد المختلطة بدقة، مثلا المنتجات البلاستيكية تختلف إمكانية إعادة تدويرها حسب علامة معينة عليها، وأحيانا الشيء الواحد قد يختلط فيه المكونان، مثل عبوة مسحوق الغسيل غلافها البلاستيكي فقط يُعاد تدويره لا العلبة كلها، لكن حال تقديري أن توازن المساحة لا يسمح يمكن التساهل مع وضع المختلط بالصندوق الأسود.. إلخ إلخ.

أتولى فحص القمامة داخل صناديق المنزل للتأكد، «إسرااااء، ليه علبة مسحوق الغسيل جوه صندوق الريسايكل؟ يحيى ليه رميت قشرة البرتقالة في الصندوق الأسود مش الأخضر؟». أصبح ذلك مثار تندر الأصدقاء.

أنا غير مجبر على اتباع هذا النظام، بل أستمتع به!

* * *

ثمة مهام أخرى طقوسية ثابتة أيضا.

يوميًّا أنا من يوقظ يحيى ويجهز إفطاره وملابسه ويغسل أسنانه، وكل تفاصيل تعبئته وتغليفه؛ لتنام إسراء أكثر لأن عملها يبدأ مبكرا عن عملي، بينما يوميًّا هي من تتولى توصيله لمدرسته لأنها من يقود السيارة.

يوميًّا توليت ملف الغسيل ذا التعقيدات الجديدة. الغسالة خارج المنزل في غرفة منفصلة تتطلب المشي في العراء لبضعة أمتار، لكن هذه الأمتار تطول في أجواء البرد والثلج.

هكذا نضع الملابس داخل حقيبة قماشية ثابتة، سميناها «البؤجة». تمتلئ البؤجة فأحملها للغسل ثم أعود لأخذها، ثم النشر، ثم «التطبيق»، ثم التوزيع على أماكنها بغرفنا، وهي مهام كانت إسراء تبقيني بعيدًا عنها سابقا باعتبار أني فاشل في الارتقاء للمستوى المطلوب من تفاصيل منع «الكرمشة» والتنظيم. لكن بعد بدئها العمل قبل عامين أجرينا اتفاقا بأن أتولى تلك المهمة المستحيلة بعد دورة تدريبية خاصة، وعليها

أن تتغافل عن المستوى غير المطابق «للمواصفات الإسرائية» ـ أجرينا محاولة مماثلة مع ملف غسل المواعين، لكن رغم التدريبات فشلت في الوصول لدرجة النجاح، ظلت فحوصات إسراء تضبط أخطاء لا تُرى بالعين المجردة ولا تُلمس باليد المجردة، أصبحت تهشني من أمام الحوض فورًا: «امشِ من هنا ياض إنت».

أيضا أنا من توليت بالكامل ملف الحديقة الصغيرة؛ ثمنا لرفضي تماما فكرة إسراء تركيب عشب صناعي بديلا للطبيعي.

كنت قد حضرت سابقا دورة تدريبية لمراسلي الحروب بجامعة بريطانية، وكانت إحدى الحاضرات صديقة للصحفية ماري كولفن التي قُتلت في أثناء تغطيتها معارك حمص في سوريا عام ٢٠١٢. حكت أن كولفن حين فقدت إحدى عينيها على جبهة نمور التاميل في سريلانكا عام ٢٠٠١، ثم انتحر زوجها الصحفي خوان جوموسيو عام ٢٠٠٢، أصيبت باكتئاب حاد، وساعدها على الخروج منه الانغماس في زراعة بعض أنواع الخضر.

منذ سمعت القصة قررت السعي لتنفيذها، وكانت سببا رئيسا في تفضيلنا الانتقال لهذا المنزل الأكبر في حي أرخص وأبعد، بديلا عن شقتنا الصغيرة الملاصقة للمترو في حي أغلى. انتقلنا في خريف ٢٠٢٠، بدأت أعمال البستنة واستمتعت بها فعلا، نجحت محاولة زراعة النعناع بينما فشلت محاولة زراعة الفلفل، ونويت أن أجرب زراعة بطاطس وطماطم وبصل مع بداية ربيع ٢٠٢١، لكنني أصبت بالزلزال.

* * *

كل ما سبق تراجع تدريجيًّا منذ تشخيصي بالسرطان. أتاح العلاج الكيماوي بالمرحلة الأولى أحيانا فترات جيدة جدًّا، لكن أتى الانهيار بدءًا من العملية في نوفمبر الماضي.

لم يعد الحديث عن حياتي الطبيعية المهنية والشخصية، كان صرحًا من خيال فهوى، بل التحدي هو فقط الحياة الإنسانية في أبسط صورها: الأكل، الشرب، الإخراج، وأحيانا النظر، السمع، التنفس.

في العملية تم استئصال معدتي بالكامل بهامش أمان تضمن إزالة نهاية المريء التي تشمل الصمام المانع للارتجاع، وكذلك استئصال الطحال، والجزء الخارجي من البنكرياس، و١٠٣ عُقد لمفاوية (فوجئ الأطباء لاحقًا أن كلها مسرطنة، حتى أصغرها وأبعدها التي أزالوها كهامش أمان، ولا خلية واحدة تحولت لنسيج ليفي scar، أي صفر استجابة للكيماوي، لكن هذه قصة أخرى).

ملف واحد مثل شرب المياه تحول لتحدٍّ هائل. آلام وانتفاخ وقيء. لكن يجب أن أشرب لأني إنسان، وأيضا لأن الأدوية يتطلب إخراجها وتخفيف آثارها زيادة المياه لا خفضها.

غرقت في استشارات الأطباء، والبحث في تجارب أمثالي. وجدت مجموعة مختصة للـ stomachless living، ومن تجارب أعضائها عرفت أني لست استثناء في رفض المياه، وأنه يجب تجربة قائمة طويلة جدًّا من الحيل.

بالتجربة والخطأ طورت القواعد تدريجيًّا:

١ ـ كل السوائل الساخنة أفضل من الباردة، بما فيها المياه العادية نفسها.

٢ ـ تغيير طعم المياه وصفاتها يجعل الأمور أفضل، لكن هذا التغيير يجب ألا يكون طفيفًا جدًّا أو كبيرًا جدًّا. عبر أشهر قسمت فئات التغيير. مثلا إضافة قطعة خيار للمياه يجعلها أفضل نسبيًّا لكنه تغير محدود، الـ«فليفورد ووتر» أي مياه بطعم طفيف جدًّا للفاكهة أفضل قليلا لكن المشكلة قائمة، بينما مشروب الكركديه هو تغير كبير ذو أثر سيئ فوري. الينسون والنعناع خياران ليسا مثاليْن لكنهما في الفئة المتوسطة المقبولة ـ النعناع الطازج أفضل من المجفف، فأصبحنا نشتري أصصًا مزروعًا بها النعناع ونقتطف الأوراق، لكن يجب الحرص الشديد حول كميته وفترة غمسه بالماء وإلا سيتحول لأثر عكسي.

٣ ـ كل ما هو حامضي هو كارثة كاملة. عصيرا الأناناس والتفاح يسببان مشاكل فورية، قطرات من عصير البرتقال في ٣ مراحل زمنية مختلفة أدخلتني في بعض أسوأ النوبات، لكن أكل البرتقال نفسه كثمرة أمكن قبوله لاحقا ـ أظن التفسير مرتبطًا بمحتوى الألياف وسرعة الامتصاص.

٤ ـ كل السوائل مع الطعام، أو قبله أو بعده مباشرة، خطر جسيم. يجب الفصل بين القوات بنصف ساعة على الأقل.

٥ ـ المياه منخفضة المحتوى المعدني أفضل، لا أشرب مياه الصنبور هنا؛ لأن محتواها من الكالسيوم والماجنيسيوم يقارب «المانيرال ووتر» القادمة من آبار عميقة، بينما الأفضل لي المياه المعبأة من ينابيع (سبرينج ستيل ووتر).

٦ ـ كل ما يحتوي على الكافيين خطر. كل ما يحتوي على اللاكتوز خطر. كل ما يحتوي على بكتريا تتخمر ـ بما فيها كل أنواع الزبادي شاملا الخالي من اللاكتوز ـ خطر خطر خطر.

٧ـ استثناء القاعدة السابقة: مؤخرا أصبح قليل من الشاي المخلوط بكمية أكبر منه من اللبن منزوع اللاكتوز يمكن قبولها. لكن ما زالت القهوة وجهازها اللطيف الذي أحضرته إسراء فور انتقالنا حلما بعيدا.

رغم كل التباديل والتوافيق عشت أشهرا من شعور العطش المزمن وجفاف الحلق.

حتى جاءتني صديقة عزيزة بهدية عبوات مشروبات عشبية من ماركة معينة أغلى سعرا، كانت أول مرة أراها، لم أتحمس كثيرا، لكن هذه المرة «ظبطت».

تحديدا نوعان أحدهما بخليط الكمثرى وأحد الأزهار، والآخر كركديه وثمار وأزهار أخرى.

هذا هو المشروب الوحيد الذي أمكنني أن أشرب منه كوبا كاملا، حوالي ٢٥٠ مل، دون مشاكل. أعتمد على شرب أربعة منه يوميًّا الآن للحصول على لتر، أي نصف الحاجة اليومية.

صرت كلما قابلتها قلت: «فلانة اللي روتني».

* * *

إذا كان ما سبق هو تفاصيل المياه يمكن تخيل الكم اللانهائي من تباديل وتوافيق تفاصيل الطعام.

كنموذج بند واحد: تجربة السَّلطة سببت انفجارًا، فتطلب الأمر تحليلًا دقيقًا لكل نوع من مكوناتها منفردا، ثم الاستنتاجات: كل الخضر الورقية كالخس تسبب كوارث مؤلمة جدًّا، عصائرها أيضا غير مقبولة، الجزر بحالته الصلبة كارثي، بحالته المسلوقة بشدة قد يمر، الخيار المقشور يمر، لكن الطماطم المقشورة من أنواع معينة فقط وبكمية محسوبة تمر بحذر لأن عصيرها حمضي.. إلخ إلخ.

لهذا أبتسم برثاء كلما أرسل لي شخص لطيف مخلص النية برنامجًا غذائيًّا صحيًّا مقترحًا.

النتيجة بطبيعة الحال هي انخفاض حاد مستمر في وزني. مؤخرًا تباطأ مسار الانخفاض بعد تحسن نسبي في قدرتي على الأكل، وأيضا بعض حلول المكملات ـ بالغة التفاصيل والتعقيد بدورها ـ لكنه عاد للتدهور مرة أخرى.

قال الطبيب في زيارتي الأخيرة إن الأمر لم يعد فقط بسبب مشاكل العملية، ولا في رفع الخلايا السرطانية لمعدل حرق طاقة الغذاء metabolic effect، بل أنت دخلت الآن مرحلة catabolic effect. الخلايا السرطانية سريعة الانقسام تجاوزت مرحلة الحصول على طاقتها من جلكوز الدم أو جلكوجين الكبد، بل تستخلصها الآن من التغذي على خلايا الدهون، وبروتين العضلات.

فكرت في الوحش «فينوم»/ السُّم الذي يشاهد طفلي يحيى مغامراته مع سبايدر مان. الوحش الأسود السام يفترسني من الداخل حرفيًّا، لكن لا بيتر باركر يطرده.

لكن بالتوازي بالطبع تحسنت عن وضعي بعد العملية مباشرة، خاصة الفترة الأولى الجحيمية. صحيح أن الورم يتقدم لكن أعراض العملية تتحسن.

على الأقل أنا الآن في منزلي لا المستشفى، على مرتبتي ووسادتي المُختارتيْن بعناية بسبب مشاكل ظهري. يمكنني في أوقات عديدة تتراجع فيها أعراض عيني ومفاصلي أن أقرأ وأكتب كما أفعل الآن، وهذا بحد ذاته حياه شبه طبيعية ممتازة.

كل يوم صباحًا أستيقظ فأفكر أني على سريري، ويمكنني الذهاب بنفسي لحمامي: مبروك يا محمد، ربحت يومًا شبه طبيعي آخر! حدث رائع يشعرني بسعادة حقيقية.

في البداية تابعت بوهن وغيظ حقيقي تدهور حال ملف القمامة المقدس على يد نقص خبرة إسراء؛ لذلك سعدت سعادة غامرة حين أمكنني استعادة ملفي العزيز قبل نحو شهرين، وأعدت الموازين القمامية المختلة إلى نصابها!

عدت جزئيًّا لملف الغسيل، تتولى إسراء جانب انتقالات البؤجة، بينما أتولى الملحمة التطبيقية.

عدت إلى حد كبير لملف استعدادات يحيى الدراسية اليومية، لكن البستنة ما زالت بعيدة.

قلت لإسراء، حين حاولت في البداية منعي من استهلاك سعرات أحتاج توفيرها، أن أي استعادة لأي نشاط من حياتي الطبيعية قبل خطوط السادس من نوفمبر (تاريخ العملية) يسعدني جدًّا، فتعاونت

لاستعادة كل ما يمكن، إلى حد الضغط عليَّ أحيانًا للخروج من المنزل أو الكتابة أو مشاهدة فيلم ونحوها من أنشطة أرفضها في بعض الأوقات.

* * *

لهذا يا طبيبتي اللطيفة العزيزة تفهمين الآن لماذا رفضت قطعيًّا حديثك بالأمس أن الوقت قد حان بعد فقد ربع وزني لتركيب «أنبوب التغذية عبر الأنف».

أخبرتكِ أنه مزعج خاصة وقت النوم، وله أعراض جانبية محتملة مثل الانسداد، وأني كرهته حين جربته بالمستشفى، فقلتِ إن ما جربته بأنفي كان أنبوب نزح سوائل الرئة لا أنبوب التغذية.

قلت لكِ إني أقبل التغذية عبر آلية TPN (سائل مغذٍّ كثيف يُضَخ عبر أوردة كبرى)، ويمكن إدخاله عبر القناة المثبتة بصدري حاليًّا لتعاطي الأدوية (بورت)، فقلتِ إن هذا خطر جسيم حال حدوث عدوى؛ لأن السائل يحتوي «دكستورز» تتغذى عليه البكتيريا، والبورت ينتهي داخل الأذين الأيسر للقلب مباشرة، أصغر خطأ هنا قد يساوي الموت.

قلت لكِ إني أقبل تركيب القناة الوريدية الغليظة بكتفي PICC Line كما كان الوضع قبل العملية، فقلتِ إن نفس الخطر يظل واردًا.

قلتِ: قد أقبل في أسوأ الفروض تركيب أنبوب دائم من بطني لأمعائي (جيه تيوب) يختفي تحت ملابسي، أما الحياة بأنبوب تغذية الأنف هذا فلن أقبله أبدا.

صمتِ وقلتِ: فلنجرب لآخر فرصة المكمل الغذائي (كذا) وهو خالٍ تمامًا من بروتين اللبن المكثف الذي يسبب رفض أغلب الخيارات السابقة، ولنرَ ما سيحدث بعد أسبوع.

....

لم أتمكن من أن أشرح لكِ أن القرارات يمكن أن تكون عاطفية لا طبية، حتى عندي أنا أكثر الناس تمسكا بالصرامة العلمية.

بصراحة لا يتعلق الأمر بالشعور المزعج أو المخاطر، كانت هذه حججًا فارغة، بل بأن أنبوب تغذية الأنف الدائم يعني الوداع للحياة شبه الطبيعية.

لست أحمق، أعرف تمامًا أن الحياة الطبيعية لن تعود أبدا.

حتى بأفضل سيناريو ممكن، لو حدثت المعجزة وانعكس المسار فجأة، وزالت الخلايا السرطانية كلها، فسأبقى فاقدًا لأعضائي التي أزيلت بالعملية، وسأبقى أيضا دائما تحت تعريف NED = No Evidence of Disease «لا دليل على المرض»، وليس تعبير Cured «شُفيَ».

لا شفاء تام، بل سأظل ما بقيَ من حياتي تحت جرعات علاج كيماوي أو مناعي مخففة، ومراجعات دورية. عودة السرطان بحالتي احتمالها مرتفع جدًا، وتحدث غالبا خلال أول عامين فقط بعد الـNED.

(للمفارقة نفس الأحرف هي اختصار لمؤسسة National Endowment for Democracy الأمريكية التي حضرت بعض فعالياتها سابقا، لكن الآن تحول معنى تلك الأحرف وانطباعي النفسي حين أراها تماما).

لكن يا طبيبتي العزيزة، ومرة أخرى، رغم كل شيء، أعتبر أني حاليًّا أحافظ على حياة شبه طبيعية أغلب الأيام، ويمكنني أن أحظى بفترات من الإنكار والتناسي، أما أنبوبك هذا فسيخرب كل شيء.

قبل أيام ذهبت لتلقي جرعة حقن فيتامين بي ١٢ (هام للأعصاب، يتم امتصاصه بالمعدة؛ وبالتالي أحتاج لحقنه للأبد) فشاهدت كتفي تظهر عليها علامات الترهل «ستريتش ماركس» كالتي كانت في بطن زوجتي بعد الولادة. السبب هو الجلد الزائد بعد انخفاض الكتلة العضلية.

نظرت لنفسي يومها في المرآة أتعجب. من هذا الشخص؟ «أعُد أضلاعي فيهرب من يدي بردي». أعدها من فوق ملابسي حرفيًّا.

لكن إسراء تقول إني أبالغ في الدراما، وإني «بعد ما خسيت بقيت أحلى». تصمم أنها لا تجاملني، أحببت أن أصدقها فصدقتها.

لكن بالتأكيد لن يمكنها أن تقول إن وجهي أحلى بأنبوب التغذية عبر الأنف، ولن أصدقها لو فعلت!

وماذا سأقول لابني الذي اكتفينا بإعلامه أني مريض قليلا بمشكلة في بطني، ويطرح من وقت لآخر أسئلة بالغة الإحراج نجد لها إجابات دبلوماسية؟

* * *

شاهدت منذ فترة فيلمًا كئيبًا(١) عن مرضى السرطان الذين يختارون في نقطة ما التوقف عن العلاج والانتقال إلى الـ palliative therapy

---

(١) فيلم «نهاية اللعبة» End game من إنتاج نيتفليكس.

أو العلاج التلطيفي. (مسكنات قوية، وعلاج الأعراض المزعجة فقط حتى الموت في المنزل تحت إشراف التمريض، أو في مصحة مخصصة حسب الاختيار). تُوفِّيَ كل أبطال الفيلم. إحداهن توفيت وهي تضع هذا الأنبوب.

قال أغلب ضيوف الفيلم إن الأمر متعلق بـ«جودة الحياة»، وتحت حد معين يصبح الموت أفضل.

أنا متشبث جدًا جدًا بالحياة لآخر نَفَس، وأبذل كل ما يمكن للوصول لأفضل خطوات علاجية ومساعدة ممكنة، لكن هذا الأنبوب سيضرب مساري، أستطيع ممارسة آليات الإنكار والتناسي أمام أوراق الفحوص المتجهة للأسوأ، لكن لن يمكنني ممارستها أمام المرآة.

...

سأخبركِ بقصة قد لا تفهمينها. لدينا في مصر كاتب اسمه أحمد ناجي تم سجنه لأنه «خدش الحياء العام» في إحدى رواياته. أعرف هذه الابتسامة. ما علينا.

في كتابه «حرز مكمكم» ـ لست متأكدا من الترجمة ـ حكى عن تعرض السجن بالكامل للتكدير في كل عيد، ليس لأي سبب شرير فعلي، بل فقط لأن العدد القليل من الحراس يودون إلهاء السجناء. دائما الشر التافه العبثي غير المتعمد قد يكون أسوأ من الشر الحقيقي.

تم قطع المياه إلا ساعة واحدة في اليوم طيلة أيام العيد.

يروي أحمد أن كل حياته وأحلامه وقتها صارت حول شعوره الدائم بالعطش الشديد، وحول تعقيدات استخدام الحمام بعد تراكم روائح الفضلات والبول بالزنزانة.

أنا كنت مكتئبًا جدًّا في الفترة الأولى، حين كانت كل لحظة من يومي حرفيًّا غارقة في تفاصيل الأكل والشرب والإخراج، الآن وصلت لوضع أفضل نسبيًّا، فترات إفراج مؤقتة من هذا السجن، هل يرضيكِ أن أعود للسجن بشكل كامل؟

...

سأخبركِ بقصة معقدة أخرى. سمعتِ شيئا عن الثورة المصرية؟ لا. فقط مصر الأهرامات والجمل ومحمد صلاح! حسنا، باختصار في ٢٠١١ أطاحت مظاهرات برئيس حكم ثلاثين عاما ـ أعرف جيدا هذه الابتسامة أيضًا عند سماع الرقم.

كنت أتظاهر يوم ٢٦ يناير فتم اعتقالنا. حين انقضت علينا فرق الكاراتيه، وهم جنود بملابس مدنية ـ رجاءً لا تسأليني عن سبب غياب الملابس الرسمية ـ سمعت صديقي يخاطب مختطفيه: «إحنا بنعمل كده عشانكو، لما البلد تتغير هتبقو أحرار». فكرت أنه ساذج ليحدثهم عن الحرية فبدأت أصيح فيمن يجرونني نحو سيارة الترحيلات: «إنت بتقبض كام يا بني؟ مستاهلة اللي بتعمله ده؟». لاحقًا أدركت مدى سذاجتي المضحكة بدوري.

المهم، فجأة سمعت صوتًا مرعبًا، كانت أول مرة أرى الصاعق الكهربي «إلكتريك» انهال به حامله على صديق أمامي فانهارت

مقاومته وسحلوه للسيارة (شاهدنا بالزنزانة لاحقا العلامات الحمراء على جسده)، وفورا أصبحت أجري نحو السيارة بدلًا من المقاومة. أصبح الهرب من الصعق هو مصدر الرعب، وسيارة الترحيلات هي الملاذ الآمن!

وأنا سأهرب من أنبوب التغذية هذا، حتى لو كان اتجاه الهروب ليس بالآمن بدوره. سأتشبث بما استعدته من شبه الطبيعية، ولن أتنازل عنه الآن بإرادتي أبدا.

* * *

أما أنتم يا من وصلتم في القراءة إلى هنا، فأحسب أن المعنى واضح:

اسعدوا بكل يوم طبيعي.

بالطبع اطمحوا واسعوا بأقصى الجهد للأفضل، لأنفسكم، وأسركم، وبلادكم، لكن إن لم يحدث فلا بأس. كل يوم من المعافاة هو إنجاز عظيم.

حقًّا وصدقًا «من أصبح آمنًا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها».

لا بأس ببعض الملحمية، لكن لا تُفرِّطوا فيها.

في آخر مرحلة من حياة محمود درويش توقف عن كتابة القصائد الخطابية، بل كان يرفض إلقاء «سجل أنا عربي» رغم إلحاح الجمهور لأنه يرى أنه تجاوزها، بينما أصبح يكتب عن معانٍ أبسط وأعمق في آن.

في لاعب النرد، آخر قصيدة في حياته، كتب عن الاحتفاء بحدث ببساطة إتمام دعوة صديقين للعشاء.

«إن كان لابد من حلمٍ، فليكن مثلنا، وبسيطا..
كأن نتعشى معًا بعد يومين
نحن الثلاثة،
محتفلين بصدق النبوءة في حُلمنا
وبأن الثلاثة لم ينقصوا واحدًا
منذ يومين،
فلنحتفل بسوناتا القمر
وتسامح موتٍ رآنا معًا سعداء
فغَضَّ النظر».

اللهم أدخِلني في التجربة..!

في حياتي البعيدة السابقة (ق. س) ـ اختصار قبل السرطان ـ كنت أحب خوض التجارب. أنا أول من يتحمس للذهاب لمكان جديد، تعلم مهارة جديدة، التعرف على أشخاص مختلفين، تذوق طعام جديد (ولي مغامرات مأساوية ومضحكة عديدة في هذا المجال، ذات مرة فاجأت إسراء في عيد ميلادها بالغداء في مطعم إفريقي يقدم لحوم التماسيح والنعام والحمير الوحشية والسلطة بالحشرات، لم تسعدها المفاجأة ماعرفش ليه؟).

دائما يحركني مزيج من الفضول، والرغبة في مسابقة العمر قبل أن يداهمني الوقت ـ زاد هذا مؤخرا بطبيعة الحال ـ والكيتش الخاص بأنه لا تجارب غير مفيدة. التجارب الفاشلة والتعيسة تُعلمني، و«كل خسارة لم نخسر فيها أنفسنا خسارة عابرة» على رأي إبراهيم الكوني.

الكلمة أيضا بمفهومها اللفظي مرتبطة بذكريات عدة مثل صديق كان يصر على تصحيح الخطأ الشائع في نطقها، «اسمها تجرِبة بكسر الباء مش تجرُبة!» ومثل نصوص أدبية. «يا الله جربناك جربناك، من أعطاك هذا اللغز؟ من سمّاك؟».

لكنها كأشياء عديدة تحولت لمعنى آخر مختلف تماما في (ب. س).

قبل ثلاثة أسابيع «دخلت في التجربة»، بدأت تعاطي علاج تجريبي جديد تماما، بعد فترة طويلة من الحيرة والإجراءات.

تقول الصلاة المسيحية: «لا تدخلنا في تجربة ولكن نجنا من الشرير»، بينما أنا كنت أدعو أن أحظى بفرصة هذه التجربة.

تجارب ذلك العلاج الجديد تجري في دولتين فقط هما أمريكا واليابان. سافرت في فبراير إلى مركز أندرسن في تكساس، وراسلت بالتوازي مستشفى ماونت سيناي في نيويورك، وغرقنا في تعقيدات احتمال انتقال أسرتي إلى هناك، وكيف سنلحق يحيى بالمدرسة بينما نحن سندخل بفيزا سياحة لا إقامة، ثم أخيرًا بعد جبل من التفاصيل أمكن حصولي عليها هنا في لندن.

بالجهتين الأمريكيتين، ثم بالجهة البريطانية، تلقيت استمارات «الموافقة الواعية».

الاستمارات الثلاث على اختلاف صياغاتها تشترك في بند أقر فيه بما معناه: «أنا أعرف أن هذه التجربة قد لا تكون مفيدة لي على الإطلاق، لكنها تساهم في إفادة مرضى آخرين في المستقبل». صيغة مخصصة لتحصين منظمي التجربة من أي تبعات قانونية.

في الجزء الذي يملؤه الطبيب المشرف على التجربة ثمة خيارات حول غرض هذا الدواء، أحدها أنه «علاجي» curative، ومكتوب أن تعريفه هو «منح أفضل فرصة لعلاج المرض». ترك الطبيب هذه

الخانة خالية واختار بدلا منها خانة «التحكم بالمرض» disease control ومكتوب تعريفه «الغرض ليس العلاج، ولكن التحكم بالمرض أو تقليصه».

أحب أن أفكر متفائلًا أنه فعل ذلك للمزيد من التحصين القانوني.

بينما أكتب ما زلت أكتشف الأعراض الجانبية الجديدة. الآن بالمعنى الحرفي لا المجازي التجربة هي أنا، وأنا التجربة.

* * *

«صَفَعتهُ يد. . أدخلته يدُ الله في التجربة»![1]

* * *

أول تماس لي مع التجارب الطبية كان مبكرًا. في نفس يوم إبلاغي بتشخيصي المبدئي تم تحديد موعد لجراحة منظار staging laparoscopy لأخذ عينة من الورم وتحديد درجته. جاءني طبيب شاب قال ببعض الارتباك إنهم يعملون على بحث حول أسباب الإصابة بسرطان المعدة لدى صغار السن زي حالاتي؛ لذلك يريد طرح أسئلة والحصول على عينات دم وبول ومن الورم وتوقيعي على إقرار بذلك.

بعدها مع بداية العلاج الكيماوي تلقيت اتصالا يعرض المشاركة في تجربة أخرى أكثر إثارة.

(١) من قصيدة الكعكة الحجرية ـ لأمل دنقل.

التجربة تتعلق بجهاز جديد وظيفته تشخيص سرطانات الجهاز الهضمي بأسلوب سريع وبسيط جدًّا، هو مجرد التنفس داخل أنبوب الجهاز!

وافقت فورا قبل أن تسرد الطبيبة أي تفاصيل إضافية.

سألتني بتدقيق: لماذا توافق على المشاركة؟ هل تشعر بأي ضغط؟ هل تشعر بأي قلق؟

فقلت لها إني أوافق لأفيد البشرية وأساهم في مستقبل العلم، وإني كنت طبيبا لذلك هذه الأجواء مألوفة لي، فقالت ضاحكة: أنت المريض المثالي لنا.

حين التقيتها لتوقيع الأوراق وإجراء التجربة (التنفس في الجهاز، تناول سائل ما، التنفس مرة أخرى بعد ساعة)، سألتها لو لديهم نتائج مبدئية، فقالت إن النتائج مبشرة جدًّا وسردت بعض الأرقام، ولو نجحت فسيتم تعميم ذلك الجهاز ليصبح جزءا من المسح الدوري لكل البريطانيين فوق سن معينة مثل مسحات عنق الرحم وفحص الثدي للنساء.

بينما أوقع الأوراق اكتشفت أنني مصري، فقالت: هذه صدفة رائعة، مدير هذه التجربة هو بروفيسور جورج حنا، من أصول مصرية مثلك.

لاحقًا التقيت طبيبا صديقا قال لي إني يجب أن أفعل كل ما يمكن ليُجري د. جورج العملية لي؛ لأنه الأفضل على الإطلاق. عرفت أنه رئيس أقسام «الجراحة والسرطان» في مستشفيات

Emperial College الجامعية البريطانية كافة، فضلا عن شغله قائمة طويلة من المناصب الطبية والبحثية ذات الصلة بالقطاعين الحكومي والخاص.

بعد تفاصيل أمكنني الانتقال من طبيب الجراحة الأول إليه، وأعرف الآن أن هذا كان أفضل ما فعلت. العملية بالغة التعقيد التي كان يُفترض أن تتم في ١٠ ساعات أجراها في ١٤ ساعة، ارتجل أثناءها استئصال الطحال بعدما شاهد انتشار الورم لشريان يدخله، كما صمم على إزالة كل عقدة لمفاوية ذات صلة مهما كان حجمها صغيرًا أو موقعها معقدا.

شهدت في مجموعات فيس بوك للمرضى الأوروبيين والأمريكيين نمطًا متكررا جدًّا من حدوث مضاعفات بالغة السوء لتلك العملية، ومنهم من عاش لأشهر على أنابيب التغذية ومنهم من فقد حياته أصلا خلال أيام أو أسابيع.

حين أقارن أعرف أن وضعي أفضل كثيرا بحمد الله وبفضل د. جورج.

حين شاهدت شكل الغُرز في الجرح الطولي في بطني لأول مرة لفتني مدى دقتها ونظامها البالغ.

كنت أحيانا أحضر بعض الجراحات مع والدي، الذي ما زال بعد أكثر من ثلاثين عامًا من العمل يخرج من غرفة العمليات ضاحكًا بعد نجاحة في تحدي تصغير حجم الجرح وتدقيق شكل إغلاقه، وهو أمر حيوي بتخصصه في جراحة التجميل. أحيانا فكرت في أن

ما أراه قطعة فنية. سعدت حين قرأت حوارا للدكتور جورج على موقع «إمبريال كوليدج»[1] يستخدم فيه نفس الوصف، قال إنه يستمتع بالجراحة ويعاملها كقطعة فنية، حتى إنه يُمكن أن يدفع المال لإجرائها.

لماذا لا يحظى اسم د. جورج بالشهرة في مصر كما نعرف أسماء مجدي يعقوب وآخرين من ذوي الأصول المصرية الناجحين بالخارج؟ لا أعرف، لكنْ بالتأكيد جزء من ذلك أنه «راهب علم» حقيقي. هو يتحدث باستمرار عن البشرية عموما لا عن بلد بعينه، وحين يتحدث عن التحديات والمنافسة قال إنه لا ينافس أشخاصًا بل على الجراح أن ينافس نفسه فقط في مضمار المريض لتحقيق أدنى وفيات، وكلها أمور ليست متوافقة مع الطبخة الإعلامية ذات البهارات الحارة!

قال أيضًا إنه لو لم يدرس الطب لدرس الفيزياء، وإنه مهتم للغاية بدمج الهندسة والعلوم الطبيعية الأخرى مع الطب.

هذا بالضبط ما يفعله في تجربة جهاز التشخيص التي شاركت فيها.

حتى هذه المرحلة كانت التجارب الطبية أمرًا لطيفًا جدًّا، لكن الوضع تغير بعدما أصبح اختيار التجربة يساوي حياتي كلها.

* * *

---

(١) https://www.imperial.ac.uk/news/192646/meet-professor-george-hanna-head-department/

بدأت قصتي مع «التجربة» الأخيرة بعد النتائج المفاجئة بالغة السوء لعينات العملية كما حكيت سابقًا. كل العينات مسرطنة بلا استثناء وصولًا إلى العقد اللمفاوية حول الشريان الأورطى الخارج من صدري مباشرة. كُتب في تقرير الباثولوجي: «لا يوجد أي دليل على استجابة الورم للعلاج».

طلب طبيب الأورام الإنجليزي ذو الأصلي الآسيوي فورا أشعة «بيت سكان» (مسح ذري)، فأظهرت للمرة الأولى وجود بؤر سرطانية بعيدة. ظهرت بؤرة في عقدة لمفاوية رئيسية فوق عظم الترقوة قرب رقبتي، وثانية في عظمة القص في صدري، وثالثة قرب الأمعاء، فضلا عن ثلاث نقاط مريبة أخرى في الرئة اليمنى يُرجح أنها عقد لمفاوية مصابة داخل الرئة.

شعرت بغيظ شديد لأني كنت قد طلبت منه أن نجري ذلك المسح قبل العملية، فقال لي إنه غير حساس كفاية لهذا النوع من الأورام، لكنه الآن يلجأ لنفس ما رفضه سابقا!

طبيعي؛ لأن هذه هي الطريقة الوحيدة للعثور على البؤر المجهرية، وأيضًا لقياس مدى نشاطها (SUV)، رغم أنه صحيح تمامًا أن دقتها منقوصة في هذا النوع، لكن دقة منقوصة أفضل من لا شيء.

قلت له بسخافة: أختي طبيبة أورام في مصر وقالت لي إنه يجب إجراء البيت سكان قبل العملية، فقلت لها إنها أصغر منك وأقل خبرة، لكن واضح أنها كانت محقة!

ابتلع الإهانة المبطنة وقال إن كل دولة لديها البروتوكول الخاص بها، وإنه اتبع «الجايد لاينز» البريطانية، وبموجبها أجروا قبل العملية لي جراحة استكشافية، وحصلوا على عينات من السائل البريتوني (غشاء البطن) كانت خالية من الخلايا السرطانية؛ وبالتالي كان المفترض أنه لا انتشار خارج الجهاز الهضمي.

فقلت له بحدة: أنت نفسك قلت لي سابقا: هذا ورم غير نمطي وشرس، فلماذا لم تخرج عن الجايد لاينز المخصص للحالات النمطية؟

ألقى كارته الرابح: د. جورج كان يريد أن يجري لك العملية، ولو كنا قد صنفناك بالمرحلة الرابعة قبلها ما أجريت العملية.

فهمت أنه يذكر د. جورج لأنه يعرف ثقتي التامة به، فتجاهلت هذه النقطة، وقلت له: أنا من يتخذ القرار لكن بعد أن أحصل على المعلومات كلها.

قال: لا يفيد الحديث عن الماضي، لنتحدث عن الخطوات التالية. المسار السابق المعروف (كيماوي، عملية، كيماوي) فشل، وأنا استخدمت معك بالفعل أحدث وأقوى علاج كيماوي متاح، وبأعلى جرعة ممكنة؛ وبالتالي لن يفيد أي نوع كيماوي آخر بحالتك. سنحاول مع العلاج المناعي أو مع أدوية تجريبية.

* * *

رغم أن عادتي أن أتجاوز اللبن المسكوب دون النظر خلفي، لكن هذه المرة غرقت في البكاء عليه والبحث عنه..

كنت وقتها ما زلت في ذروة أعراض العملية، آلام مريعة بلا حصر، لا يمكنني تناول أي شيء إلا السوائل والمهروسات، وأغلب يومي يضيع مع تكرار dumping Syndrome (انخفاض حاد في السكر والضغط بعد تناول أي شيء به سكر يؤدي لشبه إغماءة، دوار، يسقط من يدي ما أمسكه، ثم نوم عميق لساعتيْن أو ثلاث. حدث ذلك أحيانا بمجرد تناول قليل من النشويات مثل البطاطس المهروسة!)

أصابتني بالجنون فكرة أنه ربما كان يمكن تجنب كل هذه المعاناة ما دام الورم قد تجاوز الجهاز الهضمي بالفعل. فكرت أن أقاضي الطبيب، بل قد أشعل معركة قضائية وصحافية ضد هيئة الصحة الوطنية كلها ما دام بروتوكولها أفقدني أعضائي دون ضرورة.

نصحني د. حسام ألا أضيع أي جهد ووقت في ذلك الاتجاه. عرفت لاحقًا أنه كان محقًّا وأنها كانت طاقة غضب وإحباط تبحث عن منفذ ما.

عموما بعد بحث مطول توصلت إلى أنه بدون العملية لا أمل مطلقا.

لو كان قد تم تصنيفي بالمرحلة الرابعة، أي لا تدخل جراحي، لكنت سأستمر في العلاج الدوائي الفاشل، وبعد نقطة قريبة جدًّا خلال أشهر سيوقفونه، لنتحول للعلاج التلطيفي وأموت وينتهي الأمر.

شهدت عشرات النماذج. قرأت رسالة تأبين من أم لابنتها في مثل عمري ونفس حالتي توفيت بعد ٧ أشهر من التشخيص.

لذلك يسافر المرضى البريطانيون المقتدرون ماليًّا إلى اليابان بحثا عن أمل ما؛ فالبروتوكول هناك هو إجراء العملية للمرحلة الرابعة، حيث يتبنون بحوثًا تقول إن استئصال الورم الرئيسي في أي مرحلة يبطئ تقدم الثانويات metastasis.

هدأت بعدما عرفت أن ما حدث هو على الأرجح الخيار الأفضل.

* * *

حسنا فلنبدأ رحلة البحث.

بدأت بقدر من التفاؤل لكن صفعتني سلسلة متواصلة من الفشل.

أجريت تحليلًا اسمه REH-2 (اسم تتابع بروتيني ينتج من جين معين في بعض الأورام) للتأكد من ملاءمتي للحصول على دواء «هيرسيبتين» الذي أحدث فتحًا حقيقيًّا في علاج بعض الأنواع خاصة بسرطان الثدي، لكن ظهرت النتيجة سلبية.

هنا الدواء هو المفتاح، والجين أو البروتين المختص هو القفل. إذا لم يطابق المفتاح قفله فلن يفتح. هذا جزء من خبث هذا المرض ولعنته، ليس فقط أنه ينمو بصمت تام في البداية، ثم حين يُكتشف نعرف أن كل نوع له أقفاله، بل نفس النوع قد يحتوي أقفالا مختلفة، فضلا عن أن الورم ذا القفل المطلوب بالضبط لا يعني ضمانا بالشفاء؛ فالورم يطور نفسه ليعود بخلايا بها تتابعات بروتينية مختلفة تتجنب المفتاح/ الدواء.

في حالتي تم اختصار الطريق: هذا المفتاح سيفشل مقدما.

خاب عشمي. كنت قد شاهدت في مجموعات دعم المرضى حالات نادرة جدًّا عاشت لنحو عشر سنوات، ويجمعها الاستجابة للهيرسبتين.

تحول الطبيب لطرق باب «البيمبروليزوماب» Pembrolizomab أو «كيترودا»؛ أحد أشهر الأدوية المناعية.

ينتمي ذلك الدواء لفئة checkpoint inhibitors أو «مثبطات نقاط التفتيش».

أساس عمله هو سؤال بديهي: كيف يميز الجهاز المناعي الخلايا الغريبة عن خلايا الجسم؟ وجد العلماء أن الخلايا الجسدية تحتوي على بروتينات معينة (شيك بوينتس) هي ما يعرف به الجهاز المناعي أنها «تبعنا»، لكن المشكلة أن خلايا السرطان أصلا خلايا عادية أصيبت بالجنون؛ وبالتالي تظهر أيضًا أنها «تبعنا».

أخيرا وجدوا اختلافات دقيقة قد تتواجد بأنواع معينة من تلك البروتينات في الخلايا السرطانية؛ وبالتالي يمكن بتثبيطها أن يهاجمها الجهاز المناعي.

استجابة هذا الدواء ٢٥٪، وهذه نسبة عظيمة إذا قورنت بنسبة النجاة لخمس سنوات بعد التشخيص لحالتي: صفر٪ في الإحصاءات البريطانية، ٥٪ في الإحصاءات الأمريكية..

كانت نسبة استجابة دوائي الكيماوي الأول الفاشل ٣٥٪، لكني كنت من الـ ٦٥٪.

مع الكيترودا القدرة التنبوئية تختلف لأنه يتميز بوجود مؤشر رقمي واضح مقدما، هو نسبة وجود بروتين PDL- 1 في خلايا الورم. شاهدت حالات شفيت تماما لأن النسبة لديهم ٦٠-٨٠٪.

مرة أخرى الفشل مقدما.

ظهر أن النسبة في ورمي هي ١-٥٪ فقط. لن يفتح.

أحالني الطبيب إلى معهد «سارة كانون» المختص بالتجارب العلمية. عرضوا عليَّ دواء جديدا من شركة روش السويسرية، يتطلب أن توجد في دمي مستقبلات من فئة HLA-A وبخلايا الورم بروتين MAGE-A4.

حذرني طبيب صديق من المشاركة في تجارب «المرحلة الأولى» التي تشمل اختبار مدى سُمية الدواء وجرعته الآمنة. مكتوب أن هذا الدواء جربه قبلي ٣٥ شخصًا فقط حول العالم، وأن كمية الجرعات ستوزع عشوائيًّا بأسلوب «ثنائي التعمية» فلا يعرف المريض أو الطبيب ما يتم تناوله بالضبط كمًّا ونوعًا.

مثير للقلق، لكني قررت أن أكمل مسار التحاليل ثم نقرر..

بالطبع فشل آخر.

حين اتصلوا وشاهدت الرقم على الهاتف، قلت لإسراء: دلوقتِ هيبلغونا أن النتيجة سلبية. وهو ما كان، فضحكنا.

رضينا بالهم والهم مش راضي بينا. ضحكٌ كالبكا اللائق بمصيبة تتضخم.

* * *

«من سوء حظي أني نجوت مرارا من الموت حبًّا،

ومن حسن حظي أني ما زلت حيًّا لأدخل في التجربة».(١)

* * *

---

(١) من قصيدة «لاعب النرد» لمحمود درويش.

بالتوازي كنت أخوض معركة إدارية وقانونية معقدة.

باختصار في بريطانيا نظام معقد لتحديد «الجايد لاينز» ومنح تراخيص الأدوية الجديدة، أبرز أركانه هو NICE «المعهد الوطني لجودة الصحة والرعاية»، وهو تقليديًّا يأتي متأخرًا عن الـ FDA «إدارة الغذاء والدواء الأمريكية»، سواء لأنهم يصرون على إجراء تجاربهم الخاصة في بريطانيا قبل منح الترخيص، أو كما أخبرني طبيب غاضب أن من المسكوت عليه أن من العوامل حساب توازن الـ cost–benefit، بمعنى التأكد من أن الدواء الجديد يمثل فعالية أفضل قياسًا لكلفته المالية التي ستتحملها الحكومة؛ لذلك تأخروا في ترخيص الهيرسبتين رغم فعاليته الكبيرة المحسومة أمريكيًّا قبلهم.

حتى الآن بريطانيا ما زالت لا ترخص بالـ«كيترودا» لمرضى سرطان المعدة، رغم أنه محسوم قبل سنوات في أمريكا ودول أوروبية أخرى.

قرأت على موقع NICE أن أبحاث استخدامه لسرطان المعدة والمريء تم تعليقها[1] منذ ٢٠١٨ رغم تقدم وزارة الصحة بطلب إجراء تجربة لثلاث مرات متتالية! في ظروف أخرى ربما كنت سأبدأ معركة حول ذلك الأمر، لكن ليس الآن!

كنت قد بدأت علاجي الكيماوي مع هيئة الصحة الوطنية الحكومية، لكن طبيبي بعد التطورات سألني لو أملك تأمينا خاصًّا فقلت له إن جهة عملي توفره، فقال: هذا من حسن حظك، سنعتمد عليه إذن.

---

(١) https://www.nice.org.uk/guidance/indevelopment/gid-ta10244

لكن ظهر أن الأمر ليس بهذه البساطة. تلتزم الشركات الخاصة في بريطانيا بنفس الجايد لاينز الحكومية، ويدعون أن ذلك لتحصين أنفسهم من الملاحقات القانونية، لكني أعتقد أن السبب هو تجنب إنفاق الكلفة الطائلة للأدوية الجديدة.

رفضت شركة التأمين في حالتي مجرد تغطية الفحوص وليس الدواء!

أظهر طبيبي عجزًا تامًّا وقال إن الحل الوحيد هو دفع الكلفة على حسابي أو حساب جهة عملي خارج التأمين، وأود هنا شكر جهة عملي (التلفزيون العربي/ فضاءات ميديا) زملاء وإدارة الذين لم يتأخروا قط عن تقديم كل دعم ولطف وود.

قررت أن أقوم بمحاولة بنفسي. من موقع الشركة قمت بتحميل كل الوثائق المرتبطة وغرقت في بنودها.

جهزت نصًّا مطولًا يقول إنه بناء على مادة كذا وبند كذا يجب عليكم التغطية، فردوا بالموافقة بتغطية اختبار الـ REH-2 وصمموا على رفض الـ PDL-1، طلبت رسالة مكتوبة بذلك، وفكرت مرة أخرى في الذهاب للقضاء وبيدي «جسم الجريمة»، أي الرسالة التي ردوا بها والتي تناقض فهمي لمادة ما بالتعاقد، لكن تراجعت بعد نصيحة جديدة من د. حسام بأنها قضايا تستغرق سنوات لا أملك لها جهدا ولا وقتا، والأفضل أن أجد طبيبًا خبيرًا بتلك الأمور.

كان هذا من أسباب تغييري للطبيب، وهذه المرة اخترت تحديدا أن أنتقل إلى مدير معهد سارة كانون المختص بالتجارب في بريطانيا، وهو شراكة بين الحكومة والقطاع الخاص HCA.

ذهبت لمكتبه وقصصت عليه القصة فقال: Excuse my language, This is bullshit! «اعذرني على هذا التعبير، هذا هراء!».

قال إن التعامل مع هؤلاء يتطلب «طبيبًا مقاتلًا». أظنه لو كان يعرف العربية لقال إن الأمر يحتاج إلى «دكتور لَبَط».

ظهر أن الأمر مزيج من خبرته الطويلة بالقطاع الخاص، بعكس الطبيب الأول الكفء علميًّا لكن خبرته بالقطاع الحكومي، وكذلك أهمية موقعه الإداري وعضويته بلجان تصدر التقارير المختصة الموجهة للشركات أصلا.

العلم وحده ليس كافيا حتى هنا في بريطانيا.. قد أحلل لاحقا نتاج سياسات الرأسمالية بنسختها النيوليبرالية لكن ليس اليوم.

قرر البروفيسور أركناو إجراء أشعة رنين مغناطيسي للتأكد من كون الورم الثانوي في عظمة القص نفسها أم في عقدة لمفاوية ملاصقة؛ فالبقاء في العقد اللمفاوية مهما بلغ انتشارها أقل خطورة من انتقال الورم لنوع نسيجي آخر هو العظام.

بالطبع جاءت النتيجة الأسوأ: الورم في العظم، بل زاد حجمه خلال أسبوعين فقط بين الفحصين!

قرر الرجل أن أبدأ أي علاج الآن فورا؛ حتى لو كان غير فعال، فقد يبطئ هذا التقدم المرعب إلى حين الاستقرار على الأفضل، وبعد استشارات اقتنعت بكلامه المخالف لرأي سابقه في أن الحصول على أي علاج كيماوي لن يفيد، بل قد يفسد قدرتي على احتمال علاج جديد.

وضع برنامجا يجمع بين الكيماوي والمناعي والإشعاعي.

بدأت جرعات كيماوي جديدة هذه المرة «فولفيري» FOLFIRI. المشكلة أن هذا كان أقدم من «فلوت» FLOT الذي حصلت عليه بالفعل سابقا، أخبرته بشكوكي فقال إن وجود الدواء المناعي «راميسيروماب» قد يعزز عمل الدواء الكيماوي؛ لذلك يستحق أن نجربه.

بالتوازي حصلت على إحالة لمسئول الأدوية التجريبية في الإمبريال كوليدج، كان صريحا بأنه لا تجارب واعدة لي حاليًّا لكن لديه تجربتين قد تقدمان إفادة جزئية، ولأسباب علمية لا داعي للإملال بتفاصيلها قررت أنهما غير مناسبتين.

انغلقت الأبواب في بريطانيا، وفقدت الثقة في كل شيء.

* * *

قررت البحث خارج الصندوق، وبدأت مراسلات حول العالم انتهت بسفري إلى مركز أندرسن.

الغرض الرئيسي كان - أولًا - شعاع أمل مفاجئ بطرح طبيب هناك فكرة أنه ربما تشخيصي خاطئ أصلًا، وهذا من أهم مجالات تميز المركز الذي يفخر بأنه يقوم بتعديل التشخيص لنحو ٢٥٪ من الحالات التي تصله.

قالوا: ربما كل ما يحدث يعني أن هذا ليس «أدينوكاريسنوما» بل «ليمفوما»؛ وبالتالي كل العلاجات كانت في الاتجاه الخاطئ.

سيعيدون كل الفحوص والتحاليل من البداية.

وثانيًا: لأنهم من الأكثر تميزًا عالميًّا بطرح الأدوية الجديدة والتجارب الجديدة.

هناك أجروا مسحًا ذريًّا آخر، قالت إسراء لي: لا تتفاءل. لم أكن متفائلًا لكن النتيجة كانت صادمة. حقق الورم قفزة أخرى، وهو الآن امتد إلى الكبد وإلى عظام الحوض. حدث هذا خلال شهر واحد فقط!

أصبت بإحباط شديد، وأود هنا شكر الأصدقاء والصديقات الذين تأثرت جدًّا بتوافدهم من ولايات مختلفة، ومنهم من طار سبع ساعات عبر مطارين ليلتقيني يومين فقط، وكان لهم أثر كبير في تجاوز ذلك اليوم.

ذهبت مع إسراء في اليوم الأخير للقاء الطبيبة الاستشارية التي ستبلغنا بالتقرير النهائي.

أولا: أكدت أن التشخيص سليم، هذا أدينوكارسينوما، نعم يتصرف بشكل غير نمطي وأكثر شراسة لكنه هو نفسه لا غيره.

قالت وهي لا تنظر في عينيَّ: لا يوجد أي علاج لحالتك الآن، أقصى ما سنفعله أن نمنحك بعض الوقت. لو عدلنا برنامجك الحالي، واستبدلنا كذا بكذا، فربما يمكن أن نصل معك للحياة عاما أو عاما ونصفا، ولو حصلت على أفضل استجابة ممكنة، وهو الأمر غير المؤكد بحالتك، فربما نصل إلى عامين على أقصى تقدير.

شعرت بإحباط شديد. كنت قد سمعت كلاما مشابها في لندن، لكني تحصنت بالإنكار وجئت كل هذه الرحلة عبر المحيط آملا في أن أسمع شيئا مختلفا.

قالت إن الخيار الآخر هو أن أتطوع للمشاركة في تجربة علاج جديد.
سألتها: هل تعتقدين أن الدواء التجريبي قد يحمل فرصة أفضل؟
قالت: لو كنت أعرف نتيجة التجربة ما كان اسمها «تجربة».

في الأوراق قرأت أنها تجربة تمهيدية في المرحلة الأولى، يستهدفون مشاركة ١٥ مريضًا فقط.

لا يوجد لديهم أي نتائج سابقة مطلقا، فراغ تام..

* * *

خرّجنا منها عرايا
زي ما دخلنا..
لا وزرا ولا حاشية
لا نلبس النياشين..
خرجنا منها جُداد
زي ما نزلنا
عيال كتير ماشية
من حدّ مش خايفين..
خرّجنا منها الآن..
نجّينا م التجربة..
المعركة مرعبة(١)

* * *

(١) قصيدة «صلاة خوف» للشاعر محمود عزت.

العلاج الجديد عبارة عن مزيج دواءيْن؛ أحدهما المناعي المعروف بيمبروليزوماب (كيترودا)، والآخر ينتمي لفئة أدوية يأمل علماء كثيرون أنها الطفرة القادمة لعلاج السرطان:

افتحوا الأبواب ليدخل الـ multikinase inhibitors.

تنتمي هذه الأدوية لفئة «العلاج الموجه» Target therapy، وهي أدوية لا تستهدف كل خلايا الجسم كالكيماوي، بل كالرصاصة الموجهة للخلايا السرطانية.

تحتها هذه الفئة متعددة التثبيط للـ «كاينيز»، أي بتبسيط هي تستهدف بشكل متزامن عدة آليات لانقسام الخلايا السرطانية، يُفترض أنها تصيبها بالشلل التام.

وهنا سيعمل الدواء المناعي على تنشيط جهاز المناعة لقتلها، وبآلية ما زالت غير مفهومة يُفترض أن الكيترودا سيعمل في هذه الحالة بغض النظر عن وجود أو عدم وجود «القفل» الخاص به.

حين عدت بالتقارير الجديدة إلى طبيبي البريطاني صارحني بأنه ينصح بشدة بعدم دخولي تلك التجربة. قال: أنا مدير معهد التجارب، أي أنا أول من سيتحمس لتجربة منطقية، لكن تلك الأدوية تعمل مع Her-2 إيجابي و1- PDL أعلى من ١٠٪ على الأقل، هذا ما ظهر بالنتائج المبدئية للتجربة الوحيدة التي تمت في اليابان على ٢٨ مريضا، ولا أدلة مطلقًا على أنها عملت سابقًا على مثل حالتك.

بماذا تنصح؟

قال إن الأفضل الاستمرار في العلاج المعروف، ويمكننا تجربة استبدال كذا بكذا كما نصحوا في أندرسن، قد نربح بعض الوقت

إلى حين ظهور دواء تجريبي ذي نتائج ملموسة من تجارب المرحلة الثالثة أو الرابعة.

قلت له إني قررت أن أتناول مؤقتا العلاج الكيماوي فقط «فولفيري»، ولن أضيف «راميسيروماب»؛ لأن شرط دخولي التجارب الجديدة ألا أكون قد عولجت بأي علاج مناعي سابقا، فلن أغلق تلك الفرصة.

وعموما أنا قرأت الدراسة المجمعة التي تم الاستناد إليها لإقرار بروتوكول «فولفيري + راميسيروماب»، ووجدت أنها أجريت على ألف مريض ظهر أن متوسط الحياة بالعلاج السابق كان ٩ أشهر، وبالبروتوكول الجديد ١١ شهرا. لن يختلف وضعي كثيرا لو ربحت شهرين.

قال: أنت بالتأكيد تفهم من خلفيتك الطبية والصحفية معنى «متوسط حسابي» أي أن ضمن المرضى الألف هناك من عاش لسنوات، وسنك صغيرة قد تكون منهم، قلت: نعم، لكني أفهم أيضًا أن الغالبية لم يكونوا منهم!

الحقيقة أني مرة أخرى كنت أقول بلساني ما لا أعنيه تماما.

لم يكن الأمر مرتبطًا فعلًا بالأمور العلمية، بل نفسيًّا شعرت أني لا أستطيع استخدام حيل نفسية دفاعية بينما وقر في يقيني أني أتناول علاجًا فشله محسوم، بينما العلاج التجريبي يظل مجهولًا، أي مفتوحًا على كل الاحتمالات.

صحيح أنه ربما يفشل، بل هذا هو الاحتمال الغالب، وربما تظهر أعراض جانبية مريعة مفاجئة. تذكرت شخصية «ليزارد» في فيلم

سبايدر مان الذي يشاهده ابني، جرب الطبيب علاجًا ليده المبتورة، فتحققت المعجزة وتجددت يده فعلا، لكنه بعدها تحول لمسخ سحلية عملاقة. لكن رغم كل شيء، ربما ينجح.هذه من المرات القليلة التي يصبح فيها عدم اليقين أفضل من اليقين.

تأكد قراري أيضًا بعد جولة استشارات ومراسلات، ظهر فيها انقسام الأطباء لكن بعض الآراء الداعمة كانت مقنعة على رأسها أن أحد الأطباء تحدث مباشرة مع مدير البحوث المسئول عن تجارب العلاج في شركة ميرك الأمريكية المنتجة له، فأخبره أن النتائج المبدئية على سرطان الرئة واعدة، وهو نفس ما أخبرني به د. محمد نبيل؛ الطبيب المصري في أندرسن، حيث أشرف بنفسه على بعض تلك التجارب. نسبة الاستجابة قد تصل لـ ٢٠٪، ليست كبيرة لكنها ـ كما أسلفت ـ كبيرة لمثل حالتي. في حالات نادرة حقق بعض المستجيبين لأسباب غير مفهومة نتائج مذهلة، ووصلت حالات ميئوسة للشفاء التام.

ثمة تشابه لأنها خلايا «أدينوسيلز» في نوعي السرطان، هي تفرز المخاط في حالة الرئة والعصارة الحمضية في حالة المعدة.

أود أن أشكر من كل قلبي كتيبة الأطباء والباحثين المصريين حول العالم الذين كنت ألجأ لهم في كل خطوة: د. تامر فؤاد، د. أحمد شلباية، د. محمد نبيل، د. عزة خليل، د. دسوقي أحمد، نرمين يسري. وجدت منهم جميعًا كل لطف وعلم ودعم وجدعنة.

* * *

لجأت من جديد إلى د. جورج.

كان لقاء مختلفا. لم يسألني مطلقا عن تطورات أعراض العملية، بل دخل في الموضوع فورا: لقد قرأت أوراقك، وأخبرك الآن أن كل الخيارات متقاربة وغير مؤكدة لذلك الأمر يرجع لك، أيًّا كان قرارك يجب أن تتخذه بسرعة وتلتزم به.

سألته متعشما لو كانت هناك خيارات جراحية لاستئصال الأورام، فقال: ما دام السرطان قد وصل لعظامك فقد انتهت كل الحلول الموضعية، لن نتدخل أبدا إلا لتخفيف الأعراض كوجود ورم ثانوي يغلق الأمعاء أو يضغط على عصب.

قلت له إني قررت أني أريد تجربة العلاج الذي عرضوه في أندرسن لكن طبيب الأورام لا يرى ذلك، فقال إنه سيتصل به..

بعد يومين التقيت الطبيب فلم يناقشني مرة أخرى، بل تعامل على أساس أن الأمر محسوم وتحدث فقط عن تفاصيل مثل أنه يقترح إضافة دواء موجه ثالث هو دينوزوماب، من فئة «الأجسام المضادة أحادية النسيلة» Monoclonal antibodies

وهو يعمل تحديدا ضد الخلايا السرطانية في العظام.

كما شرح لي الإجراءات المطلوبة للحصول على تقرير اللجنة البريطانية المختصة للتصريح لي بتناول الدواء التجريبي أصلا، ثم كيف سنستند إلى ذلك التقرير لننتزع تغطية شركة التأمين لكلفته، وهي هذه المرة نقطة مصيرية لأن كلفة الشراء خارج تجربة أندرسن تجاوز نصف المليون دولار.

الأدوية التجريبية فئتان؛ إما أنها غير مرخصة على الإطلاق، ليس لها اسم تجاري بل كود، مثل الدواء السويسري الذي كنت سأجربه، وإما أنها مرخصة ولو في دولة واحدة لغرض آخر، وهنا غالبا يمكن الحصول عليها تجاريًّا في دول أخرى بشروط متنوعة، وهذا كان وضع علاجي لحسن الحظ، فقد حصل على ترخيص FDA لأول مرة عام ٢٠١٥ كعلاج لأحد أنواع سرطان الغدة الدرقية.

وعدني الطبيب أنه سيقوم «بمعركة»، وبعد تفاصيل طويلة لا مجال لذكرها نجحنا بحمد الله.

ظهرت عقبة مفاجئة أخرى هي وجود اختلافات عديدة بين بروتوكول تجربة أندرسن وتجربة ماونت سيناي، مثل اختلاف جرعات الأدوية واختلاف فترة «ووشينج بيريود» للانتقال له من العلاج السابق وغيرها. بعد جولة استشارات أخرى وصلنا لترجيحات آمل أنها الأفضل.

* * *

اليوم بعد ثلاثة أسابيع من بداية التجربة يمكنني القول إنه على الأقل هناك تغير واضح في الأعراض، وهذا أفضل بخيره وشره، ولو من باب درء الملل!

من الزاوية الإيجابية أخيرا توقف سقوطي في منحدر انخفاض الوزن؛ بفعل تحسن نسبي في قدرتي على الأكل بعد تراجع أعراض

الكيماوي الهضمية، وبفعل مكمل غذائي ألماني توافق معي أخيرًا لأنه يعتمد على نشا الذرة ولا يدخل به أي مكون من الألبان.

توقف تساقط شعر رأسي وجسدي وعاد للنمو.

لكن على الجانب الآخر زادت بشدة آلام العضلات والمفاصل، وفترات حساسية الضوء في عيني.

مفاصل أصابعي تؤلمني في أثناء الكتابة الآن، وأصبحت أعرج أغلب الوقت بسبب آلام الركبة. أتجول بالمنزل بينما أردد إفيه: «أنا معاااااق في حب مصر».

في الأسبوع الماضي ظهرت أعراض قد ترتبط بالقلب؛ آلام بصدري وصعوبات تنفس. مكتوب في الإقرار الذي وقعته قائمة طويلة من مشاكل القلب المحتملة تبدأ بأمور بسيطة وتنتهي بمخاطر على الحياة؛ لذلك تعاملوا بجدية وحصلت على إحالة فورية لطبيب قلب، ثم سلسلة فحوص أظهرت أن التشخيص المرجح غير خطير وهو التهاب بغشاء القلب Pericarditis، وخلال الأيام القادمة سيتأكد التشخيص والعلاج. تجربة جديدة أخرى!

* * *

الآن بينما يمر شريط ذلك المسار أمامي أتذكر أني قبل المرض كنت أخطط لخوض تجارب مختلفة تماما.

قائمة من الدول التي أود زيارتها خاصة بأمريكا الجنوبية. أفكار وخيوط لكتابة روايتين على الأقل. بحث تجربة مجال عمل خارج

الصحافة، كنت أفاضل بين العودة للطب بعد التقدم لامتحانات المعادلة البريطانية، وبين دراسة ماجستير السياسات العامة، سواء هنا أو في منحة (كينيدي سكول) في هارفارد. راسلتهم في ديسمبر ٢٠٢٠، ثم طلبت منهم تأجيل حسم ذلك إلى ديسمبر ٢٠٢١، لكن تشخيصي كان في منتصف ذلك العام تحديدا. شاهدت إعلان المنحة لهذا العام فتبسمت رثاءً.

بين ليلة وضحاها تغيرت تجاربي كلها. كل يوم أغرق في تجارب أنواع الطعام والشراب، والمسكنات، والمكملات العذائية، ثم دخولي هذه «التجربة» الدوائية الأخيرة التي تساوي نتيجتها حياتي حرفيًّا.

لم يعد بإمكاني التخطيط لشهر قادم، بل ليوم قادم.

وكذا غدر نوائب الدهر، وعجز الإنسان، فلا أمان لتصاريف الأقدار، ولا اطمئنان لتقلبات الأحوال، فتأمل..

العلم الصادق والأمل الكاذب

رغم علمي بسياق هذا الكتاب الأقرب للجانب الأدبي، فإنه لا فكاك من التفاصيل العلمية؛ فالسرطان صار هاجس العصر، يخشى كل إنسان أن يكون هو أو أحباؤه الضحية التالية، وفي وقت الخوف تتراجع العقول.

وصلتني أعداد كبيرة من مقترحات «الطب البديل» كما يسمونه أحيانا، تمتد من الإبر الصينية، وبرامج تغذية نباتية في مصحات بالمكسيك، وحتى التداوي ببول الإبل!

بقدر احترامي لصدق مشاعر المرسلين، وبقدر أني أجرب حقًّا بعض تلك الأفكار لا أملًا ولا يأسًا، إلا أني لا أتخلى أبدًا عن منهجية «التجربة ثنائية التعمية» كدليل على أي شيء طبي بالوجود.

الكركمين أو بول الإبل يعالج السرطان؟

ممتاز، فلنحضر ٢٠٠ مريض بذات المواصفات، يتعاطى نصفهم بول الإبل والنصف الآخر العلاج التقليدي، دون أن يعرف المرضى أو الأطباء من يتناول ماذا، ثم نقيم النتائج في النهاية، لو ثبت أن فريق «البول» يكسب فسأكون أسعد الناس بتصديق ذلك.

لكن الأكثر خطورة من التلاعب بذلك «الطب البديل» هو إساءة فهم الطب المؤسسي.

في يونية ٢٠٢٢ فجأة غمرتني رسائل عن علاج «سحري» جديد للسرطان. أسهمت الصحافة في ترويج الخبر بعناوين مثيرة. على سبيل المثال، حمل الخبر في موقع «سي بي إس» الأمريكية عنوان «كل مريض في تلك التجربة رأى السرطان يختفي، يقول باحثون»[(١)]، بينما حمل الخبر بمواقع أخرى عناوين أقل دقة.

داهمني شعور مختلط، بين تقدير وشكر كل من تذكرني حين شاهد الخبر، وبين غريزتي العلمية التي تود أن تشرح أن الأمور ليست بهذه البساطة.. يا ليتها كانت كذلك!

للأسف شاهدت على مجموعات لمرضى السرطان العرب وغير العرب احتفاء واسعا بالخبر. أكره الأمل الكاذب، هو أقسى من اليأس. أشعر بغيظ شديد ممن ينشرون الآمال الكاذبة حتى لو بحسن نية، أما من يفعلونها عمدا فهم عندي كالمجرمين.

أتذكر عملي سابقًا في جريدة الشروق المصرية على تتبع ما أسميناه ضاحكين «جهاز الكفتة»[(٢)]، بينما كانت آثاره مبكية

---

(١) Every patient in this experimental drug trial saw their cancer disappear, researchers say
https://www.cbsnews.com/news/rectal-cancer-drug-trial-immunotherapy-dostarlimab-study/

(٢) بالوثائق والصور.. بوابة الشروق تتتبع مخترع علاج فيرس سي: الصحة طاردت عيادته للعلاج بالأعشاب وضحاياه يشتكون.. وأحكام قضائية بتهمة «انتحال صفة طبيب. https://www.shorouknews.com/news/view
aspx?cdate=03032014&id=28ad220d-039e-400f-9659-c9ddc6294c04

لا مضحكة. في بلد به ملايين المصابين بفيروس الالتهاب الكبدي سي، صدقت أعداد كبيرة من المرضى ذلك الأمل الكاذب، بل إن بعض المرضى توقفوا عن العلاج.

بينما كنت أتحدث مع ضحاياه القدامى واحدًا تلو آخر، وتنكشف لي تفاصيل القصة المدهشة لذلك النصاب المستمر في نشر خزعبلاته عبر عقود، كان يتعاظم عندي شعور الغضب من ذاك الشخص الذي ضحكنا طويلًا على سخرية برنامج باسم يوسف منه كمهرج، بينما هو مجرم وليس مهرجا. مجرم متوفى في بداية عام ٢٠٢١ دون أن يحاسبه أحد للأسف.

بالعودة إلى تفاصيل خبر علاج السرطان الجديد، الأمر مختلف بالطبع، نتحدث هنا عن بحث محترم متحفظ في نتائجه، لكن الصحافة هي من بالغت. الاكتشاف فعلا هام ويمثل إنجازًا واعدًا، لكن يجب وضعه في حجمه بلا مبالغة، وتلك الحاسة رغم صعوبة تطبيقها جماهيريًا فإن أحداث وباء كوفيد كشفت عن الحاجة لذلك الحد الأدنى من ثقافة فهم الأوراق العلمية، معنى قوتها ومقارنة جهات إصدارها ومراجعتها، والمنهجية المشروحة بداخلها.

ولا يمنع ذلك التفاؤل والاستبشار بالخبر، فالعلم يخطو كل يوم للأمام، وإن كان حقًّا أن نقول إنه للأسف ما زال السرطان أعقد بكثير من أن نأمل في طفرة مفاجئة كاكتشاف المضادات الحيوية التي غيرت تماما معركة البشر مع البكتيريا، وأصبح الطاعون والدرن وغيرهما من أوبئة قتلت الملايين مجرد أمراض عابرة.

بعد بحث غير طويل وجدت التالي:

١ ـ ذلك الدواء الجديد لم تتم تجربته على كل أنواع السرطان بل فقط لمرضى سرطان المستقيم، وبمواصفات محددة أبرزها أن تكون مرحلتهم غير متأخرة، كلهم مرحلة ثانية أو ثالثة، ولم يتلقوا أي علاج سابق.

٢ ـ الدواء المعنيّ هو الدوستارليماب Dostarlimab، وبطبيعته هو دواء مناعي لا يعمل مع كل المرضى؛ لأنه من فئة Checkpoint inhibitor، وآلية عملها باختصار هي تعريف جهاز المناعة على الخلايا السرطانية كخلايا غريبة فيتولى مهاجمتها ـ تحدثت عنها سابقا ـ ويتطلب ذلك وجود بروتين معين هو ما يستهدفه الدواء، ونسبته تختلف حسب الشخص ونوع السرطان وتفاصيل عديدة. يمكن القول بتقدير واختصار مخلين إن ٣٠٪ من المرضى فقط هم من لديهم البروتين المؤهل المطلوب.

٣ ـ شرط آخر أيضا هو نوع الطفرات في جينات اسمها MMR وهي المختصة بآلية إصلاح أي خلل جيني؛ لذلك اضطرابها يعني هيمنة الطفرات دون مقاومة ونشوء السرطان.

يعمل هذا الدواء فقط حال كانت الطفرات من فئة MMRd. في سرطان المستقيم مثلا موضع التجربة الأخيرة النسبة هي ٥-١٠٪ فقط من المرضى.

٤ ـ التجربة تمت على عدد محدود جدًا من المرضى المطابقين لكل المواصفات السالفة هو ١٢ مريضا فقط. يحتاج التأكد أعدادا

أكبر، وتنوعًا في مراحل المرض، خاصة أن نسبة كبيرة من الأورام تُكتشف في المرحلة الرابعة.

٥ ـ التجربة تمت قبل عامين والمرضى جميعًا سالمون بحمد الله وهذا عظيم وغير مسبوق، لكن المنهجية المعتمدة لتقييم أي دواء هي قياس نسبة من يبقون أحياء بعد ٥ سنوات بعد التشخيص، خلال هذه الفترة وارد في أي وقت أن يعود المرض أكثر شراسة.

رغم كل ما سبق يظل ما حدث خبرا مبشرًا، وكم من تجارب سابقة لم تصل قط لنسبة شفاء ١٠٠٪ مهما كان صغر مجموعة التجربة ومهما كان انطباق المواصفات عليهم.

ونفس فئة الأدوية المذكورة لم تحقق تلك الأرقام في تجارب سابقة؛ غالبا لأنها كانت دائما يتم تجربتها كخط ثالث بعدما يكون المريض قد تم استنزافه تماما بتقدم المرض وبعلاجات أخرى قللت فرص النجاح (سواء لإنهاكها الجسد، أو لتحولات وتطورات الخلايا السرطانية الدفاعية ضد العلاج)

وهذا تحديدا أهم تحول ستفتحه تلك التجربة في توقعي هو أنه خلال بضع سنوات ستترسخ فكرة استخدام تلك الأدوية كأول خط علاجي للمؤهلين لها.

فيما يخص شخصي أنا بالفعل أحصل على دواء مشابه جدًّا يعمل بنفس الآلية، يكاد يكون الفارق هو الشركات المنتجة، لكن للأسف أنا غير مؤهل لأن يعمل معي بكل المقاييس الخاصة بنسبة

البروتينات أو نوع الطفرات، وهذا كما حكيت سابقا كان سبب الجدل المطول بين الأطباء حول خياري الأنسب، وانتهى بأني حاليًّا أتناوله، بالإضافة إلى دواء تجريبي ثانٍ معه يفترض أنه قد يحفز عمله.

والحمد لله من قبل ومن بعد على نعمة توافر إمكانية وصولي لأحدث خيارات علاجية ممكنة.

وإن كان الجانب السلبي هنا هو أن حالتي وصلت لنهاية الخط بالفعل، ولا خطط بديلة في حدود بحثي على الأقل. التجربة الأخيرة ذائعة الصيت تمت في مركز «ميميوريال سلون كيترينج» الأمريكي، وقد حصلت من ذات المركز على استشارة، وقالوا إن ترجيحهم الوحيد هو التجربة الحالية ولم يرشحوني لأي خيارات أخرى.

من الأفضل دائمًا عدم «العشم». إياكم والعشم. وعمومًا دائمًا أطرح على نفسي أسوأ السيناريوهات، فإذا تحقق الأفضل فسأسعد، وإلا فمن الأفضل ألا يكون الأسوأ مفاجئًا ـ رغم ذلك ما زلت أفاجأ بالأسوأ..!

ورغم كل شيء فلنحاول أن نفكر بإيجابية في أن الخبر الأخير لعله بشرى خير لي، ولكل أسرة ابتُلِيَ أحد أفرادها بالمرض. أنا أومن بالعلم، وبخطواته البطيئة المترددة لكنها تتقدم باستمرار.

ما نحن فيه اليوم يفوق الخيال مما قبل مائة عام فقط. وواقعيًّا لم تظهر علاجات حقيقية للسرطان إلا قبل عقود قليلة جدًّا. أحيانا

أفكر أني محظوظ أني أصبت بالسرطان في ٢٠٢١ وليس قبلها بعشرة أعوام فقط، وأحيانا أفكر في أن حظي سيئ جدًّا، لو فقط انتظر ذلك اللعين بضع سنوات أخرى.

دافع رئيسي في مقاومتي الحالية هو الأمل في أن يظهر فجأة تقدم ما يخص حالتي تحديدا، تجربة جديدة لدواء جديد، من يعرف، لا أتعشم، لكنه مزيج الأمل والانتظار والصبر، من يعرف؟

محاولة لملء مكانٍ خالٍ على مائدة عيد

في فصل سابق تناولت تشبيه طبيب الأورام الأمريكي سيدهارتا موكرجي تجربة مرض السرطان بتجربة السجن، من حيث تشابههما في البشاعة والقسوة. في كليْهما يفقد الإنسان سيطرته على أعمق ما يملك: جسده، وفي كليْهما تلتهم تفاصيل المرض أو السجن كل مسارات وآمال حياة الضحية.

لكن الشاعر المصري علاء خالد له تناول مختلف في كتابه «مسار الأزرق الحزين»؛ حيث يفصح عن فكرة داخلية مدهشة كانت لديه منذ ما قبل تجربة المرض الخطير، وهي رغبة خفية في تجربة السجن أو الاقتراب من الموت لأنه كان يشعر أنه بغير تجربة سلب حريته الخارجية «لن أكتشف نوعًا آخر من الحرية الداخلية، وأنني لم أتحرر بعد من الداخل».

يقول إن تجربتي السجن والموت، أو كل أشكال معايشة الموت في أثناء الحياة، «هما تجربتا الخلاص الأساسيتان»، ليولد الإنسان كخلق جديد متخلص من عيوب وسوءات الوجود السابق... لم أجد أقوى ولا أرفع مكانة من الموت والسجن كي يحوزا شرف هذا البعث والميلاد الجديدين للكائن الذي هو أنا».

أجدني منحازا للتصور الأول، الصورة التي لا تحمل أي شاعرية أو محاولة للتأويل لجوانب إيجابية، بينما مع فهمي التام للتصور الثاني الذي طرحته شاعرية خالد وآخرون، فإني أرى أن فقد عنصر الاختيار يفقد التجربة كل ما بها من نوازع إيجابية إلا لعدد محدود جدًّا من الأشخاص المميزين.

أنحاز للصورة الأولى، من واقع تجربتي المباشرة مع المرض ومع السجون لبعض الأفراد من أصدقائي وأسرتي، كما أنحاز لها من واقع أبسط تفاصيل الحياة، كحرماني من بهجة وألوان تجمع الأسرة والأصدقاء على موائد الأعياد، بالضبط كما تحرم منها أسر سجناء منهم أسرة زوجتي، والتي لم نكن نحب أن يتم اختصارها بهذا اللقب «أسرة سجين»، كما لم أحب قط اختصاري بهوية «مريض سرطان»، لكن نوائب الدهر جبرية.

* * *

٨ يولية ٢٠٢٢

قبل خمسة أيام استيقظت صباحا على أعراض حمى مفاجئة. نُقلت للمستشفى حيث تم حجزي بقسم العناية المركزة فورا.

أمضيت يومين من فقد الوعي والهلاوس والارتعاش والهذيان، وبصعوبة في فترات إفاقة قصيرة فهمت أني مصاب بـ Sepsis أو ما يترجم بعفونة الدم أو تسمم الدم.

تذكرت ما درسته في الكلية وامتلأت رعبا.

باختصار يحدث هذا حين تتفاقم عدوى ما، فيطلق الجسم رد فعل مناعي حادًّا، يؤدي إلى سلسلة من فشل الأعضاء التي تغزوها جلطات صغيرة في كل مكان، وتصاب كلها بنقص في إمدادها الدموي، فتحدث الوفاة السريعة خلال أيام.

كنت أردد الشهادتين قبل كل غطس في عالم اللاوعي عالمًا أني قد لا أعود.

شرارة الأحداث كانت اضطرابا بالمناعة، حدث لي بعد أول جلسة من برنامج علاجي جديد، انتقلت له بعد فشل علاجي السابق رغم أنه الفئة الأحدث عالميًّا ضد نوع السرطان عندي، لكن أظهرت الفحوص الأخيرة المزيد من نمو الورم كأنه تغذى على العلاج!

تحسنت قليلا في اليوم الثالث؛ مما جعل حالتي تسمح في اليوم الرابع، بإجراء عملية جراحية لإفراغ سوائل الالتهاب بالحوصلة المرارية، وهو ما نجح مع أطنان الأدوية في عكس المسار بحمد الله.. وأخيرًا بدأت تظهر أرقام منطقية بأوراق التحاليل، وأمكن أن أجلس الآن لأكتب في غرفة عادية بالمستشفى لا في زنزانة التأديب الباردة المسماة العناية المركزة.

ورغم أني ممتن جدًّا للنجاة من موت لم أكن في أي لحظة أقرب إليه من هذه المرة، ما زلت محبطًا من فكرة أني سأفقد الاحتفال بالعيد.

كنا قبل أسبوع قد اتفقنا إسراء وأنا على الانضمام لأصدقاء في إفطار يوم عرفة، وعلى تنظيم حفلة شواء يوم العيد. ليس كعيدنا في مصر طبعا، لكن لا بأس، هو أساس كافٍ ليتكفل الحنين والخيال بباقي البناء.

أبلغني الأطباء اليوم أني سأبقى بحوزتهم ٣-٥ أيام إضافية على الأقل، كما تم منعي منذ أول أمس من تناول أي طعام إلا السوائل حتى إشعار آخر. عودة للمربع صفر.

كنت قد قطعت أشواطا في استعادة بعض قدرات الأكل والشرب منذ عملية الاستئصال الكبرى في نوفمبر، وأتلهف لاختبار مدى إمكاناتي الغذائية يوم العيد، لكن تبخر كل شيء في لحظة.

لا عيد، ولا حتى مذاقه عن بعد.

* * *

لكن هذه المرة تحديدا حين كنت أفيق وأشاهد بين الدوار والعرق فزع وجه إسراء، كان يلح عليَّ وجه والدها الغائب د. السيد حسن شهاب.

باختصار شديد تم القبض على والد زوجتي في سبتمبر ٢٠١٣، من مطار القاهرة متوجهًا إلى دولة عربية لتدريس مقرر هناك، دخل في تقاضٍ طويل وأحكام ضخمة، لكن بحمد الله انتهى كل ذلك في ١١ يونية ٢٠٢١، بحكم محكمة النقض بالبراءة التامة. قالت أعلى محكمة مصرية إن كل ما تم اتهامه به غير صحيح.

فرحنا واحتفلنا بنهاية قريبة للمأساة التي قررنا نسيانها والنظر للأمام. ظننا النهاية قريبة لأن عمو سيد غير متهم بأي قضايا أخرى، ليس مشهورا، لم يظهر قط على منصة إعلامية أو فوق منصة رابعة، لم يتورط في خصومة مباشرة مع أي جهة أو شخصية أمنية، كبير السن

(يتم عامه السبعين في سبتمبر ٢٠٢٢)، ذو خلفية أكاديمية مرموقة (عميد هندسة حلوان سابقا).

نظريًّا هذه هي المواصفات الأمنية الممكن تخمينها لمن يتم تنفيذ أحكام براءتهم، ونعرف آخرين بذات الظروف خرجوا بالفعل من نفس القضية أو قضايا شبيهة.

كنت وقتها في بداية رحلة الأهوال السرطانية، وفكرت سعيدًا أنه كما يقال: «الحمد لله، يقطع من هنا ويوصل من هنا».

لكن فوجئنا بأنه تم إدراجه في القضية ٧٨٦ لسنة ٢٠٢٠.

تعشمنا أن الأصعب قد انتهى، وهذا حبس احتياطي قد ينتهي خلال أسابيع أو أشهر، لكن لم يحدث، وظل مسجونًا على ذمة القضية حتى الآن.

طرقنا كل الأبواب الرسمية وغير الرسمية، من النائب العام، إلى المجلس القومي لحقوق الإنسان ووزارة الداخلية، ودائما نحصل على أرقام بالشكاوى أو وعود بالسعي ثم لا شيء، لا تفسير ولا رد.

مؤخرًا مع انطلاق دعوة الحوار الوطني (إبريل ٢٠٢٢) وتشكيل لجنة العفو الرئاسي، عدنا للطرق بكل ما هو متاح رسميًّا وغير رسمي، تلقينا وعودًا إيجابية، ثم لا شيء.

* * *

كل التفاصيل القانونية والمستندات اللازمة متوافرة ونشاركها مع كل من يطلب، لكن أمورًا كثيرة لا تكتب بالأوراق.. كيف نكتب أن دكتور سيد «رجلٌ كريم»؟

يكللني لآخر العمر كرمه المدهش حين ذهبت وحدي بجرأة تدنو من الوقاحة لخطبة ابنته، أنا القادم من الصعيد، طبيب امتياز، بلا دخل ولا شقة. حذرني أقارب وأصدقاء من الذهاب قبل إنهاء الامتياز ووضوح موقفي من الجيش على الأقل.

لكن كان الرجل حاسمًا في أن قبولي أو رفضي بيد ابنته فقط، ثم أي شيء آخر لا يهم.

لم أكن حتى متأكدًا أني سأعثر على عمل بالقاهرة، وأخبرته أني نقلت امتيازي لمستشفى إمبابة وأريد استكمال الحياة هنا لأني أهوى الكتابة وأبحث عن فرصة، فقال إن الزوجة مكانها هو حيث يعمل زوجها، وأنهى نقطة مؤرقة في لحظة. عائلات كثيرة قد تلغي الزيجة كلها لأن منزل العريس أبعد ببضعة أحياء، بينما هو وافق فوريًّا على احتمال أن تسكن ابنته الوحيدة على بعد ٥-٦ ساعات من القاهرة بقطار الصعيد.

تزوجنا بدون قائمة، لم يذكر أصلا أنه لا يريدها، بل لم يفتح موضوعها قط، والشبكة قال: «دي هدية لعروستك زي ما تحب أنا ماليش دعوة!»، أما المؤخر فقد حُسم في مشهد كوميدي في آخر لحظة، بينما المأذون يكتب الكتاب وصل لهذه الخانة لنرتبك جميعًا كوننا لم نناقش الموضوع قط، فتهامس د. سيد مع والدي لثوانٍ واختارا رقما صغيرًا جدًّا بينما يضحك المأذون لما يحدث!

وعلى الصعيد العام، ورغم الخلاف الكبير في توجهاتنا السياسية والفكرية، والذي دفع كليْنا للتوافق على عدم فتح أي نقاش سياسي منعا لتعكير أجواء الخطوبة، لكني أشهد أن أخلاقه

الكريمة كانت حاكمه الدائم، وكان على اختلاف مع العديد من قرارات الإخوان الأخيرة.

وكذلك كانت سيرته بين طلابه في جامعة حلوان تشهد بها عشرات من قصصهم سواء في الأمور الدراسية أو في الأنشطة الطلابية كدعمه الأسر وفرق المسرح وغيرهما.

أذكر هذه التفاصيل رغم أنه يفترض ألا علاقة لها بالقانون، فالعقوبة مرتبطة بالجرم دون تمييز، لكني أحاول التماشي مع واقع فيه أن هذا الرجل البريء - بنص حكم أعلى محكمة مصرية - يوشك بالفعل على إتمام تسع سنوات سجنا، وهي عقوبة قد لا ينالها سارق أو تاجر مخدرات مدان.

* * *

رغم أن القضية عامة، لكني لا يمكنني وأنا أرى قبري، إلا أن أتناولها بشكل بالغ الفردية والخصوصية. أنشر تلك الكلمات على صفحاتي والتي أفترض أنها يقرؤها أصدقاء ومعارف قدامى كثر بدوائر حكومية أو مقربة منها، بعضهم تحدثت معه سابقا عن القصة ووعدني خيرا ولم يستطع، وبعضهم لم أحدثه، ولم أعد الآن قادرًا على فعل ذلك.

أخاطب كل من يقرأ عبر أي وسيط: أرجو منكم جميعًا، بحق من كان لي عنده لحظة ود، أن يساعدنا على ألا تُفجع إسراء في زوجها ووالدها ووالدتها (توفيت قبل عامين بالسرطان أيضا).

أماكن كثيرة خالية على مائدة عيدها، فليعد لها واحد على الأقل..

العازف ذو البذلة الحمراء

يتميز القانون الجنائي المصري بوضع غريب فيما يخص أحكام الإعدام: لا موعد لتنفيذها.

بعد أن يستنفد المحكوم عليه درجات التقاضي كافة، ويصدق رئيس الجمهورية على الحكم، يظل السجين مرتديًا البذلة الحمراء في انتظار الموت، وهو انتظار قد يستغرق أسابيع، أو أشهرا، أو سنوات قبل أن يُفتح الباب ويخبروه فجأة أن الوقت قد حان!

لهذا الوضع جانب إيجابي؛ فالعديد من السجناء خاصة في القضايا السياسية أمضوا سنوات طويلة دون تنفيذ الأحكام، وانتهى الحال بإطلاق سراح بعضهم بعد تبدل الأحوال.

لكنَّ له جانبًا قاسيًا جدًّا، هو مرور الوقت على ذوي البذلات الحمراء في انتظار الموت في أي لحظة.

كثيرا ما تمثلت حياتي كمريض سرطان بحياة هؤلاء. كيف يمضون وقت انتظار الموت؟ يتناسون الأمر؟ يعتادونه؟

حين أقوم حاليًّا بأي نشاط متوسط أو طويل المدى، بدءا من زراعة حديقتي وحتى أي نشاط مرتبط بالصحافة أو بالكتابة، أفكر

أحيانا في مدى حماقة ما أفعل. هل يتقدم محكوم بالإعدام بطلب للدراسة بإحدى الكليات؟ هل يمارس الرياضة لبناء عضلاته؟

* * *

لكن وضعي به جوانب معينة أكثر تعقيدا من محكومي الإعدام.

مع الوقت يعرف السجناء أن الإعدامات تنفذ في يوم محدد من الأسبوع، وهكذا تصبح حياتهم دورات من الرعب مع اقتراب اليوم المحدد، ثم الراحة لأنهم كسبوا أسبوعًا إضافيًّا.

ثمة نظام ما وأوقات واضحة للاطمئنان على الأقل.

في حالتي، لا أعرف أبدًا كيف سينتهي كل يوم.

يصفون السرطان دائما أنه «الخبيث». أود إضافة لقب آخر: «الغادر».

يوم الأربعاء الماضي تعرضت للغدر.

رغم أني كنت قد خرجت من المستشفى قبلها بأسبوع فقط، حاملًا أنبوبًا في بطني يخترق الكبد إلى الحوصلة المرارية وسأحتفظ به لأربعة أسابيع، فإن كل شيء كان (طبيعيًّا) يومها. كنت أتناول الغداء بالخارج سعيدًا بتحسن في قدرتي على الأكل. شعرت فقط ببرد طفيف، ففكرت: سأغسل يدي ثم أرتدي المعطف.

ذهبت للحمام، بدأت غسل يدي، ثم فجأة أصبح جسدي كله يرتعش حتى الارتجاج. لا يمكنني إغلاق الماء أو المشي أو طلب المساعدة.

بصعوبة شديدة عدت لمكاني. الأكواب والصحون تصدر أصواتا بسبب اهتزازاتي. كل من بالمطعم ينظر نحوي.

أعادوني لمنزلي القريب حيث تعرف إسراء ما ستفعل. ظهر أن حرارتي ٣٩، وحيث إن معنا رقم طوارئ مخصصًا للإبلاغ فور الارتفاع الطفيف عند ٣٧,٤ فقط(!)، فقد تم ترتيب نقلي للمستشفى فورا.

بعد ساعات تمت السيطرة على درجة الحرارة، لكن من يسيطر على الصدمة؟

كنت مصدوما وعاجزا عن الاستيعاب. خلال دقائق فقط انتقلت من حياة (طبيعية)، إلى العناية المركزة.

فهمت منذ زمن أنني لا يمكنني توقع اليوم القادم، لكن هكذا لا يمكنني توقع الدقيقة القادمة.

كنت قبلها أناقش مع إسراء مدى مخاطرة السفر إلى دولة أوروبية بها بحر حيث لم نفعل ذلك منذ أكثر من عامين.

بعد فحوص قال الأطباء إن تحديد مصدر العدوى يحتاج أيامًا إضافية لظهور نتائج مزارع البكتيريا لإفرازاتي، لكن حاليًّا وجدوا انسدادا في الحالب الأيسر، لم يكن موجودًا بالإشاعة المقطعية الأخيرة قبل أسبوعين فقط! لا حصوات، بل جدار الحالب نفسه ازداد سمكه عند نقطة معينة، فالأرجح هو أن الخلايا السرطانية تغزوه.

المفترض في المسار الطبيعي أني كنت سأشعر بأعراض تدريجية، لكن حيث إن لديَّ اضطرابًا بالخلايا المناعية بسبب العلاج الكيماوي، فإن أدنى مصدر للعدوى يتحول وحشًا في لحظة.

وجدتني لا أفكر في كل ما أسمع، بل أسأل سؤالا واحدا: لديَّ جلسة علاج بعد ١٠ أيام، هل سأحصل عليها في موعدها؟

لم تعد هذه بالنسبة إليَّ جلسات علاج، بل هي جلسات إعادة تقاضٍ لمحكوم بالإعدام يرتدي البذلة الحمراء.

لا أحتمل المزيد من التأجيل.

لكن لم أحصل على إجابة.

* * *

كانت الأحداث قد تسارعت في يونية الماضي. خضعت لفحوص لقياس مدى الاستجابة للدواء التجريبي الجديد الذي كنت قد بدأته في مارس، فجاءت النتائج سلبية جدًّا.

الورم أحرز قفزة كبيرة، لعلها الأكبر في مرات الفشل السابقة، كأنه كان يتغذى على العلاج!

الأورام الثانوية الأصلية زاد حجمها كلها تقريبا.

انفجار من البؤر الجديدة في الكبد.

بؤرة جديدة بعظام الحوض، وعلامات عودة بؤر أخرى لنفس موقع الورم الأصلي رغم استئصال الأعضاء والعقد اللمفاوية بالمنطقة بالكامل.

والأكثر رعبا: بؤر في أربع فقرات بظهري.

لم أكن مفاجأً تماما. كنت خلال الأشهر السابقة أتلمس بيدي بصورة شبه يومية تطور البؤر الجديدة في الكبد. تظهر كرة صغيرة، ثم يزداد حجمها، ثم تزداد صلابة. ثم كرة ثانية. ثم ثالثة.

ثم لأسبوعين قبل الفحوص أصبحت أحلم بصورة شبه يومية بكوابيس جوهرها أن شيئا ما يكسر عمودي الفقري.

مرة كنت في مصنع ويهبط عليَّ مكبس عملاق.

مرة كنت في الصحراء وتمر مدرعة فوقي.

نسخة أخرى من حلم الأشواك الذي بدأ كل شيء، كنت أريد أن أقول لعقلي الباطن: لا حاجة لما تفعله، هذه المرة أنا أعرف يا أحمق!

الأمر مرعب لأن لديَّ خبرة طويلة جدًّا مع آلام الظهر منذ تشخيصي بعيب خلقي تسبب في التواء بالفقرات «سكوليوزيز» في ٢٠١٨.

لكن الأهم، أنه هذا المسار ينتهي في بعض الحالات بغزو السرطان للنخاع الشوكي، ثم الشلل.

وأنا صريح وواضح تماما: عند نقطة معينة من انخفاض جودة الحياة، يصبح الموت أفضل.

لأسباب عديدة لا أريد التورط في مسألة خيار «الموت الرحيم» المسموح به قانونًا هنا في بريطانيا، لكن بالتأكيد قلت لإسراء إني لا أريد أن أوضع على أي أجهزة تنفس أو أي شيء يطيل حياتي لو وصلت لتلك النقطة.

لكن رغم ذلك لم يكن هذا هو الجانب الأهم حين التقيت الطبيب، فالمهم هو المسار العام الآن وهنا.

لقد سمعت حكم الإعدام الابتدائي بالفعل، لكني آمل أن درجات التقاضي ما زالت لم تنفد، وأنا أدافع فيها بكل ما أملك.

كنت خائفا من أن أسمع من الطبيب الحكم النهائي البات: لا علاج لك عندنا، عد لمنزلك، وستموت خلال فترة كذا.

أعرف أن الجميع يعشق قصص المعجزات التي قال فيها الأطباء للمريض: ستموت خلال شهر لكنه عاش عشرين عاما ومات الطبيب. من خلال عضويتي في مجموعات المرضى بالعربية والإنجليزية حول العالم هذه الوقائع تحدث فعلا، لكن بندرة شديدة، بينما أضعاف أضعافها هي الحالات التي تكون فيها توقيتات الأطباء بالغة الدقة، ويموت المريض فعلا بالضبط خلال أسبوعين/ ثلاثة أشهر/ ستة أشهر.

بحمد الله لم يكن الأمر كذلك.

قال طبيبي إنه ما زالت صحتي العامة تسمح بمحاولات أخرى، ما زالت رئتي خالية من الورم - رغم علامات محتملة بوصوله إلى السائل البلوري - وما زلت أستطيع الحركة والكلام والأكل رغم كل شيء. قال إنه من الجيد أننا أجرينا مبكرًا هذه المحاولة، وعرفنا أنها فشلت، لتنضم للخطين الفاشلين السابقين؛ لأننا الآن يمكننا تفكيك المرض والأدوية لتخمين ما الذي سيعمل معي.

باختصار وتبسيط، ما حدث هو أنه بدلًا من النظر لانتشار الورم كليًّا، يمكننا تقسيمه إلى بؤر سرطانية في العظام، وأخرى في الكبد، وثالثة بباقي الأماكن. كما يمكن تقسيم البروتوكولات إلى أدوية منفصلة.

وهكذا بناء على تفاصيل معينة، ضمنها أن نتجاوز استخدام حجم الورم كمقياس للاستجابة إلى استخدام قياس نشاط الورم (SUV)، أصبح يمكننا أن نعرف أن الدواء المناعي «دينوزوماب» أحرز قدرا من الاستجابة معي لبؤر العظام فقط، وكذلك أدوية الكيماوي بروتوكول «فولفيري» أحرزت قدرا من الاستجابة بالكبد.

إذن سنستخدم كليْهما، ونضيف دواءً جديدًا تمامًا. افتحوا الأبواب ليدخل: راميسيروماب!

دواء مناعي يعمل بآلية ذكية هي باختصار مخل أن الأورام تفرز بروتينات اسمها VEGFR، وظيفتها تخليق أوعية دموية جديدة تغذي الورم، نفس فكرة العروق البارزة في العضلات المتضخمة لرواد «الجيم». هنا يتدخل الدواء الذي يتنكر في صورة تلك البروتينات، ليرتبط بمستقبلاتها، فيغلقها عن تلقي الأمر الأصلي؛ وبالتالي لا تتكون الأوعية الجديدة، ولا يمكن للورم الحصول على التغذية اللازمة لنموه.

وحين أن بحثًا أمريكيًّا حديثا أظهر أن استخدام الكيماوي «فولفيري» مع هذا الدواء المناعي تحديدا «راميسيروماب» يؤدي لتعزيز كليهما، فإنه يمكن استخدامهما مع «دينوزوماب»، وبالإضافة إلى ذلك البرنامج الثلاثي يمكن إضافة جلسات علاج إشعاعي دقيقة تستهدف بشكل عاجل البؤر ذات الأعراض الأكثر ألمًا أو خطورة وهي بؤرة عظمة القص في صدري، وبؤر الفقرتين (الصدرية الثانية عشرة والقطنية الأولى T12, L1).

هكذا تكون فريق الأحلام الذي يفترض أنه مفصل على مقاسي تحديدا.

ورغم أن «راميسيروماب» مرخص لحالتي في أمريكا وغير مرخص في بريطانيا، فإنه من واقع خبرتنا السابقة أصبحنا نعرف جيدا طريقة إتمام التعقيدات الإدارية المطلوبة، ولا حاجة لأن أسافر إلى هناك كما فعلت سابقا. خبر جيد آخر، لم تعد صحتي تحتمل رحلة الطيران الطويلة هذه.

متى يمكن أن نعرف إن كان سيعمل، أم لا؟

قال إن هذا يتطلب الحصول على أربع دورات دون انقطاع، أي مرة كل أسبوعين لمدة شهرين، وخلالها سأحصل على العلاج الإشعاعي في مسار موازٍ. سألته: ماذا لو فشل؟ هل هناك أي بدائل أخرى؟ فتهرب قائلًا إن من الأفضل عدم استباق الأحداث، ولنركز على المرحلة الحالية فقط.

شعرت أني حصلت على تأجيل لجلسة نقض حكم الإعدام لمدة شهرين.

ظننتهما شهرين من الأمان النسبي، لم أعرف ما سيحدث.

توافقت معه على البدء فورا، رغم اعتراض طبيب آخر، ثم حتى اللحظة الأخيرة اعترض مدير صيدلية المستشفى الذي يصرف الدواء، وجاء خصيصا إلى مكاني ليناقشني في القرار.

بالنسبة إليَّ أنا أريد «حسم القضية»، وبالنسبة إلى طبيبي منطق الاستعجال هو أن الكبد يمكن أن تنهار وظائفه في أي لحظة؛ لذلك

الأفضل تجنب أي تأخير. (علميًّا يمكن للكبد تعويض تدمير أغلب خلاياه، فص واحد سيقوم بالمهمة، لكن هذا تحديدا ما يجعل الانهيار سريعًا جدًّا حين يصل الورم لهذا الجزء الأخير).

توقعت أعراضا سيئة وقررت تحملها، هكذا أمضيت أياما من الألم والنوم بينما تتداخل أعراض الدواء التجريبي السابق (وأبرزها جفاف الحلق وآلام الصدر)، مع أعراض البرنامج الجديد (وأبرزها الغثيان والقيء وحساسية الضوء وطنين الأذن. كنت قد نسيت الكيماوي، ذلك اللعين المألوف!).

لكن سرعان ما فاجأني «الغادر».

مر الأسبوعان وذهبت للحصول على الجلسة الثانية، ففوجئت بإبلاغي أني لن أحصل عليها لأن التحاليل تظهر انخفاضا شديدا بخلايا المناعة «نيوتروفيلز»؛ لذلك قرر تأجيلها لثلاثة أيام خلالها سأحصل على حقنة يومية لرفع المناعة.

في اليوم الثاني استيقظت صباحا مصابا بحمى مفاجئة، ظهر أنها تحولت بسرعة مدهشة إلى «تعفن الدم» أو Sepsis، وأن السبب عدوى حادة ظهرت فجأة في الحوصلة المرارية ـ حكيت عن هذا سابقا.

بقيت لأسبوعين في المستشفى، وخرجت لأنتظر أسبوعًا آخر في المنزل، قبل أن أحصل على الجلسة التالية التي أصبحت هكذا هي الدورة رقم ١ بعدما فصلها عن سابقتها أكثر من شهر.

ثم الآن يحدث هذا مرة أخرى؛ وبالتالي قد أخرج من المسار، لنبدأ العد من جديد!

تذكرت عذاب سيزيف في الأساطير الإغريقية. يحمل الصخرة بمشقة بالغة إلى قمة الجبل، ثم تتدحرج فيعود لتكرار العملية للأبد. لقد عاقبته الآلهة بعقاب رهيب: العبث.

* * *

أنا الآن لا أرتدي بذلة حمراء، بل ملابس المستشفى البيضاء، لكن وقعها النفسي عليَّ أصبح هو ذات وقع بذلة الإعدام.

كتب أمل دنقل عن أيامه في الغرفة ٨؛ حيث تُوفِّيَ من السرطان أيضا، معلقا على اللون الأبيض بملابس الأطباء والملاءات وأربطة الشاش والقطن: «كلّ هذا يُشيعُ بِقَلْبي الوَهَنْ. كلُّ هذا البياضِ يذكِّرني بالكَفَنْ».

في حالتي الأحمر ليس مجازيًّا فقط. في جلسات العلاج الإشعاعي بعد ضبط كل شيء يغادر الممرضون الغرفة، يغلقون بابًا سميكًا ـ بسبب العزل الرصاصي ـ وتضاء أنوار حمراء زاهية في مواجهة عينيَّ، وينطلق صوت إنذار. أتأمل في كون كل هذه الاحتياطات كي لا يقترب أحد من هذا المكان الخطير بالخطأ، بينما أنا في قلب هذا الخطر الأحمر.

أجريت يوم الجمعة الماضية عملية «نيفروستومي»، وتعني إدخال أنبوب إلى حوض الكلية يتولى التفريغ. هكذا أصبحت حاملًا لكيسين؛ أحدهما قادم من الكبد يمتلئ بسائل أخضر، والآخر يمتلئ بسائل أحمر، قادم من الكلية؛ حيث يختلط البول بالدماء.

كان الأخضر لوني المفضل، لكن صحبتي الإجبارية الطويلة لتلك الدرجة المقززة منه جعلتني أستاء.

هل سأكره كل الألوان؟

لكن هذه التأملات اللونية صارت آخر همومي في ظل مستجد غادر آخر: الألم.

فور إفاقتي بدأت أشعر بأحد أصعب الآلام في حياتي.

مع كل نفس أشعر بألم عميق.. عميق، فأصبحت أحاول إدخال أقل قدر ممكن من الهواء مع كل نفس؛ مما يصيبني بالاختناق المادي والمعنوي.

سألت الممرض عن الخطة المكتوبة لديه للمسكنات «الأدوية قاتلة الألم»، فقال إنها خمسة ملليجرامات من «أوكسي كودون» - أحد مشتقات المورفين - كل أربع ساعات، فقلت له إن الطبيب الذي كتب ذلك بالتأكيد لم يقرأ ملفي ليفهم وضعي. في منزلي في ظروفي العادية أتعاطى يوميًّا أضعاف هذه الجرعة، فأي جنون أن يضع لي برنامجا أقل بينما أتلوى من الألم؟!

قال إنه سيعود للطبيب لكن هذا سيستغرق بعض الوقت؛ لأنه دخل عملية أخرى.

شعرت بالرعب من غدر آخر وشيك.

كان موعد جلسة العلاج الإشعاعي المجدولة سابقا بعد ساعة ونصف بالضبط. عرفت ما سيحدث: سيتأخر التواصل مع الطبيب، وسأدخل الجلسة متألمًا لأخرج منها بآلام أكثر. قلت ذلك للممرض، فقال إنه يمكن إلغاء الجلسة فورا لو أنه ليس بإمكاني

تلقيها، لكني رفضت بإصرار. الجدول الحالي هو خمس جلسات لخمسة أيام متصلة، وحيث إني أضعت جلسة يوم الأربعاء بالفعل، فلا أريد أي تخريب إضافي للبرنامج.

لا أعرف أيهما أكثر رعبا، الغدر المفاجئ، أم الإدراك التام لسيناريو مستقبلي تعيس لا يمكن منعه.

* * *

إنه الجحيم.

بعد الجلسة كنت في آلام أكبر من أن أدركها. تأتي من كل مكان.

لكن فور عودتي لغرفتي كانت النجدة قد وصلت من طبيبي المختص بـ«إدارة الألم»، وهو إداريًّا المسئول الأعلى من الجميع بهذا الجانب. كنت قد راسلته بآخر ما بقيَ من قواي قبل الجلسة لإنقاذي عاجلًا، فوجدت أنه فعل، وأصدر أوامره بتغيير برنامجي إلى حقن تحت الجلد من «أوكسي كودون» حسب رغبتي كل ساعة، بالإضافة إلى رفع الجرعة الاعتيادية من «أوكسي نورم» كل ١٢ ساعة.

لاحقا حين التقيته سألني مازحا من خلف القناع: هل تعرف من أنا؟ قلت له: نعم، أنت الرجل الذي أنقذني.

بعدما بدأت أتمالك نفسي بصعوبة ألقيت أول نظرة على هاتفي المحمول، فوجدت رسالة من مصدر صحفي سوداني يقول: «سلام الله عليك، اليوم زلزلت السودان زلزالها».

لم أفهم ما يقصده.

ثم وجدت رسالة أخرى من الصديق الروائي حمور زيادة يبارك النشر مرفقا سكرين شوت. استوعبت ما حدث. كنت قد تحدثت مع ذلك المصدر قبل فترة طويلة، وحصلت منه على معلومات هامة مررتها لفريق سي إن إن الذي كنت قد بدأت العمل معه في تحقيق صحفي يعمل به حول تورط شركات روسية في تهريب الذهب السوداني، وبالمقابل قدمت روسيا وشركة «فاجنر» دعمًا للجيش السوداني وقوات الدعم السريع في ضرب الحراك المنادي بالديمقراطية.

كنت قد تعاونت سابقًا أكثر من مرة مع تحقيقات «سي إن إن» حول الأسلحة الأمريكية في اليمن؛ لذلك حين تواصلوا لم يكونوا يعرفون أي شيء عن حالتي، صادف ذلك وقت تحسن وحماس، أخبرتهم بالأمر لكني أكدت لهم مرارا أن وضعي جيد وبإمكاني العمل.

استغرق المشروع أشهرا، لكني في المرحلة الأخيرة لم أستكمل العمل بسبب تدهوري، ولم أعرف شيئًا عما تم، بل نسيت الموضوع تمامًا بعدما غمره الطوفان. المفاجأة أنه نُشر[1] وأحدث صدى واسعًا في السودان في ذلك اليوم الأصعب بالذات.

أخبرت حمور بوضعي الآن ففوجئ واعتذر لو كان يزعجني، فقلت له: بالعكس، أنا أشكرك، فأنت صاحب البشرى.

---

(١) Russia is plundering gold in Sudan to boost Putin's war effort in Ukraine
https://edition.cnn.com/2022/07/29/africa/sudan-russia-gold-investigation-cmd-intl/index.html

كانت إسراء بجانبي، شاهدتني لأول مرة أبتسم وأنا أقرأ. قالت: بقالي أيام أول مرة أشوف الضحكة دي.

لا أعرف بدقة ما الذي أسعدني.

لديَّ موقف نفسي مرتبك جدًّا نحو القيام بأي عمل طويل المدى، سواء كان شخصيًّا أو مرتبطًا بالشأن العام.

أعرف جيدًا قصة عازفي السفينة «تايتانيك» حين قرر قائدهم النبيل والاس هارتلي، أن يقود سبعة منهم للعزف لتهدئة روع المسافرين حتى اللحظات الأخيرة.

وجدوا جثته لاحقا بينما آلة الكمان الخاصة به داخل جرابها وملتفة حوله. لقد أدى عمله للنهاية وأراد أن تصل آلته أيضًا لمن يرثه، وهو ما حدث.

ثمة تفسيرات كثيرة حول القصة، بعضها أخلاقي أو نفسي أو ديني، مثل أن والاس كان مسيحيًّا متدينًا يرتاد الكنيسة ببلدته كولن في يوركشاير ببريطانيا التي دفن بها.

لكني شخصيًّا حين قرأت عن القصة أول مرة - قبل أن أشاهد الفيلم - فكرت أني لو كنت مكانهم ما فعلت، بل لكنت بحثت باستماته عن مكان بقارب نجاة.

لكن ماذا لو لم يكن القارب موجودا؟

فور تشخيصي قررت التركيز فقط على وضعي الصحي والنفسي، خاصة أن أكثر من طبيب طرحوا منذ البداية احتمال أن من أسباب ظهور السرطان في هذه السن المبكرة، ودون سابقة في الأسرة،

عوامل سرَّعت من التمثيل الجيني له، على رأسها الحياة الضاغطة المتوترة التي أعيشها.

لهذا أصل كيميائي بحت أيضا؛ فالمعدة تحوي مستقبلات الـ(الدوبامين) المعروف بهرمون السعادة، واضطرابه يعدان من الأسباب المؤهلة للسرطان، كما ذكرت سابقًا في الفصل الخاص بالنسيان.

في اللحظة التي سمعت فيها هذا من طبيبي الأول، نشأ جدار سميك بيني وبين أي اشتباك بالعالم.

بالتأكيد كان يمكنني جسديًّا خاصة في الفترة الأولى أن أكتب تعليقًا عاديًّا على أي حدث سياسي أو اجتماعي، أو حتى رأيي في مسرحية أو فيلم.

لكن جدارًا نفسيًّا ضخمًا انبنى ليعزلني عن العالم، وشعرت أني مرتاح لذلك.

وجدتني نفسيًّا لا أستطيع فتح بعض الرسائل الإلكترونية المرتبطة بمشاريع كنت أتولى بها سابقا أدوارا استشارية أنا حر فيها تمامًا أن أختفي وقتما أشاء أو أظهر مبديًا ملاحظة أو نصيحة.

لن يعرف أحد أني فتحت الإيميل، وبالتأكيد لديَّ وقت وصحة لإلقاء نظرة عابرة، لكني وجدتني عاجزًا نفسيًّا عن مجرد العلم بما يحدث.

عادة أجبر نفسي على ما لا أرغب، لكني كنت أتدرب قبل التشخيص على أن أستجيب لرغباتي غير المبررة، فجاء المرض ليكفل انتصارًا تامًّا لهذا الجانب في نفسي.

لأشهر كنت مرتاحًا تمامًا لهذا الوضع العقلاني.

لكن بعد العملية الكبرى في نوفمبر تحديدًا حدث لي تحول أعاد ذلك الارتباك للواجهة.

أمضيت نحو شهر لا يمكنني فعل أي شيء في حياتي إلا الأكل والشرب والإخراج.

يكاد لا يتاح وقت لأي شيء مطلقا. لا أسرة لا أصدقاء لا قراءة لا كتابة لا أفلام لا مشي، فقط حسابات وتعديلات لا تنتهي لمواعيد وكميات وأنواع الطعام والشراب وتعقيدات دخول الحمام.

شعرت بإهانة بالغة، كأني أصبحت حيوانا.

أنا الآن مجرد بقرة غبية ترعى العشب.

يتكرر في ذهني: أنا بقرة غبية.. أنا بقرة غبية!

شعور مهين مهين. لذلك بمجرد تحسني جسديًّا أقبلت بحماس على العودة لمشروع تحقيق «كريدي سويس» الذي كان قد بدأ قبل نحو عام، وانقطعت عنه بعد تشخيصي، وهكذا أغرقت آلامي في بحر من قواعد بيانات الحسابات البنكية السويسرية المسربة، وبينما أحاول منع السرطان من عبور الحدود بين أعضائي، كنت أعمل لمؤسسة «مشروع تتبع الجريمة المنظمة والفساد العابر للحدود». هو نوع آخر من السرطان على أي حال[1].

وحاولت أن أنتظم في كتابة المقالات بجريدة العربي الجديد، مركزا على عروض الكتب، بحيث أجبر نفسي على قراءة كتاب أسبوعيًّا على الأقل.

---

(١) وثائق سويسرية: «كريدي سويس» أدار ثروات النخبة العربية عشية الربيع العربي https ://daraj.com/87230

عدت بشكل مفاجئ لبعض الأعمال الإشرافية القديمة، وأمطرت الزملاء بالملاحظات التي لم يطلبها أحد.

وهكذا وافقت حين تلقيت رسالة من صديقة في «سي إن إن» تسألني لو كنت قد صادفت في عملي السابق حول الشبكات المالية لقوات الدعم السريع (نشر مع جلوبال ويتنس البريطانية، ونسخة عربية بصحيفة العربي الجديد) ما قد يفيد عملهم.

كان هذا بشكل خاص في مرحلة العلاج التجريبي ذي الأعراض الأقل.

بالتزامن بدأت في مايو زراعة الخضر والفواكه في حديقتي بجدية بالغة، وبذلت في ذلك وقتا وجهدا كبيرين.

أرسلت لمعلم قيادة السيارات الذي كنت قد بدأت الدروس معه قبل التشخيص للحصول على الرخص البريطانية، أخبرته أني أفضل وأريد مواصلة ما انقطع.

لكن وجدتني تدريجيًّا أعود لسلوكيات ما قبل المرض المدمرة لصحتي، في وقت لا يمكنني احتمال ذلك فيه أبدا.

أحيانا تعاطيت جرعات أعلى من مشتقات المورفين؛ لأني أريد مواصلة العمل بالكتابة أو الحديقة.

أحيانا سهرت لياليَ رغم أن هذا أصبح يؤثر بشدة على صحتي في اليوم التالي.

أحيانا اصطحبت اللاب توب إلى جلسة علاج أو إلى المستشفى.

شعرت بأن المسار خاطئ حين استعدت الضغط النفسي والتوتر الشديد، والمراجعة مرارًا إلى حد الهوس؛ خوفًا من أي خطأ في عملي.

فعلت ذلك رغم التأكيد من كل مَنْ تعاملت معه ألا أفعل أي شيء قد يشكل ضغطا جسديًا او نفسيًا عليَّ، ورغم غضب إسراء أحيانا. كانت في البداية تعتبر ما يحدث علامة صحية على رغبتي في الحياة الطبيعية، ثم قالت إن الأمر تجاوز الحد، وهي مع تدهوري مَنْ دفعتني للعودة مرة أخرى للانسحاب. وكذلك عدت إلى عقلي ولم أستكمل دروس القيادة للحصول على الرخصة، بعد أن وجدت فيها إهدارًا للجهد والوقت والمال.

أحيانًا كنت أجلد نفسي: ما هذا الجنون؟

لو فعلا بقيت لي فترة محدودة للغاية في الحياة، أفليس الأولى أن أركز على صحتي وعلى أسرتي؟

أليست كل دقيقة أولى بها ابني الذي بدأ يتساءل الآن: هل ستموت يا بابا؟ ماذا سيحدث لي لو توفيت أنت وماما؟

لكن أحيانًا كنت أشعر بالسعادة، خاصة حين أحقق «بعدًا رساليًا» في عملي.

حين أجد أمامي حسابات أبناء مبارك ورجاله وأقرانهم العرب، وأشعر بالمسئولية عن الدفع لنشر معلومة أو تفصيلة لم يكن سيلحظها المحررون الأجانب.

أو حين أحدث ذلك الشخص السوداني الشجاع الذي سُجن ودفع ثمنًا غاليًا لتصديه للفساد. وضع هذا الرجل النبيل حياته على المحك،

فإذا كان بيدي أن أساعد على نقل صوته فهل يجوز لي التأخر لأن حياتي أيضا على المحك بطريقة أخرى؟

منذ زمن طويل كففت عن التأثر بالخطابيات، بكل ما هو مثالي وشعاراتي.

أنفر من الأغاني الوطنية كلها.

لم أشاهد أي مقطع عن الثورة المصرية على الإطلاق منذ سنوات بعيدة، ولا أكتب شيئا في ذكراها.

حين تصادفني كتاباتي القديمة بمرحلة ٢٠١١-٢٠١٣ أجدني أنفر من بعض المقاطع ذات الخطاب الحماسي الحالم، كأني الآن غيري.

لكن أجدني أحيانا أفعل دون أن أتكلم.

أهذا هو «تشاؤم العقل وتفاؤل الإرادة» اللي بيقولوا عليه،

أم كل هذا التأرجح هو مجرد تذبذبات نفسية، متأثرًا بحالتي التي تتأرجح بدورها بين الأمل واليأس، بين الحياة والموت، أم ربما يلعب أيضًا التأثر «بالكيمياء» دورًا مهمًّا؟ أحيانا أكون في قمة الإحباط والاكتئاب، يهاجمني البكاء، أوقن بالموت القريب، عاجزًا عن مجرد التحرك من السرير، وتهاجمني آلام في كل مكان، عاجزا عن التنفس. أتعجب من حالتي المنهارة فجأة، ثم أنتبه إلى أني نسيت تناول جرعة «أوكسي كونتين» في موعدها على رأس الساعات الاثنتي عشرة بالضبط. أتناولها فيتبخر كل شيء خلال دقائق. لم يعد تسكين الألم وحده هو اسم اللعبة، بل هذه تحديدًا أعراض الانسحاب حين لا يتلقى المدمن الجرعة.

لكني كلما تحدثت عن هذه المخاوف مع أحد الأطباء قال لي إن هذا آخر ما يمكن أن يقلق بشأنه شخص في حالتي.

يشدد طبيب «إدارة الألم» على أني يجب أن أتلقى جرعات المسكنات في موعدها سواء شعرت بالألم أم لا، وأن الحفاظ على عدم نشأة الألم من البداية هو الهدف المطلوب. قام الرجل بفتح الكميات إلى حد شبه مطلق، أنا فقط مَنْ أحدد ما أحتاجه بالضبط وسيصرف لي فورا.

أحاول تجاهل المعنى المضمر: أنت ستموت قريبا، فلا تقلق من الإدمان!

بالأمس الثلاثاء أجريت عملية ثانية (أو الثالثة في شهر، أو السادسة منذ التشخيص)، تم تركيب دعامة للحالب لضمان فتحه، أدى هذا لتحسن فوري اليوم في شعوري بالألم وفي قدرتي على التنفس.

رغم أني أبول دمًا أحمر كلون بذلتي التخيلية، لكن الطبيب قال إن هذا طبيعي في البداية، المهم أني أشعر بهذا التحسن، والأهم أن نتائج فحوصي تقول إني مؤهل للحصول على جلسة الكيماوي غدًا الخميس. يا له من (خبر سعيد)!

وهكذا بدأت منذ الصباح في صياغة وتجميع هذا النص الطويل الذي كُتب مبعثرا عبر الفترة الماضية.

ومتأثرًا بدفعة التفاؤل والتحسن عدت للتفكير في أنه يجب عليَّ التركيز في مشروع هذا الكتاب الذي أريد نشره في أقرب وقت في حياتي، لا أن يُجمع بعد موتي، كما حدث لكتاب «سأكون بين اللوز»

الذي جمع كتابات الكاتب الفلسطيني حسين البرغوثي في أثناء مرضه بالسرطان.

لكني لا أعرف لو سأفعل هذا فعلا.

لو سيسمح جسدي، وستسمح نفسي، وسيسمح عمري قبلهما.

مؤخرًا قمت بمكالمة طويلة مع طبيب أردت استشارته بشأن خيارات الأدوية لو فشل العلاج الحالي، فوجدته يهمل تماما ذلك الجانب، ويتحدث فقط عن المسكنات وإمكانية تحسين الأكل ونحوها. قلت له بصراحة: أنت لا تكلمني عن الأدوية بل الأعراض، وأنا أفسر ذلك بأنك ترى حالتي ميئوسة وتريد فقط تحسين ما بقيَ منها، فقال لي: أنت أصلا طبيب وتعرف أرقامك، فلا حاجة لأن أشرح لك ما تفهمه.

لكني رغم علمي التام بذلك أغلقت الهاتف شاعرًا بصدمة بالغة، لم أفهم سببها. شاهدتني إسراء حزينًا جدًّا فسألتْ عما حدث، فأخبرتها، فطلبتْ ألا أخوض ذلك النوع من المحادثات مرة أخرى. للمرة الأولى وافقتها.

رغم أني أتعامل بجدية تامة مع تقديرات الأطباء والإحصاءات، وبموجبها أرتب كل ما يخص رحيلي. كتبت وصيتي، سلمت كلمات السر لإسراء، رتبت الشئون المالية وحضانة يحيى قانونًا، بل أحيانا جلسنا إسراء وأنا لنناقش مزايا وعيوب أن أدفن في إنجلترا أم مصر كأنه شأن عادي جدًّا. قالت فجأة: إنت واخد بالك إيه اللي إحنا بنقوله ده!

رغم كل ذلك، يبدو أن جزءًا مني يتمسك بشدة بأمل كبير أن كل هذا سينتهي، ستتدخل يد ما طبية أو إعجازية لإنقاذي في اللحظة الأخيرة، وهكذا تتجدد الصدمة التي يفترض أني تجاوزتها.

وهكذا يجرب عقلي الواعي والباطن حيلًا مختلفة للتعامل مع ذلك الازدواج؛ منها تذبذب موقفي نحو أي مشاريع طويلة المدى التي تعني ضمنيًّا طول الأمل، وكل ذلك يتم تحت الأثر المشوش للكيمياء، وتحت أثر تذبذب وضعي الجسدي.

لا أعرف.

فقط أعرف أن الواقع الحالي كتوصيف بحت هو أني ببذلتي الحمراء أنظر إلى سفينتي تغرق. تهبط ببطء لكن باستمرار، ولا شيء يسد الثقوب المتزايدة.

أحيانا أستسلم تماما للغرق، وأحيانًا، فجأة، أجد يدي «تعزف»..

أبنائي الخُضر

يروي لنا حديث نبوي قصة رجل من أهل الجنة استأذن ربه في أن يمارس الزراعة، فقال له الله: «ألست فيما شئت؟!»، أي أنك بالفعل تحظى بمزروعات لا نهائية في جنة فيها «فاكهة ونخل ورمان»، «قطوفها دانية».. إلخ.

لكن الرجل يرد: «بلى، لكني أحب أن أزرع».

فأذن له الله، فغرس الرجل البذور، فنمت زروعه سريعا «كالجبال».

لكن القصة أثارت استنكار أحد المستمعين. كان أعرابيًّا، أي بدويًّا من سكان الصحراء، علق قائلًا: «والله لا تجده إلا قرشيًّا أو أنصاريًّا؛ فإنهم أصحاب زرع»، فضحك الرسول.

الدلالة الاجتماعية هنا أن بعض العرب قد وجدوا قبل قرون متعة خاصة في عملية الزراعة نفسها، لا مجرد القيام بها كمهنة للحصول على الناتج. ولعل هؤلاء هم من يخاطبهم القرآن حول المعنى الجمالي للزراعة، فيذكرهم أن من نعم الله «حدائق ذات بهجة»، «وأنبتنا فيها من كل زوجٍ بهيج».

لكن إدراك هذا المعنى يتطلب قدرًا من الشعور المرهف الذي يصله الإنسان بعد تأهل ثقافي وحضاري، كما في أهل المدن؛ مكة ويثرب، بينما لا يدركه «الأعراب» الموصوفون مرارًا في القرآن بصفات الغلظة والجلافة.

الأعراب الذين هم «أجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله»، هم أيضًا أجدر ألا يفهموا متعة الزراعة.

على جدران المقابر الفرعونية في الأقصر وأسوان رأيت عشرات المشاهد التي تخلد مراحل الزراعة وأنواع النباتات، وبالمثل في آثار الآشوريين التي شاهدتها في المتحف البريطاني وفي متحف المتروبوليتان الأمريكي.

في قصور الحمراء بغرناطة في إسبانيا وقفت طويلًا أتأمل الزخارف النباتية الكثيفة المحيطة بتكرار عبارة «لا غالب إلا الله» على الجدران، وفي زيارة لسوريا قبل الدمار العظيم اتسعت عيناي لمشهد فسيفساء «غوطة دمشق» الخضراء على جدران المسجد الأموي.

أرى في تلك الأعمال، منذ الفراعنة إلى الأمويين، ما هو أكبر من تسجيل لقطة تاريخية. إنها تطفر بمشاعر الفخر والحب من البشر نحو رفاق الحياة الخُضر، وكذلك تحمل الشكر للإله، ورجاء منه أن يستمر التمتع بتلك الجنان في العالم الآخر. رسالة خالدة من الأرض إلى السماء.

بينما ذاك الرجل من أهل الجنة حمل الرسالة في الاتجاه المقابل، أراد استعادة الزراعة الأرضية ليتذوقها كمتعة سماوية أيضا..

* * *

١١ مايو ٢٠٢٢

قررت أن أبدأ رسالتي الخضراء.

كما حكيت سابقًا كانت الفكرة تلح عليَّ منذ حضرت تدريبا بكلية بيركبيك - جامعة لندن، حول تغطية مناطق النزاع، حين استمعت للصحفية ليندسي هيلسم تروي ذكرياتها مع صديقتها الراحلة الصحفية ماري كولفن التي قُتلت في سوريا عام ٢٠١٢. ذكرت كيف ساعدت الزراعة كولفن على تجاوز اكتئاب حاد أصيبت به بعد فقدها لإحدى عينيها وزوجها.

أكد كلامها أيضا جيلس دولي، وهو مصور صحفي إنجليزي فقد كلتا قدميه وذراعه اليسرى في انفجار لغم في أفغانستان.

كنت سابقا قد نجحت في زراعات بسيطة كالنعناع، وبدأت محاولة زراعة الفلفل، لكنه مات بعدما أهملته بسبب غرقي في بحر الأهوال السرطانية. أما الآن فأنا عازم على انطلاقة جادة، تتزامن مع انتفاضة نشاط بمختلف أصعدة حياتي؛ ربما تفاؤلًا أو إنكارًا، أو حتى لمجرد تأثيرات كيميائية على مزاجي بسبب تغير الأدوية.

بعد قراءة مطولة وجدت أني أحتاج استدعاء عمال لإجراء تأهيل ثقيل لحديقتي، يشمل إنشاء حوض مزروعات (مساحة مسورة بالخشب تُملأ بالطمي بمستوى أعلى من الأرض)، ووضع قواعد أسمنتية للسور الخشبي ليحتمل وزن التربة الإضافية، وغيرها من تفاصيل.

مترددًا استأذنت إسراء في أن أنفق قسمًا كبيرًا من مدخرات كنا قد اتفقنا سابقا على عدم لمسها كاحتياطي إستراتيجي في ظل

الظروف العصيبة التي تمر بها الأسرة، فوافقت دون لحظة تردد. جمائل إسراء لا تنتهي.

* * *

٢٢ مايو ٢٠٢٢

ملأت السيارة بالشتلات حتى كاد يحيى يختفي بينها. جميلٌ وجهه المبتسم وسط الأخضر.

فضلت الشتلات لا البذور لأني أحتاج دفعة معنوية سريعة ونجاحًا ما، وهكذا تعرفت على «مراكز الحدائق» garden centres، وهي مشاتل واسعة بكل حي في لندن يمكن للمواطنين شراء البذور والشتلات والأسمدة منها، وكذلك بعض المنتجات الزراعية المحلية وأثاث الحدائق ونحوها.

بدأت دراسة معمقة للمقارنة بين تلك المراكز، وخصصت يومًا كل أسبوع لزيارة مركز مختلف.

تدريجيًّا تتوسع مزروعاتي، وتتزايد معها مراكمتي المعرفة حول ما يحتاجه كل نبات من درجة حرارة ومغذيات وتعامل مع الأمراض.

استعنت أيضًا بشراء تطبيق على الهاتف يمكنه التعرف على النباتات وتشخيص مشاكلها واقتراح الحلول، اسمه Picture me.

قررت زراعة أنواع متعددة وكميات قليلة؛ لأزيد من فرص النجاح، وكذلك فرص التعلم العملي.

زرعت من الخضر: طماطم (أربعة أنواع)، خيارًا، فلفلًا، خسًّا، بصلًا (نوعين)، بطاطس، باذنجانًا، فولًا أخضر، ذرة.

ومن الفاكهة: فراولة، التوت الأزرق (بلوبيري)، ليمونًا.

ومن الأعشاب: نعناعًا، شبتًا، روزماري، ريحانًا.

ومن الزهور: لافندر، داهليا، بيتونيا، فيربينا.

حتى تلك اللحظة كنت أجد في الأمر متعًا أعرفها وأتوقعها.

متعة أن يكبر إنجازك أمام عينيك.

متعة الاستغراق في تفاصيل البحث والتعلم والعمل، حتى تنسى كل شيء آخر.

متعة المساهمة في قضية كبيرة جدًّا بأثر ضئيل جدًّا. نباتاتي تساهم بأثر الفراشة في محاربة التحول المناخي والاحتباس الحراري.

كما أني أقوم بتخفيض «البصمة الكربونية» غير المباشرة الخاصة بي، وهو أمر يشغل بالي باستمرار، فأتعمد قدر الإمكان بكل بلد أن أشتري منتجه المحلي؛ لعدم التورط في التلويث بوقود طائرات الشحن التي جاءت بالسلع المستوردة، والآن حين أحصل على منتج من حديقة منزلي فقد وفرت أيضًا وقود شحن داخلي.

ثم وُلدت مشاعر أخرى..

...

١٣ يونية ٢٠٢٢

كنت قد غبت عن حديقتي لأيام بسبب تدهور صحي، وحين عدت وجدت بعض نباتاتي قد كبرت وسقطت فروعها أرضًا.

اشتريت دعامات متنوعة، وبدأت وصلها بالنباتات بأربطة خضراء.

بينما أقيم شجيرات الخيار والطماطم، انبثق فجأة شعور أبويّ غريب. تذكرت حين كنت أعلم ابني يحيى الوقوف والمشي. ها أنا الآن أعلم أبنائي الوقوف. شعرت بحنان بالغ بينما أرفع السيقان والأغصان بحرص، أفصل بينها وأرتبها بدقة، وأثبتها في الدعامات بحرص، بحيث لا تتداخل وتحصل على أفضل مساندة ممكنة.

تأثرت للغاية بشعور أن أبنائي يكبرون ويعتمدون على أنفسهم بفضل مساعدتي.

سيقانهم المهتزة تذكرني بسيقان يحيى التي كانت مهتزة أيضا، ثم تدريجيًّا زال الاهتزاز وصار يقف دون مساعدتي.

تذكرت أن مشاعري نحو ابني نفسها انبثقت متأخرًا أيضًا.

بالطبع أحببته منذ اليوم الأول، لكن لم أشعر بشرارة الشغف الأبويّ هذه إلا بعد نحو عام، حين أصبح كائنًا متفاعلًا معي. قبلها حين كان ينام كنت أطلب من إسراء ألا تكلمني عنه، لننتهز الفرصة لوقت خالٍ منه؛ كي لا يلتهم حياتنا، لكن بعدها أصبت أنا أيضا بذات شغفها، فهمت أن متعة الحديث عن ابني في غيابه تضاهي متعة ملاعبته في حضوره.

ومع الفارق أصبحت مصابًا بشغف نباتاتي أيضا.

أرسل صورها لأصدقائي وأسرتي، وأحكي لهم عنها.

أتبادل الخبرات مع المزارعين الآخرين.

أصطحب كل من يزورني في جولة سياحية، تتضمن حكي آخر المغامرات، وأمنحه بعضًا من الثمار أو الأعشاب حسب المتاح.

وكلما زادت معزة الضيف، ازددت في منحه بعضًا من أبنائي، كأني أمنحه بعضًا مني.

قلت ليحيى: هل تعرف؟ أنت الآن لك إخوة وأخوات. هذه النباتات إخوتك.

قال محتجًّا: لااااا، أنا ابنك الوحيد.

* * *

١٧ يونية ٢٠٢٢

يزداد شغفي بنباتاتي، وكذلك تزداد آلامي..

تتفاقم أعراض التهاب الغشاء البلوري كأحد آثار عقار «بيمبروليزوماب». أصحو كل ساعتين تقريبا مصابًا بضيق في التنفس، وآلام في صدري، وجفاف في حلقي.

اكتسبت عادة شبه يومية. بمجرد ظهور أول ضوء للشمس أذهب للحديقة، أتفقد أطفالي، وأمارس تمارين التنفس قربهم حتى أتحسن بما يسمح بمحاولة معاودة النوم.

هل تشعرون بي يا أبنائي؟

ثمة أبحاث عديدة حول مدى قدرة النباتات على الإدراك والمشاعر، واحد من أشهرها ـ على سبيل المثال ـ وجد أن النباتات

تنمو بشكل أفضل في أجواء الموسيقى الهادئة، بينما يتباطأ نموها في ظروف الضجيج.

لكني بالغت أحيانا. مشاكل المفاصل تتزايد. أعرج كي أخرج للعمل في الحديقة ثم تناديني إسراء بحزم، فأكتشف أن ثلاث ساعات قد مرت دون أن أحس!

لا أشعر بأي تعب في أثناء العمل، لا أعرف إن كان ذلك بفضل التأثير النفسي أم بفضل الدواء المسكن، لكن بمجرد خروجي من موقع العمليات تصيح عظامي وعضلاتي ومفاصلي. يبدو أنه حان الوقت لوضع بعض الحدود، لكني فعلا لا أشعر بالوقت فور وضع قدمي بالحديقة.

بالبحث عرفت أني لست فريدًا من نوعي.

أظهرت دراسات عديدة فوائد ممارسة الزراعة لمرضى السرطان نفسيًّا وجسديًّا.

أدرجتها «ماكميلان» و«ماجيز»؛ المؤسستان الأهليتان البريطانيتان العريقتان في المجال، ضمن برامجها لدعم مرضى السرطان، لكن ذلك مع إجراءات احترازية عديدة بطبيعة الحال، لم ألتزم بها كلها.

شاهدت تقريرًا على «سي إن إن» الأمريكية[١] حول بحث أجرته جامعة إريزونا؛ حيث تم تخصيص ٢٥ حقلًا للزراعة الجماعية لمرضى السرطان بمراحل متقدمة، وتحدثوا جميعًا عن فوائد ذلك لهم.

---

(١) Cancer patients use gardening for physical & mental health
https://www.youtube.com/watch?v=x8OKVhaiD1M

وعلى موقع «مخطَّطِ الحديقة الوطنية» قرأت عبارة قالتها مريضة سرطان بريطانية : «إن رؤية دورة حياة الطبيعة، وكيفية تكيف النباتات مع محيطها، تساعدني على إدراك أن العالم يحتوي على ما هو أكثر من مشاكلي المباشرة».

* * *

٢٠ يونية ٢٠٢٢

في كتابه البديع «سأكون بين اللوز» يحكي الكاتب الفلسطيني حسين البرغوثي عن مشاعره في أيامه الأخيرة بعد إصابته بالسرطان.

بعد طواف طويل حول العالم ترك كل شيء عائدًا إلى جذوره؛ حيث قريته في الضفة الغربية، وسط أشجار اللوز التي زرعها والده في الأربعينيات.

احتفظ بلياقته الذهنية حتى اللحظات الأخيرة. حكى الشاعر محمود درويش أنه قبل رحيله بأيام فقط سأله: هل الجماليّ في الشعر يحدّ من الرؤية؟ هكذا «مات البرغوثي وهو يناقش».

حين عدت للكتاب أدهشني كم يكتبني في مواضع عدة، ومنها اندلاع شغفه الزراعي.

يقول:

«كنت أعتقد بأنني سأموت في خلال سنة أو سنتين، عندما مرضت، ولا بيت لزوجتي وابني بعدي. وبدأت أحلم ببناء بيت بسيط لهما في الريف حوله تراب أحمر، وسياج من خشب ناشف،

وحديقة صغيرة... وفي الربيع، في صباح بارد، والندى فوق العشب، في أول الصبح، أنهض وأقطف بصلا، وثوما، ونعناعا، وليمونا، وأصنع بيدي صحن «سلطة» لآثر وبترا، أصنعه بيدي أنا، هذا شرط. كل الفكرة هنا. ثم أوقظ آثر وأمه، ونقعد على طاولة خشب بدائية، أو في فيء زيتونة، ونأكل معا، هذا سيكون احتفالي بالحياة: صحن سلطة».

«التفاصيل هي السر، التفاصيل الآن، لا ما مضى أو سوف يأتي، بل صحن سلطة، وقفة تحت سماء زرقاء إلى هذا الحد، قطة تلعق مخالبها قربي، وآثر يلعب بالتراب.

هذا هو كل ما أريد. هل تصغر الأحلام إلى هذا الحد أيضا؟ السرطان رسام يجعل التفاصيل الصغيرة مرئية..».

* * *

٢٩ يونية ٢٠٢٢

ما هذا الذي يحدث في مصر؟

شاهدت صورًا التقطها شخص يسكن في زهراء المعادي للمشهد في شارعه؛ حيث انتزعت الجرافات الأشجار العريقة من جذورها.

أصبحت أحاول تجنب مجموعة «أشجارك يا مصر» وغيرها من الصفحات الناشطة بمجال توثيق المذبحة المستمرة ضد أشجار الحدائق والشوارع، خاصة في أحياء شرق القاهرة مثل مصر

الجديدة ومدينة نصر. لا أفهم فعلا هل هي سياسة متعمدة ربما لتوفير المياه، أو لأغراض أمنية كي لا يخفي أحد قنابل بها مثلا، أم هي مجرد صدفة حيث لا يدرك موظفو الأحياء وكذلك كثير من السكان أي فائدة جمالية أو عملية للنباتات، ويفضلون عليها الأسمنت والرخام على سبيل «التطوير».

أعي تمامًا أني هنا في لندن أحظى بمزايا عديدة في هذا الجانب. مجرد وجود كل هذه الحدائق المجانية حولي. قدرتي على الزراعة في حديقة منزل للطبقة الوسطى، بل إن الأحياء توفر خدمة «ألوتمينتس» Allotments، أي قطع أرض زراعية صغيرة للإيجار بسعر رمزي. مثلا إيجار قطعة أرض مساحتها ١٢٥ مترا مربعًا هو حوالي ٤٦ جنيهًا إسترلينيًّا في السنة.

الفاعل الرئيسي في تلك المنظومة ليست الحكومة المركزية بل المجالس المحلية المنتخبة، والممولة بشكل منفصل بضرائب عقارية «كاونسل تاكس»، تلقيت مطلع الخريف الماضي رسالة من المجلس المحلي لمنطقتي يستعرض أنشطتهم، وضمنها تخصيص عمال وآليات لجمع الأوراق المتساقطة من ٥٥ ألف شجرة في الحي.

لكن ندرة المياه والخضرة في مصر تجعل من المفترض أن يكون تقديرها أكبر. والأشجار كما تستهلك المياه فهي تحافظ عليها أيضا عبر خفض تبخر المسطحات المائية، وأيضًا عبر دورها في حفظ المياه بالتربة، وكذلك دورة الأمطار الطبيعية. شاهدت فيلمًا وثائقيًّا بعنوان «قبلوا التربة» حول تلك الجوانب Kiss the soil.

لكني أفيق على تعليقات تحتفي بوضع الرخام مكان حديقة مسجد الحسين. كيف ترعرع في وادينا الطيب هذا القدر من «الأعراب»؟

أعرابي تبول في المسجد، وآخر جذب الرسول صائحًا: «اعدل يا محمد»، وثالث يستنكر أن يطلب من بالجنة الزراعة من الله.. وأعرابي مصري معاصر يحتفل بتجريف الأشجار في شوارع القاهرة.

* * *

٥ يولية ٢٠٢٢

تذكرت «أرض النخلات».

كان جدي لأبي - رحمه الله - يمارس بحرص تقليدًا عائليًّا متوارثًا، وهو تسمية نخلة باسم كل طفل جديد يولد في الأسرة، ويتجاور هذا النخل في قطعة أرض بقريتنا اسمها «أرض النخلات».

هكذا كانت تنطق جدتي - رحمها الله - كل شيء بجمع المؤنث السالم. «هات العيشات» (جمع العيش)، «حلبنا اللبنات» (جمع اللبن).

وهناك كانت نخلتي؛ نخلة محمد، ونخلة باسم كل شخص من أشقائي وأعمامي وأبناء أعمامي، وفي موسم الحصاد قد تحدث منافسات. بلح نخلة محمد أفضل، أم بلح نخلة معاذ؟ إلخ. تُوفِّيَ جدي وانقطعت معه العادة. بالتأكيد شاخت نخلة محمد كثيرًا اليوم.

في حديث نبوي يشبه الرسول المؤمن الصالح بالنخلة، وهو ذات التشبيه في مزامير الكتاب المقدس «الصديق كالنخلة يزهو كالأرز في لبنان».

كانت أرض أسرتنا صغيرة المساحة؛ لذلك يزرع أغلبها بمحاصيل مخصصة لإطعام الحيوانات، ورغم ذلك ظلت دائما مساحة مخصصة للزراعات المنزلية، والتي تملأ قلبي بشعور «الخير» أيًّا كانت كميتها الرمزية. الوقع النفسي لألوان الرمان أو رائحة الجوافة، وليس القيمة المادية لعدد الكيلوجرامات.

ذات يوم كنت طفلا أشاهد جدي منحنيا في الأرض على الناحية الأخيرة من الطريق، ثم رفع رأسه ليناديني. لا أعرف ما الشيء السخيف الذي جعلني أتظاهر بأني لم أسمعه لأني لا أريد عبور الطريق إليه، ثم غادرت المكان. فوجئت بعد قليل به هو من عبر الطريق وجاء باحثا عني؛ ليمنحني بضعًا من ثمار «الفول السوداني» في مرحلة ما قبل النضج.

كانت طرية جدًّا ومذاقها جميلًا.. جميلًا، طاردت ذلك المذاق لسنوات طويلة لاحقة، بحثت عنه في كل مكان، ولم أذق مثلها قط.

كالعادة مع الذكريات لا أعرف أهي كانت رائعة إلى هذا الحد فعلا، أم أن المسافة مثل حدادين ممتازين، تصنع من حديد تافه قمرا.

لا، بل هو كان حقًّا قمرًا. قمرًا أخرجه من جيب جلبابه ليمنحه لحفيده.

هل منحت ابني قمرًا، أم لم أفعل؟

* * *

٨ أغسطس ٢٠٢٢

انقطعت لأكثر من شهر عن نباتاتي.

تم حجزي بالمستشفى لأسبوعين، ثم عدت للمنزل لنحو أسبوع، ثم تم حجزي أسبوعين آخرين.

في أول انقطاع كان تغير النباتات مفاجئًا ومبهجًا. كأن ابني فجأة أصبح «طولي»، أو كأن ابنتي فجأة «كبرت وبقت عروسة».

أحاول فهم التعامل معهم في أحجامهم وأشكالهم الجديدة.

لكن بعد الانقطاع الثاني الحاد أصبح الأمر أكثر غرابة.

لم أعد أفهم سلوكهم. لم أتصور أن الذرة يمكن أن تنجح فعلا في الإنبات رغم حاجتها لطقس أكثر حرارة. لم أعرف أن الفول الأخضر تظهر بقمته زهور حمراء، كما أن الخس تضخم إلى حد أنه فسد وكان يجب حصاده مبكرًا.

تذكرت صديقًا قال لي أن أتوقع شعورًا بالغربة الشديدة إذا سافرت إلى مصر الآن. الانقطاع يخلق الغربة، وحقًّا «بعيد عن العين بعيد عن القلب»، ليس بمعنى فقد الحب، بل بمعنى فقد الاتصال والفهم.

تزامنت غربتي عن نباتاتي مع إحباطي من فشل الدواء التجريبي وبدء برنامج جديد. صحيح أن قدرتي على الحركة أفضل نسبيًّا بعد زوال الالتهاب البلوري والتهابات المفاصل، لكن ظهرت باقة أعراض أخرى، وكل شيء آخر أسوأ.

أحاول استعادة مسار العمل في الحديقة كما كنت فأفشل، احتجت مساعدة من شقيق زوجتي الذي كان يزورنا لحسن الحظ.

عموما الأعمال الأصعب كانت في البداية وقد انتهت بالفعل، والآن أبنائي أصبحوا كبارا ناضجين، أكبر مما توقعت بكثير، تجاوزوا مرحلة التدليل.

كنت قد حاولت مواجهة التكدس بأن انتزعت بعضهم برفق لكن بحزم من جذورهم، ووضعتهم في أصص أهديتها لأصدقاء ليتبنوهم مكاني.

لكن التضخم مستمر. خرجت النباتات من الحوض لتملأ ممر الحديقة.

الآن وقت التقويم، وبعض التضحيات. أعدت بعض الفروع قسرًا للداخل، استعنت بحبال وشباك ودعامات، وقطعت بعض الامتدادات مع مراعاة تخفيض وزن الفروع الحاملة للثمار، وتجنب الفروع الحاملة للأزهار. مؤلم مشهد اضطراري للتخلص من تلك الفروع الخضراء الزاهية.

لكن أزعجني بشدة مشهد أذرع الخيار الممتدة لتخنق الباذنجان، وكذلك فروع الفول الأخضر المتسلق امتدت حول الذرة. هكذا اضطررت للفصل بينهم بالرفق أحيانا، أو بقطع الأذرع بقسوة أحيانا أخرى.

آسف يا أبنائي لكنه لمصلحتكم جميعا.

آسف يا أبنائي لكن هذا ما أستطيعه الآن.

* * *

١٢ أغسطس

لا يعرف أحد أبدًا ماذا سينبت بالضبط حين يلقي البذور.

ولا يعرف أحد أبدًا إلى أي مدى سيعيد النبات استيلاد نفسه، سواء في مكانه أو بعيدًا جدًّا عبر حبوب اللقاح والحشرات في دورات قد تستمر قرونًا وتطوف العالم!

ثمة بذور طيبة وبذور خبيثة، وكلتاهما أثرها لا نهائي. أتحدث عن البذور النباتية والبشرية أيضًا.

اليوم حاول شخص معتوه اغتيال الكاتب سلمان رشدي؛ بسبب بذرة خبيثة ألقاها الإمام الخميني قبل ٣٤ عامًا، ظلت كامنة عبر التاريخ، لتظهر فجأة بعد عقود من موت من بذرها.

الكلمة كالبذرة، لا يمكن إدراك مداها فور انطلاقها.

كم من أبرياء قُتلوا في سوريا والعراق واليمن وغيرها من بلادنا على يد بذور طائفية خبيثة، بعضها يجوب أرضنا منذ قرون.. وكم من بشر أنقذت حيواتهم بذور خير ممتد، من أبسط الأمور كحفر بئر في قرية، وحتى أكبرها كمؤسسة «بيل جيتس» ذات الميزانية المليارية التي دعمت إنتاج لقاح فيروس كورونا.

يقول حديث نبوي: «إذا مات ابن آدم انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». الثلاثة يحملون معنى الغرس الذي يستمر إثماره وانتشاره لأجل غير محدود.

حين أتأمل حياتي أجدني أحيانا غَرَست، وأحيانا غُرِست.

غرسني أهلي، ثم أساتذتي، وأنا لهم شاكر. وأنا غرست ابني يحيى. كلي شوق لأعرف ما سينبته في المستقبل، لكني لن أكون هنا لأراه غالبا.

غرس الأطفال مذهل في احتمالاته اللا نهائية. لم يعرف قط والدا الطفل ألكسندر جراهام أن غرسهما سينقذ حياة الملايين باختراع المضادات الحيوية، كما لم يعرف قط والدا الطفل هرنان كورتيز أن غرسهما سيتسبب في إبادة الملايين من سكان أمريكا الأصليين.

غرس العلم أيضًا لا نهائي.

في مراحل عدة من حياتي دربت صحفيين أصغر مني؛ بعضهم عرفته وهو طالب مبتدئ في كلية الإعلام. شهدت كيف تطوروا بشكل مبهج، حتى صار بعضهم ملء السمع والبصر. أنا ممتن لو كان لي أدنى دور في هذا الغرس الذي أنبت هذا النبت الرائع!

ساهمت أيضًا في غرس مشاريع عدة، وكم أسعد حين أنقطع لأشهر أو سنوات ثم أجد «الآلة» دائرة بدوني مع احتفاظها بآثاري. تتغير الوجوه والأشكال، لكني أجد أثر السياسة التحريرية التي ساهمت في كتابتها أو هذا الأسلوب الذي صغته.

الغرس لا يتطلب قدرات خاصة. قد يكون كلمة واحدة فقط لا أكثر، لكنها «كلمة طيبة كشجرة طيبة».

أتمنى لو كانت بعض كلماتي طيبة، وقد انغرست في أماكن لا أدري عنها شيئًا، وقد تلامس فروعها السماء يوما ما.

* * *

١٨ أغسطس ٢٠٢٢

فصل الخريف يبدأ. أغلب مزروعاتي مرتبطة بموسم إبريل - أكتوبر، بعدها أغلبها سيدخل في طور الكمون دون إثمار، وبعضها لا يمكنه الحياة تحت درجة ١٠ مئوية.

أفكر فيما لو كنت قد بالغت فعلا، ولم يعد بإمكاني الوفاء بمتطلبات كل هؤلاء الأبناء.

لست متأكدًا هل أبدأ زراعة المحاصيل الشتوية، أم أكتفي ببعض إجراءات الحماية للحفاظ على النباتات الحالية حتى العام القادم.. هل سأكون هنا العام القادم؟

ذات يوم أهدتني صديقة ثمار تين من شجرة في منزلها قالت إنها استغرقت خمس سنوات كي تثمر لأول مرة. رغم شاعرية فكرة أن أغرس ليأكل من يأتي بعدي ويتذكرني، لكني رفضتها لأني أعرف جيدًا كيف أرى الجوانب غير الشاعرية: تخيلت إسراء وهي حائرة في كيفية التخلص من أوراق الشجرة المتساقطة على العشب والمختلطة بالطين في أثناء أمطار الخريف.

ثم إني لست متأكدًا تمامًا من إيجابية أو سلبية الأثر النفسي لكون ذكراي حاضرة أمام العين بشكل دائم.

سألت إسراء لو كانت ستواصل الاعتناء بنباتاتي لو توفيت هذا العام، فقالت إنها ستفعل طبعا، لكني قلت لها إنها حرة في اختيار مصير النباتات والمنزل أيضًا. (حرية نسبية، فمصير المنزل تحكمه عوامل مادية أخرى بطبيعة الحال..).

ذات يوم سألني ابني سؤالًا فلسفيًّا: لماذا نقتل الحيوانات ونأكلها؟ هذا ليس عدلا not fair استلهمت شخصية موفاسا في فيلم الأسد الملك وقلت له: حين نموت يتحول جسدنا إلى أعشاب، تأكلها البقرة التي نأكلها، وهكذا كلانا يأكل الآخر في دائرة الحياة.

اقتنع هو بعدالة ذلك، لكني أعرف أني غير صادق.

أجسادنا توضع في مقابر لا تتحول عادة لنباتات. ثمة مقابر في مصر باقية منذ أكثر من ألف عام دون أي تغيير.

ثم هل يبلغ إخلاصي البيئي هذا الحد؟

في ثقافات أخرى يتم حرق جسد المتوفى، واستخدام رماده لزراعة نبات يبقى كذكرى. هذه الشجرة في الحديقة، أو هذه الورود في الأصيص هي جسد والدك. هل هي فكرة شاعرية، أم مقبضة؟

وجدت شركة تعرض طريقة للدفن أسفل جذوع شجرة، لن يتم استخدام الرماد، بل الجسد كله يوضع في نسيج عضوي يشبه البيضة، وتُجرى عليه عملية التحلل البطيئة كأي نسيج عضوي.

قديما آمنت تماما بأنه «لا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها»، لم أهتم قط بمسألة مكان الدفن وطقوسه، لكن الآن صحت جينات قدماء المصريين داخلي. أريد مدفنًا باقيًا، ولا أريد أن تلتهم النباتات جثماني بل أريدها حولي.

يقول القرآن ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾، وهكذا فإن الدفن يعيدنا إلى منشئنا الأول.

لكن لا تهمني شاعرية «النعش المغطى بالبنفسج»، بل يهمني ما سيبقى معي بعد مغادرة المعزين. فكرت بأن هذه ميزة نسبية للدفن هنا، المقابر في لندن خضراء بعكس مقابرنا في مصر، لكني لا أريد أن أدفن بجوار من ينطقون بلسان غريب عني.

أتمنى أن يمكن زراعة نباتات حية تبقى طويلًا قرب قبري مع أسرتي في مصر. أريد جمع الحسنيين. فليؤنسني أهلي والأخضر معًا.

أنتبه لاستغراقي في تفاصيل سيناريوهات ما بعد الوفاة، وأفزع من فكرة أني حين أستغرق تمامًا في خيال ما فإنه يتحقق فعلا. أنتزع نفسي قائلا: لعله أن يكون بعد عمر طويل.

* * *

كتب حسين البرغوثي:

شيءٌ في الجبل كان يقول لي، كلما حدقت في الزيتون والأودية المقمرة حتى ولو بقيت لك سنتان للعيش، فإن سنتين هنا أعمق من قرنين «هناك»...

كنت واقفا أمام الشباك، مطلًّا على الحرش والصنوبر واللوز، وخطر ببالي أن بترا؛ زوجتي، ستنهار إن انهرت، «قاوم، لا لأجلك، قاوم».

وشعرت بأن الجبل يهتف بي: «قل لها، مهما حدث، إن زرتِني، فسأكون بين اللوز! ستكون شمس، ويكون نوار يتطاير في الهواء، وتكون جنائن، ويكون نحل وطريق نحل. وحتى يأتي ذلك الوقت، قاوم».

سؤال الألم

١٢ نوفمبر ٢٠٢١

أحفظ هذا التاريخ جيدا. هذا تاريخ أسوأ ألم في حياتي على الإطلاق.

كنت قد أجريت عملية استئصال الورم ومعه المعدة والطحال وأشياء أخرى قبل أسبوع، كنت ممنوعًا تمامًا من أي شيء يؤكل أو يُشرب، لكن في ذلك اليوم، بعد التأكد من عدم وجود تسريب بوصلة المريء بالأمعاء، طلب الطبيب أن أتناول ٣٠ مل من المياه كل ساعة فقط لا غير.

أحضروا أكوابا ورقية صغيرة جدًّا، وبدا لي الأمر سهلا. عرفت أنها ثقة الجهل.

مع أول تجربة أتى الألم الرهيب.

فعلا أتردد في وصفه. وعمومًا فإن بعض المشاعر تعجز عنها الكلمات، منها ذروة الحب وذروة الألم.

لم يحدث أن تمنيت الموت خلال مساري كله إلا في ذلك اليوم.

ولم يحدث أن دخلت في دوامة هذيان مصارعة الأقدار إلا في ذلك اليوم. أقول لإسراء باكيًا أشياءَ من قبيل: «هُوَّ أنا أستاهل اللي بيحصلي ده؟ والله ما عملت حاجة وحشة في حياتي تستاهل كده».

يبدأ الألم كأنه كرة من السكاكين تنزل ببطء من فمي، الأمر محتمل حتى تنحشر أسفل صدري مباشرة، ثم تتجه ببطء إلى اليسار وهي تتضخم، تتضخم، بينما أتمزق من الداخل، حتى تتوقف أسفل قلبي ورئتي اليسرى ... وتنفجر!

ألم رهيب يسري حتى أعلى كتفي اليسرى. قمة الرئة تضغط على أعصاب ما في ذلك الموضع مع كل نفس.

لا يمكنني التأوه أو الصراخ، بل أجاهد كي لا أتنفس؛ لأن كل نفس يعني دفعًا أكبر للرئة بالأعلى.

تذكرت ما علمه لي طبيب أكبر في أيامي الأولى كطبيب باستقبال طوارئ مستشفى إمبابة بالقاهرة، كوسيلة مبدئية لتصنيف الحالات الأخطر وسط زحام المرضى. المريض الذي يدخل على قدميه متأوهًا ليس حالة طارئة، ويمكنه أن ينتظر، أما الحالة الطارئة فعلا فهي مريض صامت. قد يكون مريضا فاقد الوعي، غيبوبة سكر، أو ممزقًا من إصابات حادث، أو هو مريض التهاب المرارة أو الزائدة الدودية الحاد وغيرها من حالات يعجز فيها المريض عن التنفس فضلا عن الصراخ.

بعدها ببطء شديد يمتد مسار الألم. أمعائي بالأسفل تنقبض بشكل رهيب.. رهيب.

تعرضت لشد عضلي في أثناء السباحة مرة واحدة في عمري. كأن العضلات الملساء الوديعة بالأمعاء التي لا نشعر بها أبدا، أصيبت بالجنون، وكلها تتعرض لشد عضلي لا نهائي الآن.

بعد نوبة لعينة حاولت وصف ذلك لإسراء فقالت إن ما أصفه يشبه آلام الولادة!

في هذه اللحظة تغيرت رؤيتي لها، ولكل امرأة..

بالضبط كما تغيرت نظرتي تماما لأبي وأمي بعدما أنجبت. لم أفهمهما قط إلا بعد أن صرت مكانهما.

تذكرت أيضًا صدمة إسراء من آلام الرضاعة الطبيعية. كانت تظن الإرضاع فعل حب وهدوء وسكينة، لكنها فوجئت أن كل عملية إرضاع في الفترة الأولى، تعني انقباضًا بالغ الألم لعضلات الرحم.

أخبرتني، وحاولت قدر الإمكان إبداء التعاطف والمساعدة.

أنا آسف، لم أفهم حقيقة الأمر وحجمه وقتها قط.

لاحقًا قرأت عن تصنيف أصعب آلام يمكن أن يشعر بها البشر، وجدت ضمنها آلام الولادة تتنافس على القمة مع آلام أعصاب الأسنان والمغص الكلوي وأمثالها.

قاعدة «لا مهبل، لا رأي» التي تقولها بعض النسويات صائبة تماما. ثمة أمور يجب ألا يبدي فيها الرجال رأيًا ما داموا لن يمروا بها أبدا، ولن يفهموها أبدا.

وكقاعدة، مهما طاولت اللغة البلاغة، فستظل قاصرة عن وصف مشاعر الإنسان إلا لمن كابدها. حقًّا ما قال النفري: «كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة».

* * *

طيلة حياتي كنت أخاف من الألم.

في الطفولة كنت أخاف الألم بالمعنى الجسدي البحت، قبل أن أكبر وأتعرف على نيران الآلام النفسية.

لديَّ عُقد مؤسِّسة.

العقدة الأولى حدثت حين كنت في الصف الثالث الابتدائي، عمري لا يجاوز ثماني سنوات.

لم أكن قد تعرضت للضرب قط قبلها، لم يضربني والداي، كما لم أتعرض للضرب بالمدرسة لأني كنت طالبا متفوقا، الأول على الفصل في أغلب الشهور، وأيضًا كنت شهيرًا إلى حد ما بين المعلمين لأني الطالب ذو القراءة الخارقة.

كنت الطفل الأول لأهلي، «أول فرحتهم» كما نقول في مصر، وكانت أمي المتحمسة للأفكار المثالية دائمًا، قد قررت ترك عملها كمعلمة لتتفرغ لتعليم شخص واحد هو أنا. النتيجة أني أنهيت «تانية حضانة» ـ التي أصبح اسمها اليوم «كي جي تو» ـ وأنا أقرأ كما أقرأ اليوم بالضبط!

في الصف الأول الابتدائي قررت المعلمة أني لن أقرأ جهرا في الفصل أبدا؛ لأن قراءتي لا تناسب أغلب الزملاء الذين ما زالوا يقرءون الهجاء بالكاد.

كنت أتأثر حين أرى زملائي يُضربون كالحيوانات، لكن ظل هذا «يحدث للآخر فقط». مبكرًا عرفت شعور أن تصبح أنت «الآخرين» فجأة.

كنت في الصف الثالث الابتدائي، عمري ثماني سنوات، حين انفجر مدرس الخط العربي صارخًا في وجهي: «أنا شفتك! اقف وافتح إيدك!».

كانت جريمتي أني أمسكت قلمي خوفا من أن يسقط على الأرض بينما هو كان قد قال إنه لا يريد سماع صوت، وإننا جميعًا ممنوعون من لمس أي شيء.

انهال عليَّ بعصا خشبية غليظة. يرفع يده بأقصى ارتفاع، ثم ينزلها ووجهه يتميز غضبا وكرها. لن أنسى أبدا تعبيرات وجهه كأني قتلت له قتيلًا، ثم صوت طرقعة العصا الرهيب على يدي.

فقط أعد في رأسي الضربات متوقعا أن جريمتي تكفيها ضربتان.

واحد .. اثنان.

لم أصدر أي صوت من فرط الصدمة والذهول لكنه اعتبر ذلك عنادا أو قلة أدب، لعله أرادني أن أتوسل باكيا كما يفعل غيري. لم أفعل ليس حرصا على كرامتي، بل فقط لأني لم أستوعب ما يحدث.

ثلاثة، أربعة.

كنت أتصور أننا وصلنا للنهاية فوجدته يرفع العصا مرة أخرى. ترددت للحظة في فتح يدي فصاح: «مافتحتش إيدك هتنزل على جسمك». أسعفني عقلي أنه قد يتوقف لو قلت أي شيء. هامسًا قلت: «كفاية يا أستاذ»، فواصل التلويح بالعصا، فرضخت.

خمسة، ستة.

كنت قد فقدت الشعور بالألم تماما بعد العصا الرابعة. سأعرف فيما بعد أن هذه آلية دفاع جسدية، ففرط الألم بعد مستوى معين يسبب «صدمة عصبية» تؤدي للوفاة؛ لذلك يسارع الجسد بإنقاذ نفسه بدفقة مسكنات طبيعية عالية من المورفينات تلغي الألم.

للمفارقة لم أشعر قط بفقد الإحساس هذا إلا مرة واحدة أخرى في حياتي، هي حين انهال عليَّ العساكر ضربًا بعد القبض عليَّ في مظاهرات ثورة يناير.

نويت ألا أخبر أهلي بما فعله المعلم؛ فقد داهمني شعور بالذنب وأني أستحق ما جرى لي.

بعد سنوات طويلة سأقرأ عن شعور الذنب الذي يجابه الضحية، وسأتذكر ما حدث لي بينما أشاهد مع زوجتي في منزلنا وثائقي «نيتفليكس» عن جيفري إيبستين؛ حيث تروي ضحاياه القاصرات مشاعرهن بعد التعرض للتحرش والاعتداء الجنسي. الصدمة والجمود والذنب.

لكن أخي أخبر والدتي بما حدث في المدرسة، وفي اليوم التالي ذهبت إلى هناك وزلزلتها!

كانت مدرسة إسلامية تتبع جماعة الإخوان المسلمين تحت غطاء جمعية أهلية، هددت والدتي أنها ستسلك الطريق القانوني وترفع الشكوى للوزارة، وهو ما أدهش القائمين على المدرسة؛ فأمي من أسرة قدمت أولادها كأول جيل لافتتاح تلك المدارس، فضلا عن علاقاتها العميقة بكل الإدارة.

جاءني ذلك المدرس وهو يخفي ارتباكه وسألني: «هُوَّ أنا عاقبتك إمبارح ليه؟»

ذلك الحقير نسيَ ما فعل أصلا، لم ينتبه كأني حشرة سحقها دون أن يفكر لحظة. يستخدم «عاقبتك» بديلًا عن «عذبتك».

قلت له: أنت ضربتني لأني لمست قلمي. سألني: «بس كده؟!».

كما لم أنسَ قط ذلك الألم، فإني لم أنسَ قط شعور الكرامة الذي منحته لي أمي هذه المرة، وفي مرات تالية، حتى إنها كانت وراء إلغاء عقوبة ضرب الفصل بالكامل التي انتهجها مدرسون آخرون.

اليوم أفكر ماذا لو كانت أسرتي ممن يقولون للمعلم تلك العبارة القذرة: «إنتَ اكسر وأنا أجبس»؟

يتعامل كثير من المصريين والعرب مع الأطفال كملكية خاصة، والضرب غالبا هو غضب وانتقام للكرامة وليس حتى وسيلة تربوية واعية، وبعضهم حين يسافر إلى هنا، في بريطانيا وأوروبا، يشكو من الجهات الحكومية التي يمكن أن تنتزع الأطفال من الأسر المجرمة.

أفكر: ماذا لو مررت بخبرات مَرَّ بها زملائي؟ لو كان أبي يربطني في السرير وينهال عليَّ جلدًا بالخرطوم؟ أو لو كانت أمي تسخن ملعقة معدنية على النار ثم تكويني بها، وهو ما اكتشفت لاحقًا أنها «وسيلة تربوية» حدثت في كثير من البيوت المصرية؟

لو كان قد حدث لي ذلك فربما كنت اليوم شخصا آخر، «عقدة ستوكهولم» جماعية شائعة، حين تتماهى الضحية مع جلادها. ربما كنت سأتطبع مع الظلم والألم، سأتلقى الضربات راضيًا بأني أستحقها، وحين أكبر سأنهال بالعنف والألم على من حولي وأولهم زوجتي وأبنائي، ثم قد أفتح الفيس بوك لأكتب بجهل فخور: «ما كلنا انضربنا وإحنا صغيرين وطلعنا زي الفل!».

* * *

ما زلنا في ١٢ نوفمبر ٢٠٢١

ساعة تلو ساعة أصبح الألم الرهيب أسوأ وأكثر انتشارا على طول المسار داخل بطني. هذا المسار الذي أصبح غريبًا عني، فبعد تغير شكل أمعائي بالداخل تماما بعد وصلها بالمريء أصبح الألم كأنه أفعى مجنونة لا أتوقع مسارها.

طلبت الممرضة التي كانت قد أخبرتني سابقا أن د.جورج رفض حصولي على دواء مخفض لانقباضات الأمعاء، كما تمسك باستمراري في مسار ٣٠ مل ماء كل ساعة. قلت لها: أخبري الطبيب الآن أني يأست وقد انتهى الأمر إلى هنا، لن أضع هذا الماء في فمي أبدًا.

انسحبت وجاء الطبيب المداوم، فكررت عليه نفس العبارات.

يمكن أن أحاول مع سائل آخر، وبعد جرعة دواء الانقباضات، لكن لن أستمر لحظة أخرى في مسار العذاب هذا.

سألني السؤال المكرر عن درجة الألم من واحد إلى عشرة، حيث واحد ألم خفيف وعشرة أصعب ألم يمكن تصوره.

رغم احترامي للمنهجية العلمية حول هذا المقياس، لكني لم أفهم قط كيف أقيم الألم بدرجات، ودائمًا أرتبك بإجابة هذا السؤال، أما هذه المرة فلم أرتبك. قلت له بلا تردد: هذا أعلى من أصعب ألم يمكن تخيله، فلتعتبره ١١ أو ١٢!

انسحب بدوره، وبعد قليل جاء الرد بموافقة د. جورج، حصلت على الدواء، وعلى شاي الكاموميل المهدئ دون سكر، وبدأ الألم يقل تدريجيًّا. على الأقل أصبح يمشي من فمي إلى حين الانفجار تحت الرئة ثم يختفي.

بدأ الألم يتراجع.. ولكن إلى حين.

* * *

العقدة النفسية الأخرى حدثت لي حين كنت في المرحلة الإعدادية، ربما كان عمري اثنتيْ عشرة سنة، حين قرأت كتاب «رسالة من مواطن مصري إلى الرئيس مبارك»، وهو يجمع مقالات كتبها الكاتب محمد عباس في جريدة الشعب.

في بعض الأجزاء كان يصف بأسلوبه الأدبي المؤثر أدق تفاصيل وسائل التعذيب التي تعرض لها سجناء إسلاميون على يد جهاز أمن الدولة.

أذكر جيدًا كيف أني أنهيت القراءة ثم بقيت جامدًا مكاني من هول الصدمة، قلبي يخفق بسرعة، وأتنفس بصعوبة.

كنت أتخيل نفسي مكان المعذبين الصارخين.

رأيتني مكان من يُعلق لأيام على باب معدني، أو يُصعق بالكهرباء في حلمة صدره. التصقت بخيالي طويلا صورة شخص مقيد وضعوا أنبوب قلم في فتحة مجرى بوله، ثم أشعلوا به النار، وتركوه يحاول إطفاء البلاستيك المذاب بفخذيه العاريتيْن!

منذ ذلك اليوم لازمني الفزع الدائم من تعرضي لشيء من هذا، كما لازمتني مشاعر الغضب الهائل ضد أي متورط أو متهاون في ذلك.

منذ ذلك اليوم صرت أدعو دعاءً اخترعته: «اللهم قِني عذابي الدنيا والآخرة». مع مرور السنوات توقفت عن تكرار ذلك الدعاء، حتى تذكرته يوم الألم الأكبر بعد عملية استئصال الورم. قلت في نفسي: هذا هو عذاب الدنيا قد ذقته بالفعل.

ما أبشع مواجهة حقيقة أن قطاعا واسعًا من المصريين لديه تطبيع مع التعذيب لفئات مستباحة تتغير حسب المتحدث. عبر تاريخنا المصري الحديث كل فصيل سياسي أيد أو تجاهل في مرحلة ما تعذيب خصومه.

وحتى محمد عباس؛ الكاتب الذي فتح عيني على تلك البشاعة، اكتشفت لاحقا وجهه المتطرف، فهو محرض طائفي ضد المسيحيين، وضد من يعتبرهم العلمانيين أعداء الإسلام.

وبعيدًا تماما عن السياسة، لدينا تراث عريق من استباحة ضرب اللصوص جماعيًّا على طريقة «حرامي في مولد»، ولدينا تطبيع شعبي ورسمي حول تعذيب الجنائيين كأنهم ليسوا بشرًا، بل لا مانع من الأخطاء في أثناء ذلك!

أذكر جيدًا في يناير ٢٠١٣ حين غطيت صحفيًّا واقعة قاسية لمقتل شاب يعمل محاسبا اسمه سعد سعيد، مات تحت التعذيب بلا أي سبب إلا أن الشرطة ألقت القبض عليه بالخطأ في أثناء مشاجرة بالمنطقة. بعدها بأيام كان لديَّ موعد مع مساعد وزير الداخلية لشئون حقوق الإنسان في مقر الوزارة. بعد أن ألقى عليَّ خطبًا طويلة حول تطور تعامل الشرطة مع المواطنين وكم الإصلاحات التي جرت، رددت عليه بسرد الواقعة التي شهدتها بنفسي.

قال لي سيادة اللواء فجأة خارج الحوار: «أنا هاجيبلك من الآخر، حقوق الإنسان دي للناس النضيفة اللي زيي واللي زيك، لكن إحنا بنتعامل مع أشكال ما تجيش إلا كده، لو حد اغتصب خطيبتك أو أختك ولا حتى سرق شنطتها هتبقى عايز تموته مش تعذبه بإيدك بس».

ثم قال لي إن حد الحرابة في الإسلام يصل إلى الصلب، أو «قطع الأيدي والأرجل من خلاف»، وبالتالي أي شيء تفعله الداخلية هو أقل من الحد الإسلامي الواجب تطبيقه!

ظللت متابعًا لتلك القضية كشأن شخصي. في ٢٠١٧ تم الحكم بالسجن ٥ سنوات على قتلة سعد سعيد، وهم: ضابطان؛ معاون مباحث قسم الجيزة، ونائب مأمور القسم، و ٤ أمناء شرطة. في فبراير ٢٠٢٠ تم الإفراج عنهم جميعًا بعفو رئاسي، ولم يعبأ أحد..

يكاد يكون الموقف من تعذيب الجنائيين مركز إجماع شعبي.

لم أنسَ قط بعد ثورة يناير حين تم تداول فيديو يظهر به أشخاص مقيدون جالسون على الأرض، بينما أشخاص بملابس رسمية يصعقونهم بالصواعق الكهربية، تحت حجة أن هؤلاء بلطجية وسجناء هاربون. الغالبية الساحقة من التعليقات كانت تؤيد وتشجع وتحتفل!

بعدها بسنوات شهدنا فيديو للقبض على متهمين بالتحرش، وسيدة بملابس الشرطة تصعق هؤلاء المقيدين بالصاعق الكهربائي، ومرة أخرى التعليقات تحتفل وتشكر الشرطية البطلة.

كنت أرى لدى كثير من المعلقين في الحالات الشبيهة شعارات تأييد الثورة فأكاد أجن. حين شاركت في الثورة كنت أحلم بوطن أكثر عدلًا، وأقل ألمًا.. لم أعرف أن بين الهاتفين بجواري من لديه تصور مختلف تماما..

* * *

٣٠ نوفمبر ٢٠٢١

تاريخ آخر من تواريخ الألم.

هذا أكثر يوم صرخت فيه بحياتي، ليس تأوهًا بل صراخ.

لم أتخيل قط أن هذا الصراخ يمكن أن يخرج مني، أنا الذي حسبتني صرت خبيرًا بالألم وطرق كتمانه مثل توجيه تركيزي إلى العض على شفتيَّ أو اعتصار الوسادة بيدي.

كنت على وشك الخروج من المستشفى، وكانت الأنابيب الخارجة من جسدي قد تناقصت حتى بقيَ الأخير منها. المعتاد أن تطلب الممرضة أن ألتقط نفسا عميقا ثم تسحب الأنبوب، يداهمني ألم شديد لكنه يختفي في لحظات.

كان يتنافس على لقب أكثر الأنابيب إيلاما لحظة انتزاع أنبوب أنفي الممتد حتى الرئة، ولحظة انتزاع أنبوب القسطرة البولية، وهو إجراء طبي لعين، أعرفه تماما من الممارسة في مصر، كنت أحمد الله أن عافاني منه حتى وجدت ذاك الرعب ينتظرني بعد كل هذه السنوات في بريطانيا. أين المفر؟

لكن الفائز بلقب أكثر الأنابيب ألما كان ينتظر..

حاولت الممرضة انتزاع ذلك الأنبوب من بطني، لأجدني أصرخ من هول الألم.

تكرر: خذ نفسا عميقا، سينتهي خلال لحظات.

آخذ النفس، فتسحب الأنبوب بقوة أكبر، فيخرج النفس من فمي صراخًا يذهلني.

صرخت فيها: هذا يكفي، لا أسمح لكِ بلمسي مرة أخرى.

انسحبت فورا، وجاءت مكانها ممرضة أكبر فحصت الوضع ثم قالت لها إن هذا الأنبوب تحديدا مثبت من الداخل بغرز داخلية

يجب قصها بطريقة معينة، قامت بالإجراء ثم ببساطة انتهى الأمر في لحظات كأي أنبوب آخر.

ظلت تلك الممرضة تعتذر إلى ما لا نهاية، وظللت عابسا في وجهها أرد باقتضاب. نويت أن أقدم ضدها شكوى رسمية قوية، لكنها جاءت جريا خلفي وأنا أغادر المستشفى لتكرر الاعتذار. شعرت أنها صادقة في تعاطفها وحزنها بأنها تسببت لي بالألم وليست خائفة من شكواي التي لم ألوح بها، فتجاوبت معها للمرة الأولى أنه لا بأس.

كثيرًا ما خففت لحظات تعاطف صادق من آلامي الجسدية والنفسية، حتى إني قد أوهم نفسي بذاك التعاطف إيهاما..

* * *

يصاحبنا الألم الهائل لحظة الولادة، ولحظة الموت، وما بينهما هروب منه.

لماذا الألم؟

الأمر يشبه «سؤال الشر» المعروف منذ قرون طويلة.

من أقدم صوره ما نُقل عن الفيلسوف اليوناني «أبيقور» الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد، وخلاصته مساءلة الإله: لو كان يريد منع الشر بالعالم لكنه لا يقدر، إذن هو عاجز. لو كان يقدر على منعه لكنه لا يريد، إذا هو شرير.

ينفجر السؤال نحو الكوارث الطبيعية الجماعية والفردية.

موجات تسونامي التي قتلت نحو ربع مليون إنسان في ٢٠٠٤، وأبادت قرى بائسة بأكملها في إندونيسيا والهند.

زلزال أفغانستان وباكستان الذي قتل مئات من الأشخاص في لحظات عام ٢٠١٥.

كل البراكين والأوبئة والمجاعات بالجفاف أو الجراد. الأطفال الذين يولدون صمًّا أو عميانًا أو فاقدي أطراف أو ذوي أمراض عقلية، وكُتب عليهم وعلى أهليهم العذاب الأبدي.

كل الاختلالات الجينية، ومنها مصابو السرطان في أعمار مبكرة، مثلي!

ما ذنب كل هؤلاء؟

كما ينفجر السؤال نحو الكوارث البشرية.

الإبادات الجماعية المليونية المتكررة عبر التاريخ منذ غزوات التتار، وحتى مذابح رواندا عام ١٩٩٤.

صفوف من الجثث العارية النحيفة المعذبة لضحايا الهولوكوست النازي، أو سجون بشار الأسد في صور «قيصر».

جثث مذابح صبرا وشاتيلا، وجثث كيماوي حلابجة، والقائمة لا تنتهي.

ومن السؤال الفلسفي العام، يظهر سؤال شخصي جدًّا لأمثالي: لماذا أنا؟

يشيع في الكتابات الغربية عن السرطان نقاش كيفية التعامل مع هذا السؤال النمطي: Why me?.

في صفحة خصصها المعهد القومي الأمريكي للسرطان لشرح التعامل مع فئات مشاعر المرضى (الغضب، الخوف، القلق، الاكتئاب، الذنب، الوحدة.. إلخ)، تم إدراج هذا السؤال تحت فئة التعامل مع مشاعر الغضب، وهو غضبٌ قد يتفجر من المريض نحو الذات أو الأسرة أو الطاقم الطبي أو الله.

بالطبع لا يقدم المعهد القومي للسرطان إجابات فلسفية، بل فقط نصيحة طبية نمطية وهي الحديث عن ذلك الغضب مع الدائرة الأقرب أو المعالج النفسي؛ لمحاولة تحويل ذلك الغضب إلى طاقة إيجابية تحفز العلاج.

خارج الطب، ثمة جدل فلسفي وديني طويل.

قرأت كتاب «معضلة الألم» للكاتب الأيرلندي كليف لويس (سي إس لويس) حيث يناقش القضية من منظوره، كشخص غادر إيمانه المسيحي ثم عاد له.

يقول مثلا:

«للوهلة الأولى، تبدو قوانين الطبيعة الثابتة التي لا تأبه بمعاناة الإنسان أو كفاءته، والتي لا توقفها الصلاة، كأنَّها تقدِّم حُجَّةً ضدَّ صَلاح الله أو قدرته. وأقول إنَّه حتَّى «القُدرة الكلِّيّة» لا تستطيع أن تخلق مجتمعًا من النفوس الحرَّة دون أن تخلق في الوقت نفسه طبيعةً ماديةً ثابتةً ومستقلَّةً نسبيًّا».

أي أن حرية الإنسان، وامتلاكه العقل والاختيار، مشروطان بوجوده في الدنيا ذات القوانين المادية التي لا يخرقها الإله لصناعة وضع مثالي دائم.

«يمكننا ربَّما أن نتخيَّلَ عالمًا يعمل الله فيه باستمرار على تصحيح الأخطاء التي ترتكبها مخلوقاته بسبب الإرادة الحرَّة، بحيث تصير قطعةُ الخشب ليِّنة عندما تُستخدم لضَرْب إنسان، وصلبةً عندما تُستخدَم في البناء. وعندما أحاول أن أستخدم الهواء لنَقْل موجات صوتيَّة تحمل كذبًا أو إهانة، فإنَّه لا يتجاوبُ معي. لكنْ سيصبحُ مثل هذا العالم عالمًا يكون الخطأ فيه مُستحيلًا، وفيه تكون فكرة الإرادة الحرَّة خاليةً من المعنى».

لذلك يؤكد: «لا يمتلك الله قدرةً أكثرَ من أيِّ مخلوق أن يجمعَ ما بين شيئين مُتناقضَين تناقُضًا جوهريًّا؛ ليس لأنَّ قدرتَه تواجِهُ عائقًا، بل لأنَّ الهُراءَ يظلّ هُراءً حتَّى لو قُلْناه عن الله».

والمعجزة؟

يجيب: «حقيقة أنَّ الله يستطيع أن يُعدِّل سلوك المادَّة ويقوم بذلك فعلًا في بعض الأحيان، ما يُسمَّى بالمعجزة، فإنَّ هذا جزءٌ لا يتجزَّأ من الإيمان المسيحيّ، لكنَّ الفكرة القائلة بضرورة اتِّساق العالم والمادَّة وثباتهما تتطلَّب أن تكون هذه المعجزات بالغةَ الندرة».

بشكل عام، تقدم كل الأديان العزاء للمتألمين، من منظور أن الدنيا لها جزء ثانٍ هو الآخرة؛ وبالتالي أيًّا كانت بشاعة الألم، فهو محدود زمنيًّا قياسا للأبدية. سوف يقسم المجرمون حين تقوم الساعة إنهم ﴿مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ كما يقول القرآن. بينما سيفرح المؤمن بجزاء صبره على الآلام من أكبرها إلى أهونها «حتى الشوكة يُشاكها».

لكن بعيدا عن هذا المنطق العام، تجري دائمًا إسقاطات خاصة عن حكمة إصابة شخص بعينه بكارثة بعينها، هكذا تتنوع التفاسير حسب تصنيف المتحدث للضحية، قد يصنفون الألم عقابا من الله لهذا العاصي، أو يصنفونه ابتلاء لتقريب ذاك الصالح.

لم أقبل قط أن يدعي شخص وجود حكمة خاصة لآلامي أنا تحديدا.

إجابتي الخاصة هي: لا أعرف. فقط.

وقد كررت الأديان نفسها هذه الإجابة بشكل ما. مثلا يتم الاستشهاد بقصة موسى والخضر؛ لبيان أن هناك حكمة خفية ما دائما، أقول: ممتاز، لكن استنتاجي من القصة أننا لن نعرف الحكمة أبدًا. لا خضر ليخبرنا اليوم!

لا أشغل بالي بهذا النوع من الفلسفة الغيبية.

لا أعرف «لماذا أنا»، ولن أعرف أبدا.

وأشعر بالاستفزاز ممن يدعي أنه يعرف.

أعرف فقط ما يمكنني تحليله ولمسه، ما يمكنني أن أفعل للتعامل مع هذا الوضع..

* * *

في الملف الذي أسجل فيه ملاحظاتي شبه اليومية تتزاحم تواريخ الألم؛ حتى لا أعرف ما يُمكن حكيه منها.

أختار عشوائيًا:

٥ سبتمبر ٢٠٢١

أحقن نفسي تحت الجلد في فخذي أو بطني بحقن رفع خلايا المناعة «نيوتروفيلز»، وأشعر بسببها بآلام منتشرة في العضلات والعظام. كأن شخصًا يضربني في كل مكان.

لكن الأقسى نفسيًّا هو أني أؤلم نفسي بنفسي. عقوبة سيزيفية.

تعرض إسراء كل مرة أن تحقنني هي لكني أرفض. سيكون الأسوأ أن تسبب لي هي تحديدًا الألم.

٢٩ يناير ٢٠٢٢

تم تثبيت مدخل ثابت للأدوية تحت الجلد Port في صدري. لم أتوقع أن تركيبه كل مرة سيؤلمني كطعنة.

لا بأس. على الأقل لحسن حظي كنت قد اخترت تركيبه على الناحية اليمنى، وإلا لشعرت كل مرة بأن الطعنة في قلبي!

٢٣ مارس ٢٠٢٢

أصعب آلام في عيني منذ بداية العلاج. شوكتان تخترقان كرتي العين من الخلف.

٢٨ يونية ٢٠٢٢

كل يوم حين أذهب للنوم، أكتشف أني لا أستطيع بسبب آلام احتكاك عظام ركبتيَّ. أصبحت نحيفًا جدًّا وركبتي عظمية بارزة. أحل المشكلة بوضع وسادة أو لحاف أو ما شابه.

بعد كل هذه الشهور لم أعتد على جسدي الجديد.

كل يوم نفس المفاجأة في نفس الموعد.

كل يوم.

٢٥ أغسطس ٢٠٢٢

أصعب آلام على الإطلاق في «عظم الذيل» أو ما نسميه «العصعص».

لا يمكنني الجلوس أو النوم على ظهري. لا يمكنني ركوب السيارة. يصبح الألم رهيبًا حين تتحرك أمعائي.

أخبرت الطبيب فقال إن الأمر قد يكون مرتبطًا بأثر العلاج المناعي الجديد «راميسيروماب»؛ حيث يؤثر على نخاع العظام. فعلا أشعر بالألم عميقًا داخل العظم. لكنه على الأقل يستجيب للدواء المسكن الجديد.

١٧ سبتمبر ٢٠٢٢

ألم رهيب رهيب في بداية فخذي منذ الأمس مساءً.

في هذا الموقع بالضبط؛ عظم الحوض على اليمين، توجد أكبر بؤرة في العظام.

هذه ليست آلام الدواء أو أعراضا فرعية كالعادة، بل هو الورم نفسه.

شعرت بالخوف. فكرت: «الموضوع دخل في الجد».

قبل أيام عانيت آلاما أسفل صدري، ليست حادة جدًّا لكن مزعجة. تحسستها فوجدتها أحد أورام الكبد، ثم للمرة الأولى تجولت بيدي يمينًا فشعرت بسطح الكبد مملوءًا بتلك الأجسام الكروية اللعينة. شعرت بالخوف ونمت حزينًا. لكن اليوم أدرك أن هذا كان مجرد لعبة.

النجدة. النجدة.

(بعد أيام تلقيت جرعة عالية من الكورتيزون حلت المشكلة مؤقتا إلى حين بدء جلسات علاج إشعاعي لإزالة بؤر عظام الحوض).

آلام أسنان. آلام المرارة. آلام البواسير. آلام الكلى... إلخ إلخ. كلمات كلمات. اكتفيت من توثيق الألم. لم أعد أكتب بدقة كما كنت في البداية. مللت. أو أريد الهرب. لكن إذا هربت من الكتابة عنه، فأين المفر منه؟

* * *

وما المعنى؟

لا أعرف المعنى في ألمي، لكني أعرف المعنى في مقاومته..

في كتابه «الإنسان يبحث عن المعنى»، يسرد الطبيب النفسي النمساوي، فيكتور فرانكل، تجربته الملهمة؛ حيث تم اعتقاله سنوات في أحد معسكرات الهولوكوست النازية.

تعرّض للتعذيب، وارتدى الأسمال، وشهد رفاقه يساقون أمام ناظريه إلى الأفران. وسط كل هذه الأهوال، انشغل بالرصد الدقيق

للأنماط النفسية للسجناء، وثّق حيلهم النفسية الدفاعية، مثل تبلد المشاعر أو المرح المصطنع الصاخب. أبرز ما توصل إليه أن السجناء الذين عجزوا عن إيجاد أي معنى لمعاناتهم كانوا عرضةً للانتحار أو للموت السريع، حتى إن سجينا تعشّم أن تنتهي الحرب قبل ليلة أعياد الميلاد، فإذا به هو من ينتهي في تلك الليلة تحديدا دون سبب مباشر. قتله اليأس. بينما من صمدوا هم من أمكنهم إيجاد معنى ما لمعاناتهم.

كان يسأل السجناء، ولاحقا المرضى المعانين في عيادته: لماذا لم تنتحروا حتى اليوم؟

قد تكون للمعنى قيمة سياسية أو إنسانية كبرى. نحن نسجن لأجل صعود الشيوعية أو الديمقراطية. وقد يكون المعنى أمرًا بسيطًا شخصيًّا مباشرًا، كما في حالته الخاصة، قال فيكتور إن ما أبقاه حيًّا هو فقط وعده لزوجته بأن يراها.

وفي أوقات أخرى، كانت الأولوية أن يكون للموت نفسه معنى. تطوع د. فرانكل ليعالج مصابي تيفوس، قائلًا إنه لو مات، وهو يحاول إنقاذهم، فسيكون راضيا عن ميتةٍ لها معنى.

يمثل فرانكل مدرسة فيينا الثالثة للعلاج النفسي، والتي لم تحظَ بذيوع شهرة مدرستيْ فرويد وأدلر، فإذا كان فرويد يمنح الأولوية لصالح «إرادة اللذة»، بينما يركز أدلر على «إرادة المكانة».. فإن فرانكلين لا يعارضهما، لكنه يرى كلتا الرؤيتين جزءًا من صورة أوسع، هي «إرادة المعنى».

وفي الطريق للوصول إلى تحقيق هذا المعنى المتسامي خارج الإنسان، يجد الإنسان نفسه يحصل، كعرض جانبي، على تعويضاته النفسية الخاصة من اللذة ومن «تحقيق الذات»، ولكن لا يمكن اعتبار «تحقيق الذات»، في حد ذاته، معنًى كافيًا تدور حوله حياة الإنسان ومعاناته.

سألت نفسي مرارًا عن المعنى..

حين أتخيل ما سيحدث بعد موتي، أتخيل أن أصدقائي وأهلي سيحزنون بصدق، لكن سيتجاوزون ذلك بعد فترة طالت أو قصرت. حتى إسراء ستفعل رغم غضبها حين أخبرتها بذلك، وأني سأكون سعيدا لسعادتها لا لغرقها في حزن أبدي.

الشخص الوحيد الذي أشعر أنه لن يتجاوز غيابي بسهولة هو ابني.

كلما فكرت فيه يتيما دمعت عيناي.

وكلما فكرت فيه صممت على أن أحتمل لأقصى مدى ممكن، وأسعى بلا حدود لأي وسيلة بأي ثمن تجعلني أبقى معه لفترة أطول، ولو لبضعة أيام لا أكثر.

أتأمله يلعب لاهيًا. آه لو يعرف..

* * *

أعود بتاريخ الألم لماضٍ غير بعيد.

١٨ إبريل ٢٠١٨. الساعة ١١ صباحا.

في هذا اليوم سلمت النسخة الرابعة من سكربت فيلمي «المستخدم الأخير». سهرت طيلة الليل، وانتبهت فجأة لأن تسع ساعات قد مرت وأنا في نفس الوضع غير المريح.

شعرت بألم حاد في كتفي اليسرى ورقبتي. ظننته إجهاد العمل المعتاد وسيزول بعد حمام ساخن وبعض النوم، لكنه لم يزل قط.

منذ ذلك اليوم وحتى الآن، لم يمر يوم واحد دون آلام ظهري ورقبتي.

بعد نحو عام من الحلول المؤقتة والارتجالية تفاقم الوضع، أصبحت نوبات الألم تصل لأطراف أصابعي فأعجز عن الكتابة. هذا فقط ما حركني!

ذهبت لطبيب مختص، وفوجئت بتشخيصي بعيب خلقي يتضمن التواء فقرات الظهر وضلعًا زائدًا على اليسار.

سألت الطبيب: لماذا لم أشعر بمشكلة إلا الآن بعد الثلاثين؟

فقال إن ذلك يحدث مع التقدم في العمر، وبسبب طبيعة عملي المكتبي.

الحلول الجراحية غير آمنة وستؤدي للحام بعض الفقرات، أي فقدي للأبد جزءًا من الحركة.

بدأت رحلة مليئة بالتفاصيل للسيطرة على ذلك الألم. بدأت بإحالتي لطبيب إدارة الألم pain management .

فكرت أن المسمى نفسه لا يحمل معنى إزالة الألم، بل فقط «إدارته». لا أصدق أني سأصاحب ذلك الألم للأبد، بالتأكيد هناك حل ما.

لكن ظهر أنه لا حلول نهائية، ومع ذلك نجحت «الإدارة» تدريجيًّا في الوصول لوضع أفضل.

مزيج من الأدوية، وتغييرات شاملة بحياتي، تشمل انتقاء المرتبة، والوسادة، والكرسي، والمكتب، وتمارين يومية معينة.. إلخ.

خلال ذلك المسار تعرضت لانتكاسة. أخبرني مختص أن درجة التواء فقراتي لا تفسر تلك الأعراض، ربما المشكلة في ضيق مدخل الأعصاب ناحية الكتف اليسرى.

ذهبت لطبيب جديد مختص بالأوعية الدموية.

تضمنت الاختبارات صعقات كهربائية صغيرة في ذراعي. فورًا تذكرت المُعذبين في بلادنا العربية بالكهرباء، فكنت أنتفض من كل صعقة لدرجة أثارت استغراب الطبيب.

بعد سنوات سأقرأ رواية «باولا» لإيزابيل الليندي؛ حيث تحكي أنها شهدت تعرض ابنتها الغائبة في غيبوبة لذات الاختبارات، ففكرت في كل من تعرضوا للتعذيب بأساليب مماثلة في تشيلي. أتأكد دائمًا أن ثمة أمورًا مشتركة بيننا نحن الشعوب المقهورة كما في إفريقيا وأمريكا الجنوبية، يصعب للغاية فهمها على غربيين عاشوا لأجيال في بلاد ديمقراطية ورخاء.

أسفرت كل الاختبارات عن أنه لا مشكلة لديَّ. عدت للطبيب فقال لي: آلامك لا يوجد لها تفسير جسدي. هل جربت الذهاب لطبيب نفسي؟

قلت له إني لا أتكبر على الطب النفسي، لكنها مشكلة جسدية واضحة، وتستجب فوريًّا لمؤثرات مادية، فآلام ظهري تزداد بالبرودة وتنخفض بالسخونة.

قال إن هذا لا ينفي احتمال أنها آلام «نفسية ـ جسدية». صحيح أن لها سببًا أصليًّا، لكنها أسوأ بسبب حالتك النفسية.

قلت له بإصرار إني لا أعاني من مشاكل نفسية مرضية، فقال: تذكر ما حكيته لي عن حياتك!

قرأت بعدها في موقع مستشفى «كليفلاند» الأمريكية[1] أن تلك الآلام النفسية ـ الجسدية شائعة، تسبب المشاكل لنحو ٥-٧٪ من إجمالي البشر. الأسباب النفسية تشمل مدى واسعًا بدءًا من «الحياة الفوضوية» إلى أسباب اقتصادية كالبطالة.

لا أعرف لو كان رأيه سليما، فلم أذهب وقتها لطبيب نفسي، لكني لاحظت مروري ببعض أسوأ النوبات لأسباب غير مادية، كما حدث حين اتهمني شخص ظلما بتهمة باطلة ما.

تضمنت تحسيناتي لحياتي خفضًا لمعدل عملي، ودواءً مضادًّا للاكتئاب وصفه لي طبيب إدارة الألم كمسكن قوي لآلام الأعصاب،

---

(١) Psychosomatic Disorder
https://my.clevelandclinic.org/health/diseases/21521-psychosomatic-disorder

كان أثره إيجابيًّا، قرصًا واحدًا ثم نوم ١٠ ساعات بلا انقطاع، ثم أصحو أفضل.

مرارًا فكرت: لو لم أكن قد عملت بمشروع فيلم «أسلحة اليمن» ذاك، فهل كنت سأستمر شخصًا طبيعيًّا بلا آلام؟ قولًا واحدًا، لو كان ثمن صحتي هو خطوات كبيرة للخلف في حياتي المهنية لدفعته دون تردد، لكن مَنْ يعيد الزمن إلى الخلف؟

حين شُخصت بالسرطان فكرت لو أن هناك علاقة ما بين الحالتين. ثمة تعبير طبي اسمه «متلازمة» syndrome يعبر عن أعراض بأعضاء متباعدة لكن يجمعها كلها السبب نفسه وهو عادة خلل في جين معين. أشهرها شعبيًّا «متلازمة داون». هل أصابتني متلازمة لم تُكتشف بعد؟ لا أعرف.

مع الوقت تحسنت آلام ظهري، واستغللت فترة وباء «كورونا» للمزيد من تخفيف العمل وممارسة الرياضة. صاحبت ألمي حتى كدت أنساه، لكن الألم كالسرطان غدار.

حين أجريت العملية الكبرى تم تخديري، ثم وضعوا إبرة تخدير نصفي داخل فقراتي. صحوت صارخًا من الألم بينما أشعر بالطبيب يدخلها وينزعها، كأنه يقسم جسدي. بنصف وعي فهمت أن طبيبا آخر يخبره بالتواء فقراتي؛ لذا دخلت الإبرة بشكل خاطئ.

حين أفقت حاولت المشي منذ اليوم الثاني. كان طاقم التمريض معجبا بإرادتي، لكنهم لم يفهموا أن الأمر لم يكن اختياريًّا. كانت آلام ظهري ورقبتي في أسوأ حالاتها بالفعل بعد كل هذه الساعات من الثبات في السرير.

كنت أهرب من الألم لا أكثر .. لكن لا مفر..

كثيرًا ما تتداخل آلام الحالتين فأتذكر أبيات المتنبي:

رماني الدهر بالأرزاء حتى
فؤادي في غشاء من نبالِ
فصرت إذا أصابتني سهام
تكسَّرت النصال على النصالِ

أصبحت محصنًا من الآلام بالآلام ..!

* * *

ما أود قوله بعد كل هذه الخبرة مع الألم إني ازددت له كرهًا على كره.

الألم ليس شعورًا نبيلًا.

لا يستحق أي احتفاء في الأشعار والأغاني.

الألم ليس تطهيرًا.

الرهبان المسيحيون الذين كانوا يجلدون أنفسهم ويربطون الشوك على أجسادهم في العصور الوسطى، ومثلهم ممارسو «التطبير» من المسلمين الشيعة، كلهم حمقى، مثل كل من يؤلم نفسه أو غيره لأسباب غيبية دينية أو غير دينية.

الألم بشع.

الألم مأساة.

ليس بيدنا أن نوقف الآلام الناتجة عن الكوارث الطبيعية، لكن بيدنا أن نحاول وقف الكوارث البشرية.

الحب عدو الألم.

أحيانا أذهب وحيدًا لجلسات العلاج وأحيانا ترافقني إسراء. في كل مرة تمسك بيدي بينما أتلقى الطعنة في الجانب الأيمن من صدري، أشعر بأن الألم أقل. الألم يقل حقيقة لا مجازًا والله!

والرحمة عدوة الألم.

ولم أرَ وسيلة أفضل لتوليد الرحمة من أن يحاول كل منا فهم آلام الآخر، أن يضع نفسه مكانه.

من هنا تظهر الرحمة لإنسان وجدت لنفسك أدنى سلطة عليه، أو الرحمة لحيوان يشعر بالعطش. لهذا «دخلت امرأة النار في هرة» و«دخل رجل سقى الكلب الجنة».

بشكل واع حاولت أن أدرب نفسي على أن أشعر بآلام غيري، وتحديدًا هؤلاء الذين لا أحبهم.

أحيانًا بالغت حتى إني عجزت تماما عن مشاهدة بعض الأفلام لأني تلقائيًّا وضعت نفسي مكان أبطالها المتألمين، يشمل ذلك بعض أفلام الأطفال!

لكن الأمر يستحق. حين تداهمني الكراهية والغضب لن أغير من معسكري، لكني لن أنزع إنسانية خصمي.

أبشع الجرائم في تاريخ البشرية حدثت حين تم «نزع إنسانية الآخر»، حين لا يشعر القاتل أنه يقتل إنسانا مثله، بل هو يبيد حشرات ضارة أو يكسر جمادات بلا روح.

أتعاطف مع الجميع، مع آلام أسرتي وأصدقائي، وحتى مع آلام الدكتاتور السابق حسني مبارك حين فقد حفيده، أو آلام الأسرة المالكة البريطانية حين فقدت الملكة. هم أيضًا بشر مثلنا يفرحون ويتألمون. لكن هذا التعاطف يجب ألا يلغي أبدًا تعاملي العقلاني؛ وبالتالي يظل بإمكاني أن أحلل سياسيًّا أسباب صعود وهبوط الربيع العربي، أو أنظر نقديًّا لتاريخ الاستعمار الإنجليزي، لكن هذا التعاطف هو ما يحميني ويحمي الجميع.

الأصل ألا نؤلم بعضنا.

أحلم بوطن أكثر رقة، لا أكثر قوة.

أتمنى أن يكون السياسيون حول العالم أكثر رحمة، لا «ذوي هيبة».

أعرف تماما مثالية أحلام تغيير العالم، رغم أن بعضها قد يتحقق واقعًا بأثمان غالية وعبر قرون. زرت متاحف أدوات التعذيب في عدة دول كان أبشعها متحف أمستردام حيث الأدوات الشيطانية الرهيبة التي استخدمتها محاكم التفتيش الكاثوليكية. اليوم هولندا من أرقى دول العالم بمعايير حقوق الإنسان، وقد زرت اثنين من سجونها وكتبت عن مشاهداتي تفاصيل احترام البشر.[1]

---

(١) السجون الفندقية الهولندية.. لأن الإصلاح والتهذيب بجد ـ المصري اليوم ١٥-٠٥-٢٠١٥ https://www.almasryalyoum.com/news/details/733447

ما أبشـع قـدرة الإنسـان على الشر، وما أجمل قدرته هو نفسه على الخير.

لكني أعرف الآن أن فعالية أي عمل جماعي تتطلب أيضا سياق المسئولية الفردية، ما يمكن لكل منا فعله في محيطه أولا. المصداقية الشخصية أمام الذات تأتي قبل المصداقية العامة.

بينما أفكر الآن دائمًا في اقتراب نهاية عمري، أنظر خلفي وأعرف جيدًا أني لم أكن شخصًا مثاليًّا، لديَّ كالجميع نقائص ومطامع ومصالح ومخاوف وأهواء، لكن أمورًا قليلة جيدة أسعد أني سعيت لها طيلة عمري ومنها ألا أسبب الألم لأي شخص بالمفهوم المادي أو المعنوي، وآمل لو كنت قد تسببت في ذلك لأحد دون قصد أن يسامحني.

كتب سي إس لويس:

«الهدف الوحيد من تأليف هذا الكتاب هو أن أحل المعضلة العقلية التي تثيرها المعاناة، أما بالنسبة إلى الهدف الأسمى حقًّا، وهو تعليم الناس الثبات والصبر، فلست أحمقَ بما يكفي لأعتقد أني مؤهل لذلك. ليس لديَّ شيء أقدِّمه إلى قرَّائي سوى اقتناعي أنَّه حين يأتي الألم، فإن القليلَ من الشجاعة يُساعد أكثرَ من الكَثيرِ من المعرفة، والقليل من التعاطف الإنسانيِ أفضلُ من الكثير من الشجاعة، وأقلُّ لَمسَةٍ من مَحَبَّةِ الله تُفيدُ أكثرَ من ذلك كله..».

شمس وقمر في مهمة إنقاذ

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ (يوسف: ٤)

* * *

١٢ أكتوبر ٢٠٢٢

حين دخل أبي وأمي غرفتي بالمستشفى رأيا ابنهما حطامًا..

كنت قد نُقلت للمستشفى قبل وصولهما بيومين، بعد أعراض قيء مستمر لكل ما يدخل جوفي، وانتفاخ وآلام رهيبة في بطني.

سرعان ما دخل عالمي السرطاني مصطلح جديد مفاجئ. إنه «شلل الأمعاء» paralytic ilius

في الوضع الطبيعي يتحرك الجهاز الهضمي، من المريء إلى المستقيم، في سلسلة انقباضات تدفع كل ما يدخل للأسفل، هذا دور «العضلات الملساء»، وهي العضلات التي تتحرك لا إراديًّا؛ أبرزها انقباضات القلب. لا أحد يفكر ويأمر قلبه لينبض، بل يحدث

النبض والتنفس تلقائيًّا، ويستمر ذلك في أثناء النوم بطبيعة الحال. معجزة مجددة كل لحظة.

لكن حالة «شلل الأمعاء» تعني أن عضلات الأمعاء توقفت عن العمل!

تشبه الأعراض «انسداد الأمعاء»، لكنهما يختلفان تحت الأشعة المقطعية. في الانسداد ستظهر نقطة معينة مسدودة؛ ربما بسبب تراكم طعام غير مهضوم أو ضغط أحد الأورام الثانوية، وبالتالي من الممكن كحل أخير إجراء جراحة لاستئصال الجزء المسدود، لكن في حالتي تظهر انتفاخات عديدة على امتداد المسار وقد تراكم بداخلها الطعام أو الفضلات.

قال الأطباء إن السبب ليس مؤكدًا تمامًا حاليًّا، هل هو بفعل الورم نفسه، أم بفعل الأدوية؟

لكن جاءت الإشاعات تظهر أنباء سيئة أخرى، وهي استمرار تقدم الورم خاصة في الكبد.

وهكذا اتخذ طبيبي قرارًا بإبلاغي رسميًّا بفشل برنامجي العلاجي الرابع!

قال إنه تم إيقاف مزيج الدواء الكيماوي والمناعي الحالي، ولن أعود لتناوله. ثم ماذا بعد؟ قال إننا سنركز على حل الأزمة الحالية، ثم نفكر معًا بعدها إثر نقاش مع «اللجنة متعددة التخصصات». أفهم ضمنيًّا أنه ليست لديه أي إجابة مؤكدة.

ألححت عليه، فقال إنه يرشح فقط برنامج علاج كيماوي بالفم اسمه Lonsurf

بعد مغادرته بحثت فظهر لي أن هذا الدواء لا يدعي أي قدرات علاجية، بل تقول شركته المنتجة إنه يمنح بعض الوقت للمرضى في المراحل النهائية. متوسط عمر من يتناوله ٦-٨ أشهر على الأكثر.. هذا هو الإنجاز الذي تقدمه الشركة كدعاية لمنتجها!

الخبيث غدر بي مرة أخرى، وفي هذا التوقيت بالذات بينما أعد الأيام منتظرًا وصول أبي وأمي.

حين شاهداني كان وزني قد بلغ ذروة انخفاضه. عظام جمجمتي بارزة بشكل غير مسبوق. لم أشاهد قط سابقا ذلك الانبعاج على جانبي رأسي. جلد على عظم حرفيًّا. وجهي شاحب، أمضي أغلب الوقت نائما أو بنصف وعي بسبب كميات هائلة من المسكنات.

انفلات عاطفي ودموع. بكاء بكاء. «تخنقني العَبَرات» حرفيًّا كلما حاولت الكلام.

أكثر ما آلمني هو عجزي عن تقبيل رأسيهما وأياديهما؛ بسبب وجود أنبوب عبر أنفي وظيفته نزح إفرازات الأمعاء.

كانت هذه بداية أيام طويلة في المستشفى أمضيت جانبًا كبيرًا منها صامتًا أتأمل أبي وأمي.

الحركة صعبة جدًّا حيث أصاب الاستسقاء والانتفاخ بطني، وخصيتيَّ، وساقيَّ، وقدميَّ. أصبحتْ لديَّ «قدم الفيل» الثقيلة بكل معاني الثقل. الكلام صعب جسديًّا بسبب الأنبوب في حلقي، وصعب نفسيًّا.

لكني كررت لهما مرارا في أوقات التحسن أني سعيد أني عشت حتى اليوم؛ لأدرك مدى فضلكما عليَّ، وأخبركما بذلك. أنا صنيعتكما، ولم أكن لأكون شيئًا في الحياة لولاكما.

رغم تحفظهما خجلًا أو لأسباب أخرى على أن أفصح عن تفاصيل شخصية، فإني أقنعتهما أن المساحة المباحة من حكايتهما تستحق أن تُروى وأن توثق، لعلها بحد ذاتها بذرة خير قد تنبت وتفيد.

* * *

هذا أبي.. الفنان.

في عام ١٩٨٦ ذهب أبو الغيط؛ طالب كلية الطب بالسنة النهائية، ليخطب فتاة لم يرها من قبل قط!

كانت أسرته قد رشحت له إلهام؛ تلك الفتاة التي تعرفت عليها قبل فترة قصيرة في أثناء زيارتها لصديقة في قريته، وأبهرتها بلطفها ولباقتها.

سمع عنها كثيرا من كل من رآها في ذلك اليوم، ثم عرف أنها ابنة «الحاج يوسف»؛ المدير المرموق بوزارة الري، والذي أنهى مساره المهني لاحقًا على درجة وكيل وزارة، والأهم أنه هو من يتحاكى الناس بكرمه وتيسيره على الشباب في زيجات بناته تحديدا، وهو أب لخمس فتيات وشاب، فقرر خطبتها فورًا، بجرأة غريبة.

سأل الحاج يوسف اثنين من أصدقائه على معرفة جيدة بأبي الغيط، فأفاض كلاهما في المديح، لكن أحدهما حذره بشدة:

«أبو الغيط ده عيلته فلاحين وفقراء جدًّا، وبنتك عمرها ما تستحمل تعيش العيشة دي».

لم يكن الحاج سالم «تقدميًّا» بالمعايير المعاصرة. كان يضرب أبناءه أحيانا، ويمنع بناته من المذاكرة مع صديقاتهن في بيوتهن، وغيرها من التشديدات، لكنه في الزواج كان تقدميًّا جدًّا. النسخة الحية من الحاج عبد الغفور البرعي في المسلسل الشهير.

ذهب إلى ابنته وطرح عليها الموضوع كاملًا وترك لها الاختيار. التقت عريسها وتحدثت معه، ثم اختارت أبا الغيط ذا الأسرة الفقيرة، والاسم غير المألوف.

لاحقًا روى لها أن اسمه كان أصلا «إبراهيم»، لكن لأنه كان الولد الأول بعد فتاتين، وتعرض لمرض حاد، فقد استجاب والده الصوفي لنصيحة بتغيير اسمه لاسم غريب؛ اتقاءً لشر الحسد، فتم تسجيله بشهادة الميلاد «أبو الغيط»، والحمد لله أنها رسيت على كده.

بعد عقود ستدور الدنيا إحدى دوائرها الساخرة، ويصبح الاسم مألوفًا أكثر من اللازم، لأجدني مرارًا أصحح لمن يسألني أن اسمي محمد أبو الغيط مباشرة وليس اسم الأسرة؛ وذلك لنفي أي علاقة لي بأحمد أبو الغيط الذي تولى وزارة الخارجية المصرية، ثم صار أمين عام جامعة الدول العربية، حيث ظن كثيرون أني ربما أكون من ذات الأسرة.

بعد عقود ستدور الدنيا أيضا، وتصبح «الحاجة إلهام» ذات شهرة محلية في توفيق الرءوس بالحلال، لكنها لن تكرر ما حدث

معها، بل ستعترف بجانب القبول الشكلي ضمن عناصر التزويج، وستبدع في ترتيبات وحيل طريفة للمتقدمين المحافظين ليروا بعضهم قبل التقدم الرسمي.

وبالمثل، رغم أنها وافقت على الانتقال للحياة في قرية زوجها، ولحسن الحظ لم يحدث ذلك لأنه استطاع بالكاد تأجير منزل متواضع على حدود المدينة، لكنها اليوم بعدما عركتها الحياة لا تنصح بذلك، بل تضع الفوارق الاجتماعية والثقافية في الاعتبار، وكم رأت في أوساطنا الصعيدية من حالات أسفرت فيها فوارق المدينة والقرية عن فشل العلاقة ونهايتها بالطلاق أو التعاسة.

لماذا وافقت إلهام؟

جانب من الأمر هو طبيعتها الحالمة المثالية دائما، استلهمت عصر الصحابيات الزاهدات وقالت بشجاعة: «ما دام يا بابا نرضى دينه وخلقه يبقى أتجوزه ولو على حصير ووابور جاز!».

قبل زواجهما مباشرة ماتت جاموسة كانت قد نذرتها جدتي لزواج ابنها، فازداد الوضع سوءا. تزوجا بالديون، وظل والدي يسددها عامين. كثيرا ما كرر لي: «الناس بتبدأ من الصفر، إحنا بدأنا من تحت الصفر، وفرحت لما وصلناله في تاني سنة».

جانب آخر هو أسباب عقلانية بحتة، فهو طبيب، أي أن له مستقبلا أمامه كما قال جدي.

والحقيقة هي أن إلهام أعجبت به. أعجبت بطموحه واجتهاده، وهو طالب الطب الوحيد في قريته وكل القرى المجاورة التي لا يصل

فيها الناس إلى الكليات أصلا. كان لبقا، مثقفا، يكتب خطاباته إليها برومانسية قد تبدو غريبة على ابن القرية، لكنها ليست غريبة على قارئ نهم. يكتب لها بخط بالغ الجمال وبأسلوب أدبي مبهر.

رأيت بعض تلك الخطابات بعد عقود، ورأيت لمعة عينيْ أمي، وخجلًا لم يزل يلوح.

كان يكثر من الاستشهاد بالشعر، متأثرًا بجدي الصوفي.

من خلف الباب الموارب، سمعته إلهام وأخواتها يوم تقدم لجدي وهو يعده بحسن معاملتها، مؤكدًا أن نهجه هو التغاضي عن العيوب والنواقص التي لا يخلو منها إنسان بمن فيه هو نفسه مستشهدا ببيت الشعر:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى بالمرء نبلًا أن تعد معايبه

كشف أبو الغيط عن جانب رومانسي يليق بفنان مكبوت، وعدها بنسختهما الخاصة من دلال الأميرات بعد الزواج: ينتهيان من الصلاة معا، فتريح رأسها على قدميه، ويقرأ لها من كتاب «الرقائق» لمحمد أحمد الراشد.

واقعيًّا حدث هذا خلال العام الأول من الزواج فقط، ثم طحنتهما الحياة مع توالي إنجاب الأبناء. تطلب الأمر عقودًا حتى نكبر ونستقل، ويجد والداي وقت فراغ، ليعودا لاكتشاف ميولهما الرومانسية والفنية في السنوات الأخيرة.

لكن وقتها وجد أبو الغيط منفذًا لميوله الفنية في جانب آخر؛ جانب دمويّ!

كان قد تخصص في الجراحة العامة، ثم تبناه د. محمود العطيفي؛ أستاذ جراحة التجميل الرائد في الصعيد، وهو من أسس أول قسم لذلك التخصص بجامعة أسيوط، فتحول مجال عمل أبي الرئيسي إلى جراحة تجميل الحروق تحديدا.

حين أفكر في والدي فإن أول صورة منطبعة له في وعيي هي مشهد دخوله مبتسمًا بانتصار إلى المنزل، فنعرف فورًا أن اليوم تم إجراء عملية جراحية موفقة، وأننا سنسمع عن مغامرة جديدة، لم يفقد ذلك الشغف قط.

بعدما كبرت، وتخرجت في كلية الطب، وحضرت معه بعض العمليات العامة؛ زائدة دودية واستئصال مرارة ونحوهما، شاهدت كيف تولد المتعة الفنية من الدقة البالغة في مكان لمسة المشرط الأولى، من تصغير الجرح سنتيمترًا إضافيًّا، من إغلاق الجرح بغرز بالغة الانتظام كأنه استخدم مسطرة دقيقة. قطعة من الفن حتى لأكاد أصفق فور الانتهاء.

لكني لم أستطع قط أن أحضر معه عمليات تجميل الحروق، أعصابي لا تحتمل كل تلك الوجوه المشوهة والصرخات الملتاعة، لون الجلد المحترق، ورائحة اللحم البشري المشوي، والإفرازات الصديدية اللزجة.

بصبر بالغ ودأب لا ينتهي كان يمنح نفسه لعمله بمستشفاه الحكومي؛ حيث يعالج هؤلاء المعذبين مجانًا.

بل كان يحضر أدواته الجراحية الخاصة إذا حدث عطل أو نقص بأدوات المستشفى، بينما يتوقف أطباء آخرون عن العمل تماما انتظارًا لاستكمال النواقص.

عبر أكثر من ثلاثين عاما كوَّن أبي شهرة خاصة جدًّا، هو الطبيب الذي يحيل المرضى في دفق مستمر من عيادته الخاصة إلى مستشفاه الحكومي المجاني.

يبادر أبي بسؤال المريض: هل تحب أن أجري لك العملية هنا في العيادة، أم في مستشفى خاص، أم في المستشفى الحكومي مجانا إذا كنت لا تستطيع الدفع؟

كثيرًا ما اختار بعضهم المستشفى الحكومي على سبيل «الاستخسار» رغم قدرتهم المالية، ورغم علمه التام بذلك فإنه لم يغير عادته تلك قط.

كثيرًا ما تلقى نصائح بأن يتعامل على قدر الحالة المادية لأسرة المريض، عمل الخير جيد بالتأكيد لكن لتحرص على أن يكون لمستحقيه، ولديك أسرة أولى بكل جنيه، لكنه يقول إنه لا يضمن أن يظلم ولو محتاجًا واحدًا.

وبذات المنطق رفض أي نوع من التعاقدات مع معمل تحاليل أو مركز أشعات يمنحه نسبة نظير توجيه المرضى جبريًّا إليه، وبالطبع يعتبر كتابة الأدوية الأغلى للحصول على سفريات ومزايا الشركات من أكبر الكبائر.

ذات يوم شاهد في عيادته مريضًا محجوزًا بالمستشفى الحكومي في انتظار عملية، فأصيب بغضب شديد، شعر أنها إهانة، صاح فيه وأعاد

له الكشف وتقريبًا طرده من المكان. لاحقا اعتذر له المريض، مؤكدًا أنه اعتاد من أطباء آخرين أن الكشف الخاص هو مفتاح إنجاز الإجراءات بالمستشفى الحكومي.

أتذكر عشرات القصص والنوادر خلال طفولتي.

قصة «أقفاص الفاكهة»: جاءته بالمستشفى الحكومي زوجة تاجر فواكه كبير مصابة بالقدم السكرية، وقد أخبرها كل طبيب سأله أن الحل الوحيد الآن هو البتر، لكن أبي قال لزوجها إنه لم ينتهِ وقت المحاولات، وهكذا عبر شهرين ظل يذهب يوميًّا للعناية بتلك القدم المتقيحة، إلى أن حدثت المعجزة وشفيت السيدة. ظللنا لسنوات نتلقى أقفاص الفاكهة، وهو يؤكد لوالدي كل مرة أن ما فعله معه لم يفعله شقيقه وابن معموديته.

قصة «الأرنب الشارد»: طرقت باب منزلنا سيدة بملابس الفلاحات، فتحت الباب فظهر أمامي صندوق ضخم به حديقة حيوان صغيرة حية؛ دجاج وحمام وبطة وإوزة وأرنب سرعان ما قفز ليختبئ خلف الغسالة!

عرفنا أنها سيدة من قرية فقيرة ولدت ابنتها بعيب خلقي في يدها يجعل أصابعها ملتصقة ومنحنية، لم تعرف قط أن ثمة علاجًا أصلًا، حتى نصحها أحدهم بالذهاب لوالدي في قريته. رحب بها، وأرسلها إلى المستشفى الحكومي، وأجرى عملية جراحية مدهشة مجانا أعادت يدها طبيعية، ثم خُطبت الفتاة بعدها مباشرة.

بعد مستشفاه الحكومي ينطلق والدي إلى عمله الثاني في «المركز التخصصي للحروق» مع د. العطيفي، وهو مستشفى خيري يعالج بالمجان أيضًا، لكنه هذه المرة ممول من منح دولية.

شاهدت بالصدفة ضمن أوراق المركز ذات يوم شعار المعونة الأمريكية؛ يدًا تحمل العلم الأمريكي تصافح يدًا تحمل العلم المصري مع شعار «من الشعب الأمريكي إلى الشعب المصري». أصاب ذلك مشاعري المراهقة الملتهبة وقتها بارتباك، كنت وقتها لا أرى العالم إلا عبر منظار ضيق من الاستقطاب، ولا أصدق أن الأمريكيين قد يأتي من خلفهم أي خير لأهل بلادنا أبدًا، لكن أمام عينيَّ يكذب الواقع معتقداتي السطحية، احتجت زمنًا طويلًا لأفهم تركيب الظواهر الإنسانية والسياسية الأعقد دائمًا من فسطاطي الخير المطلق والشر المطلق.

لقد تم إنقاذ مليارات البشر من الموت جوعًا أو مرضًا بفضل برامج التطعيمات المجانية أو سلات الأغذية من الأمم المتحدة، وأغلب تمويلها من أمريكا والغرب. هذا لا يغير من آرائنا بسياسات أمريكية في منطقتنا، لكن وجب فهم الصورة، خاصة أن مصطلحات «أمريكا» أو «الغرب» تشمل مؤسسات ومجموعات حكومية وغير حكومية بالغة التنوع بل التناقض أحيانا.

يعمل والدي أيضًا حسب الحاجة في مستشفى ثالث، هو المستشفى الخاص الذي يملكه د. العطيفي، وهو يقع في الطابقين الأول والثاني من البناية التي نسكنها.

هكذا عشت طفولة خاصة جدًّا، حيث أمر يوميًّا على مستشفى، اعتدنا أن نسمع من «المنور» الصرخات، ثم يأتي والدي بقصة بشعة جديدة: فلانة سكبت الكيروسين على نفسها وانتحرت؛ لأن أهلها رفضوا تزويجها بمن ترغب، فلانة كانت تطهو بوابور الجاز حين انفجر في وجهها، فلان حاول سد تسريب أنبوبة فانفجرت فيه.. إلخ إلخ.

أضفى هذا على منزلنا نوعًا خاصًّا من القواعد أهمها أن والدي كان يصاب بحالة عصبية إذا رأى أيًّا منا في المطبخ في أثناء الطهي.

يشدد على والدتي بكل حدة على ألا يدخل طفل أبدًا المطبخ في أثناء عمليات الطهي، وأن الأفضل ألا تأكل الأسرة مطلقًا في ذلك اليوم، بالطبع يخطف قلبه كم رأى من أطفال مشوهين أو موتى بسبب تلك الحوادث.

خطفة القلب هذه أصبته بها بعد سنوات، حين شاركت دون علمه في مظاهرات ثورة يناير، واختفيت تماما حيث تم حجزنا نحن في معسكر أمن مركزي في الصحراء خارج المدينة.

قابلت والدي بعدها بيومين في عرض النيابة، انهال عليَّ تأنيبًا ولومًا، فرددت عليه بحدة، ثم سرعان ما تمالكنا أنفسنا، واكتفى بتشجيعي وعرض المساعدات، وقتها كان فاقدًا تمامًا للقناعة بأي جدوى مما يحدث، ولم يصدق أن مبارك سيرحل إلا حين رحل بالفعل.

بعدها مارسنا عليه المزاح السخيف، أحضرنا «تورتة» للاحتفال، وقلت له إن من سيأكل هم الثوار فقط.

كان يجب أن أنجب ابني؛ لأفهم وأحترم خطفة قلب الأب على ابنه.

وكان يجب أن أمر بالهزائم، ومخاوف ومطامع الحياة؛ لأعرف أن الأمل ليس دائمًا «توأم اليأس، أو شعره المرتجل»، وأن العالم مليء بأطياف الألوان بين الأبيض والأسود.

وكان يجب أن أقرأ في العلوم السياسية بصورة أوسع؛ لأعرف أن كل الدراسات تجمع على أن أنجح ثورات التاريخ أصلًا شاركت بها أقلية فاعلة من السكان فقط، من أشهر الدراسات ما أنجزته الباحثة بجامعة هارفارد؛ إيريكا شينوويث التي وصلت بعد دراسة مئات الحركات الناجحة والفاشلة إلى ما تسميه قانون «٣,٥٪»، أي أن التغيير يتطلب مشاركة ٣,٥٪ من السكان فقط، لكن هذا ليس حتميًّا، فرغم أن فرص نجاح الاحتجاجات السلمية كان ضعف فرص نجاح الاحتجاجات العنيفة، فقد فشلت الاحتجاجات السلمية أيضًا في ٤٧٪ من الحالات. رؤية أوسع كثيرًا من تصورات طفولية كنت أتخيل نفسي بغرور وأنا أعتنقها أحكم وأشجع من أبي!

كما كان يجب أن أعرف بعدها صفحة سرية من حياته عبر أحد أصدقائه: لقد تعرض يوما ما للاعتقال في ذات المعسكر بالضبط!

أعرف اليوم كم تعلمت منه، وكم أخذت من نوره قبسًا، بأمور أهم بكثير مما جعلني أنا.

تعلمت منه الشعور بآلام الآخرين والسعي لتخفيفها.

أتذكر مؤسِّسة التمريض الحديث الإنجليزية فلورنس نايتينجيل التي لُقبت بـ «السيدة حاملة المصباح»؛ لأنها كانت تخرج في الليل

حاملة مصباحًا إلى ميادين القتال باحثة عن الجرحى المعذبين من أي فريق، حتى إن بعضهم كان يقبل ظلها حين تمر بجواره.

والدي هو أيضًا «السيد حامل المصباح»، قديس يخفف الآلام بإيمان حقيقي برسالته.

تعلمت احترام الآخرين، وهو الذي تتندر الأسرة بأسلوبه بالغ التهذيب في الحديث؛ حيث ينادي أشقاءه الأصغر منه بـ«يا أستاذ فلان»، بل إنه يتكلم مع زوجتي إسراء فيستخدم تعبير «حضرتك» لتخبره ضاحكة كل مرة: «يا عمو ما ينفعش تقولي حضرتك»، فيقول لها: «وماله الاحترام حلو».

لكنه من جانبه لا يقدم نفسه أبدًا بألقاب، حتى حين يتصل هاتفيًّا يقول ببساطة: «قولوا له أبو الغيط عايزك»، حتى لو كان يخاطب «التمرجي» الذي يعمل في عيادته.

تعلمت أن الكرامة فوق الأموال، لكن الكرامة لا تعني الانتحار. الخوف ليس عيبا، واتقاء الأذى لحماية النفس ومن نحب هو واجب لا جُبن، لذلك يمكن أن نسكت عن قول الحق تبعا لموازين القوى، لكن أبدًا لا ننصر الباطل.

أخبرني بذلك حين أخذت ألقي أبيات الشاعر العراقي أحمد مطر على مسامع ركاب غرباء، أركبهم معنا في أثناء عودتنا من قريتنا، وهي عادة كريمة يمارسها طيلة حياته، خاصة لو كان الواقفون من عساكر يحاولون الوصول إلى موقف المدينة.

كان الركاب يضحكون من ذلك الطفل الفصيح، ومن المفارقات الكوميدية الجريئة في دواوين «لافتات»، بينما أبي عابس لا يلفظ بكلمة تشجيع. أفهمني بلطف بعد نزولهم لماذا يجب عليَّ الحذر وألا أنطق بهذا النوع من الحديث أمام الغرباء أبدا.

كذلك تعلمت فن «التغافل» الجميل الذي حدثني عنه مرارًا، وطبقه معي أيضًا. في مراهقتي تأثرت لفترة قصيرة بأفكار سلفية؛ لذلك يوم فتح أبي شريطًا لياسين التهامي غضبت وقلت له إن هذه بدع، رد عليَّ باقتضاب وبهدوء، لم أقتنع وبدأت خطبة عصماء، فأوقف الشريط دون نقاش ولم يتحدث في الموضوع معي قط، إلا حين عدت أنا إليه بعد سنوات لأذكره بالموقف وأخبره كم كنت أحمقَ جلفًا، وكم كان قلبه واسعًا وفاهما بطبيعة مرحلة التمرد الغبي بالمراهقة. لو كان قد صمم على كسري لازددت عنادا، لكنه عرف ببصيرته أن هذا الجانب دخيل عليَّ وهي فترة وستنتهي.

وبذات الروح المتسامحة تقبل بهدوء اختياراتي الحياتية المختلفة تماما عن تصوراته لمستقبلي. كان يفترض أن أعمل معه طبيبًا وأتعلم من خبراته، وأن أتزوج طبيبة من بنات أصدقائه، فإذا بي أغير كل شيء.

كان يتذمر ويطلب مني التركيز في دراستي، لكنه في ذات اليوم يسعد حين يخبره أحد أصدقائه أنه شاهد ابنه في برنامج محمود سعد أو يسري فودة، ولا يتحدث عني إلا بالرضا والفخر. لاحقًا طلب خصيصا الحصول على هاتف ذكي والاشتراك في «فيس بوك» ليقرأ ما أكتب، رغم اختلافه السياسي والفكري مع العديد من آرائي.

تعلمت منه العرفان بالجميل، والتعبير عن ذلك علنا، وقد كنت أرى كم يكرر عرفانه لأستاذه د.محمود العطيفي.

في إبريل ٢٠١٧ فُجع والدي بوفاة والده الثاني د. محمود، وقد كانت نهاية درامية، لشخص عرف بأنه يحافظ على صحته ويمارس الرياضة بانتظام، لكنهم وجدوه متوفيًا بشكل مفاجئ في حمام السباحة في فندقه في غانا في أثناء رحلة تابعة لمنظمة «أوبيريشن سمايل»، المتخصصة في إجراء عمليات تجميل مجانية للأطفال في دول إفريقية. كان في مدينة تبعد عن أكرا العاصمة خمس ساعات في طريق بري وعر، وذلك بعد أسبوع من رحلة خيرية أخرى لأجل أطفال جزر القمر.

أشهر عمليات تلك المنظمة هي إصلاح «الشفة الأرنبية»، وهي من أكثر العمليات التي كانت تُسعد والدي. هذا هو سحر الجراحة الذي اجتذبني لها حين كنت طبيبًا قبل أن أغير المسار. أن ترى بعينيك نتيجة عملك فوريًا. وأي شيء أكثر إسعادًا من طفل وُلد بوجه مشوه، أصبح بإمكانه الآن أن يمنحك ابتسامة جميلة.

وقتها كتب والدي نصًا في رثاء أستاذه، وطلب مني نشره على صفحتي على «فيس بوك»:

«إليك يا من أخصه بحب لا أخفيه، كنت لي نعم الوالد الحنون، والأستاذ المعلم، والمربي الفاضل، كنت أشكو إليك همي وأجد عندك ما يطمئنني.

كنت في السنوات الأخيرة أنتظر عودتك من كل سفر لأسلم عليك، وأقبل رأسك عنوة لأنك ترفض أن أقبل يديك.

لا أنسى أبدا وقوفك إلى جواري، وقد انتشلتني من قاع الفقر والحاجة إلى منزلة لم أكن أحلم بها، وكنت أداعبك وأقول إنني طلقت الفقر منذ أن عرفتك، كنت تكره أن أثني عليك أو أتحدث عن فضلك عليَّ، وكنت تقول: أستغفرالله العظيم، وكنت أقول لك: استغفر ما تشاء لكن الفضل يجب أن يعود إلى أهله.

رحمك الله يا أستاذي الفاضل وغفر لك، وإلى لقاء في عالم آخر أرحب وأفضل من عالمنا...».

حين كتبت نصوصًا تحمل عرفانًا لأساتذتي بالصحافة وأصحاب الفضل عليَّ في مناسبات متنوعة، مثل أ. وائل جمال، أ. محمد موسى، أ. نورا يونس، أ. أحمد الصاوي، أ. عمرو خفاجي، وعديدين غيرهم، كنت في لا وعيي أطبق ما تعلمته من والدي.

وتعلمت أن الخير لا يذهب هباءً.

لم يلقَ والدي أي تقدير مباشر من جهة عمله، إلا اختيارات رمزية له كـ «طبيب مثالي» عدة مرات، تم تتويجها في عام خروجه للمعاش عام ٢٠١٧ باستدعائه إلى القاهرة لتكريمه ضمن القيادات المميزة بوزارة الصحة. سعدت الأسرة بنشر الخبر مع صورته في عدة صحف.

رغم المعاش استمر والدي في العمل متطوعًا؛ لأن غيابه كان يعني غلق قسم الحروق الذي خلا من الأطباء إلا هو، ولم يتوقف إلا حين جاء طبيب آخر بعد أكثر من عام، وذلك في استمرار لظاهرة انقراض تخصصات الطب الصعبة في مصر.

لكن الخير يعود خيرًا، حتى لو ألقيته في البحر، بل بالذات لو ألقيته في البحر دون حساب.

منذ آلاف السنين نحتت الفلسفات والديانات الشرقية مثل البوذية والهندوسية مفهوم «الكارما»، وتعني باختصار أن أفعال ونوايا الفرد تؤثر على مستقبله، فيجذب عمله الخير خيرًا، بينما تجذب «الكارما» السيئة التعاسة.

لكن لا حاجة لي للبحث بعيدًا فقد رأيت ذلك بعينيَّ والله..

كأن كرم جدي مع والدي في زواجه، عاد ليُرد إليَّ كرمًا من والد إسراء في زواجي.

وكأن مواقف أمي الأصيلة مع أبي في أثناء تعثره المالي في البدايات، عادت لتُرد إليَّ من إسراء الأصيلة الشهمة.

وكأن خير أبي المنثور بلا حساب، عاد ليُرد إليَّ وإلى إخوتي في مفاجآت منثورة بدورها. كمثال واحد: حين تم القبض عليَّ شك الضباط ذات يوم أن لدينا هاتفًا محمولًا مهربًا، فأخرجونا جميعًا لتفتيش بالغ الإهانة. جاء نصيبي مع عسكري سألني عن اسمي، فقال: إنت ابن الدكتور أبو الغيط الجراح؟ قلت: نعم، فقال: والدك أجرى عملية مجانية لقريبي، ده راجل طيب، مالك ومال السكة دي؟ ثم تظاهر أنه يفتشني دون أن يلمسني، بينما أشاهد أمامي رفاقي يخلعون البناطيل.

حتى عادة أبي في إيقاف السيارة لتوصيل الغرباء، رُدت بذات الموقف بالضبط.

تعلمت أن رقة القلب، وحضور الدموع لا تعيبان أشد الرجال بأسًا. طفرت عيناه حين رأى حطامي، ومن أرق وأقوى منك يا أبي؟

* * *

١٧ أكتوبر ٢٠٢٢

ما زلت في المستشفى، والأوضاع تواصل الانهيار.

كشفت الأشعة المقطعية الأحدث عن تقدم الورم بفارق أسبوع واحد عن الأشعة السابقة، كما كشفت أيضا استمرار الانسداد، وهو ما تؤيده أعراضي: آلام رهيبة، وانسداد تام حتى أصبح إخراجي بعض الغازات حلما جميلا!

يحاول أبي وأمي وإخوتي تسليتي بشتى الطرق خاصة في أوقات تراجع الألم؛ بفعل جهاز تم تركيبه لي عبارة عن محقن آلي يحقن باستمرار مشتقًّا من المورفين، وهو كفيل بإزالة آلامي وإزالة جانب من وعيي.

قاموا بتقسيم أيام المبيت، فوجدتها فرصة لأتعرف عليهم من جديد. أسرتي التي فارقتها مبكرًا جدًّا وانشغلت عنها. أنا الأكبر في خمسة إخوة، لم أعرف منهم حقًّا إلا أخي الأصغر مني بعامين، الصيدلاني الذي يدرس في دولة أوروبية حاليًّا، بينما غبت عن الباقين في مفترق مراهقتهم وطفولتهم. كنت ألهث خلف التوفيق بين دراستي الطبية وطموحاتي الأدبية، كثير السفر للقاهرة لأجل

ندوة شاعر، أو حفل توقيع كاتب، أو لقاء رفاق من «منتدى روايات» في عصر ما قبل الفيس بوك.

في ٢٠١٠ فزت بالمركز الثالث على مستوى الجمهورية بمسابقة مكتبة الإسكندرية للقصة القصيرة. ملأني ذلك ثقة في طريقي؛ حيث سأجمع الطب مع كتابة الروايات والقصص.

ثم جاءت الثورة، وتغيرت حياتي كما تغيرت مصر، تحولت للعمل صحفيًّا، وانتقلت للقاهرة، وبدأت بناء عالمي الجديد، عالم لم ألتفت إلى خلوه تدريجيًّا من أسرتي، وهو ما توج بسفري نهاية ٢٠١٥ إلى لندن.

لسنوات بعدها سيبقى اتصالي بأسرتي في أدنى الحدود، والسبب الرئيسي هو عامل نفسي؛ حيث تشعرني المكالمات الهاتفية ومحادثات الفيديو بالبعد لا القرب، تُشعرني كأني في منفى خارج وطني، وهو ما كنت أعيش حالة إنكار له، لم أستوعبها إلا بعد سنوات.

كم كنت غبيًّا! كان بإمكاني بشكل أو بآخر ترتيب أن ألتقي أهلي طيلة هذه السنوات، لكني لم أفعل. أنا الذي طالما نصحت بعدم تأجيل عمل اليوم للغد، قمت بتأجيل «الأنس بالأهل» اليوم، و«العناية بالصحة» اليوم، وغيرهما من بنود طارئة إلى الغد وبعد الغد.

لكم حلمت أني أعرِّف أمي بشوارع ومعالم لندن، وأني أستمتع بمشاهدة جانبها الطفولي وهي تنبهر بشيء جديد، أو تحادث شخصا غريبا. ظل حلمًا مؤجلًا، لكني على الأقل شهدت تحقق جزء منه رغم كل شيء.

الآن أتساءل: من أنتم حقًّا يا أبي وأمي، ويا شقيقي ويا شقيقتي؟ تركت أخي وأختي مراهقيْن، ثم هما اليوم فجأة طبيبة أورام ومهندس برمجيات ملء السمع والبصر.

ما زال أبي يتغنى بالشعر. يحثني على التفاؤل رغم كل الحقائق العلمية، فينشدني من شعر ابن ميادة بالعصر العباسي:

مُنًى إِن تَكُن حَقًّا تَكُن أَحسَنَ المُنى

وَإِلّا فَقَد عِشنا بِها زَمَنًا رَغدا

أشعر بأنه يتلذذ حقًّا وهو يشرح كلمات البيت، ثم ينتقل لديوان الشافعي ويتغنى من أبياته المفضلة:

دَعِ الأَيامَ تَفعَلُ ما تَشاءُ

وَطِب نَفسًا إِذا حَكَمَ القَضاءُ

وَلا تَجزَع لِحادِثَةِ اللَيالي

فَما لِحَوادِثِ الدُّنيا بَقاءُ

وما زالت أمي حالمة مثالية، تهرب من الأحاديث العلمية الكئيبة إلى نثر التفاؤل وإيجاد إيجابيات ما في أشد الأوضاع سوادًا، ولعلي منها تعلمت قاعدتي القديمة إن «السعادة إرادة»، قبل أن تهتز إرادتي أمام ضخامة الكارثة.

تسألني: هل تذكر الأغنية التي كنت أغنيها لك؟ أقول إني نسيت، فتذكرني: أغنية «إلهي يحرسك من العين وتكبر ليًّا يا محمد» من غناء فايزة أحمد.

أتعرف على الطبيعة على اللغتيْن العملية والعلمية لأختي؛ لذلك منذ البداية توصلنا لصيغة أني أخبرها بالتطورات وأرسل لها التقارير، وتتولى هي بطريقتها شرح ما يحدث للأسرة.

أكتشف اهتمامات أخي الكوميدية، حتى إنه يتركنا مرتين ليذهب إلى «كوميدي كلاب» في لندن ليشاهد نجوم «ستاند أب» الإنجليز الذين لا أعرف عنهم شيئًا. يحدثني عن قراءاته في المجال بما يؤهله ليكون ناقدًا كوميديًّا من طراز خاص. يسهر معي ويعرض أن ينشئ لي موقعي الإلكتروني الخاص، ونتناقش في الألوان والأشكال. صداقة جميلة كم أندم أنها تولد متأخرا.

وهم بدورهم يتعرفون عليَّ، يسألون عن تفاصيل عن عملي وحياتي وأفكاري.

أحاول التسرب إلى ثنايا أبي وأمي لأعرف أكثر عن تاريخ الأسرة وبعض صفحاته المخفية، وهو شغف بدأته بعد المرض.

ذات يوم جمعنا جدي لأمي ليحكي عن تفاصيل حياته كلها، حكى كل شيء حتى وصل إلى عبارة مقتضبة: «ودخلت المعتقل سنة ٦٥، وخرجت سنة ٧٢». كنا أطفالًا ولم نفهم، وسكتنا رهبة.

قبل وفاته بأيام انزاح الغطاء عن ساقيه فشاهدت خطوطًا غريبة عليهما. ظننتها من أثر المرض، سألت أمي فهمست باقتضاب: دي من أيام المعتقل.

منذ هذه اللحظة كرهت التعذيب والمعذِّبين، وكرهت عبد الناصر كراهية شخصية، أصبحت أردد: احتجت سنوات للوصول لموقف

أعتبره موضوعيًّا، وأدين بالفضل لذلك لقراءتي «شرف» لصنع الله إبراهيم، وكذلك «رسائل الواحات» لعبد العظيم أنيس، وكلاهما تعرض للاعتقال في عهد عبد الناصر وشهد التعذيب، ولا ينكر أبدًا فداحة أثر ما حدث ودوره في فشل التجربة كلها، لكنهما رغم ذلك استطاعا النظر بموضوعية لإيجابياتها الهائلة وما يتفقان به معها.

الآن فقط، وبعد كل هذه السنوات، أبحث عن أثر لجدي، أجمع بعض نتف القصة الغامضة.

والدتي لا تعرف إلا أقل القليل، فقد كان خيار جدي هو إسدال الصمت.

عاد من المعتقل إلى منزله ليجد صورة ضخمة لعبد الناصر؛ معذِّبه، معلقة في الصالة. لم يكن هذا اتقاءً للشر، فقد توفي قبل عامين، والرئيس الحالي هو السادات لا عبد الناصر. لم أعرف قط دوافع جدتي لفعل ذلك. ما تذكره أمي من طفولتها أنه لم يعلق، وبصمت وهدوء نزع الصورة من مكانها في اليوم التالي ووضعها في المنور.

عام ١٩٦٥ يحيل مباشرة إلى تاريخ تنظيم سيد قطب. لكن جدي لم يظهر قط أي علامات على اعتناق أفكار قطب التكفيرية مثل تكفير المسلمين غير مطبقي «الحاكمية» أو «العزلة الشعورية» أو «المجتمع الجاهلي» أو تجميد الاجتهاد الفقهي.

قبل أشهر تزامن مع مرضي أن ثارت معركة على مواقع التواصل حول تراث قطب وكونه سببًا في الإرهاب أم لا، وتراشق الكاتب

بلال فضل وأنصار قطب بمقاطع الفيديو والمنشورات، وفي سياقها تمت إعادة نشر واسعة لمنشور(*) قديم لي كنت جمعت فيه آراء الشيخ القرضاوي شخصيًّا حول التكفير عند قطب، وهي نصوص مصدرها يعجز عن المزايدة عليه من يحاولون اللعب على الحبال والتوفيق ببهلوانية بين تقديسهم لقطب لأسباب فكرية متنوعة وبين أفكاره التكفيرية التي ينكرون وجودها أصلا، رغم مدى فجاجتها وصراحتها، والأهم هو عمليًّا استخدام مناهج تنظيمات الإرهاب لها عبر عقود منذ قتل جماعة التكفير والهجرة للشيخ الذهبي عام ١٩٧٧ وحتى سبي داعش للأزيديات قبل سنوات قليلة.

استعنت بصديقي الصحفي أحمد الدريني الذي عمل على فيلم عن سيد قطب، فقام بمراجعة كامل قائمة الأسماء المحكوم عليها بقضية التنظيم ولم يجد اسم جدي. ماذا يعني هذا؟ هل أمضى جدي سبع سنوات دون محاكمة أصلا، أم ربما نال حكما في قضية منفصلة؟ مرة أخرى جدار الصمت.

الأسرة لا تعرف شيئًا إلا أن ملابسات القبض عليه كانت بالغة الغموض، فقد اختفى تمامًا عامين كاملين، فصله عمله لأنه اعتبر متغيبًا فلا إثبات على أنه مقبوض عليه، ولولا زيارات مخبرين لإرهاب المنزل ما فهمت الأسرة أن الأمر له علاقة بالسياسة. لكنه أيضًا بعد خروجه

(*) https://www.facebook.com/mohamed.aboelgheit/posts/pfbid02Sg2aytXSJwUybuhJVGn5H4e9HDJiYtRL3kNX8ByK1szUvmvhkgHuFfpQ9ZUFpqfbl

استعاد بأثر رجعي عمله الحكومي، وكامل راتبه عن تلك السنوات، وترقياته، وكذلك مبلغ تعويض مجزٍ، كأن شيئا لم يكن.

لكن وجد الدريني خيطًا واحدًا فقط يحمل اسم جدي في مذكرات أحمد عبد المجيد، وهو أحد المحكومين في القضية. في فقرة عابرة يقول إنه شاهد منظرًا لن ينساه أبدًا، وهو للأخ يوسف من طهطا (مسقط رأس جدي في سوهاج) الذي عانى إصابات جسيمة في ساقيه، حتى إنه «عند غيار العريف الممرض له كان كلما لمس نقطة في رجله أو عند إزالة القشرة الخارجية للجرح انبثق منها القيح بغزارة». إنها ذات الإصابات التي شاهدتها طفلًا بعدها بعقود وظلت شبحا مرعبا في خيالي!

تذكر أمي أنها سمعت جدي مرة في أثناء محاولاته علاج آثار التعذيب بساقيه يذكر أسماء شمس بدران وحمزة البسيوني متلعنًا عليهما، فأخبرتها أنهما وزير الحربية ومدير السجن الحربي وقتها، وهما تحديدًا للمفارقة حوكما بتهمة التآمر للانقلاب ضد جمال عبد الناصر لصالح عبد الحكيم عامر، في خطة شملت تخزين السلاح بمنزل أسرة عامر، وكذلك تهريبه للجبهة ليستعيد قيادة الجيش بالقوة.

اندهشت أمي، فتسليت برواية القصة كلها، مستعيدًا ذكريات إبهاري لها بما كنت أقرأ في طفولتي. بشغف أريتها صورة الصفحة الأولى لجريدة الأهرام بتاريخ ١٨ يناير ١٩٦٨، والتي نشرها المؤرخ د. خالد فهمي، وتحمل اسم شمس بدران ضمن ٥٥ متهمًا،

تآمروا «لمحاولة الاستيلاء على قيادة الجيش» و«إحداث فتنة بالقوات المسلحة».

لقد كان أكثر من أظهروا التشدد والإجرام ضد خصوم النظام هم أول من حاولوا الغدر به والانقلاب عليه، فلم يكن ولاؤهم حقيقيًّا إلا لمصالحهم. لكن هل يمكن حقًّا أن يتعلم البشر من التاريخ، أم يجب أن يعيد نفسه كمأساة، أم لا حل إلا محاولة محو التاريخ لحماية الحاضر، كما حاول جدي أن يفعل بصمته الطويل؟

هل يمكن أن يمحو الصمت والزمن أي شيء؟

يا ليت هذا كان ممكنا في حالتي؛ إذًا لخرست للأبد..

ومن الغريب أن يشمل تاريخ أسرتي قصة أخرى شبيهة في غموضها وملابساتها، حين فهمت من همسات أبي وأمي أنه حُكم لصالحه في قضية تعذيب. أبي أنا تمَّ تعذيبه؟

لم يحك القصة لنا قط، ولم أعرف عنها شيئًا قط، حتى جاء الوقت الذي أصبحنا فيه وحدنا، أنا وهو في غرفة المستشفى. أتحسس بحذر مشاعره وأسأله تاركًا له المجال للصمت لو أراد ألا يحكي.

أحمد الله أن الأمر كان أقل من كل الكوابيس التي عشتها طفلا. ليتني سألت مبكرا، لكن هل كان سيجيب؟

حكى أنه في مطلع الثمانينيات بعد اغتيال السادات، وأحداث الهجمات الإرهابية في أسيوط على مديرية الأمن، والتي سقط بها ١٨١ قتيلًا، منهم خمسة ضباط وأكثر من مائة جندي وعشرات المدنيين. أصيبت الداخلية بحالة هستيرية فحدثت اعتقالات

واسعة جدًّا لكل من له أي صلة بالجماعات الإسلامية، بل لأي شخص يطلق لحيته أو يصلي بمساجد يرتادونها.

سابقا أكد لي والدي أنه لم يكن في أي لحظة عضوًا منظَّمًا بالجماعة الإسلامية، أو تنظيم الجهاد الذي نفذ الهجمات، بل قد روى لي ذات مرة بفخر كيف حمى شابًّا مسيحيًّا في المدينة الجامعية من بطشهم، حين كان الجنون وفُجر القوة في ذلك الوقت يبلغ بأعضاء الجماعات الإسلامية أن يحتجزوا طلابا مسيحيين، ثم يساومون الأمن على إطلاق سراحهم مقابل مطالب ما.

لكن والدي كان جزءا من تلك الحالة الواسعة التي احتضنت الشباب الريفي الطموح المحافظ في ذلك الوقت في ظل تشجيع من الدولة في عصر السادات، حتى إنه كان يُسمح لهم بعقد أكبر الندوات والمناظرات، ويتم تخصيص المدينة الجامعية لهم في الصيف ليقوموا بتنظيم معسكرات يأتي بها شيوخهم. روت لي أمي أنها وجيلها تعرفوا على الحجاب في هذه المعسكرات الصيفية المقامة بدعم حكومي.

كانت بلاغة أبي وثقافته الدينية مؤهِّليْه لنيل الحظوة لدى أعضاء تلك الجماعات، لا ليتصدر أي عمل سياسي، لكن ليخطب الجمعة أو ليلقي الدروس، وهذا كافٍ جدًّا لاعتقاله.

قال إن العساكر كانوا غاضبين جدًّا، يقولون: «أنتم قتلتم إخوتنا» وينهالون عليهم بالضرب بالأحزمة والبيادات في كل مرحلة انتقال وعند كل فرصة.

حشروا أبي مع العشرات في زنزانة بالغة الضيق، وعذبوهم بالتجويع فلم يسمحوا إلا برغيف خبز حاف واحد لكل شخص في اليوم، وبالخروج للحمام مرة واحدة فقط في اليوم. أصيب أبي بإسهال، حاول الاستغاثة، لا مجيب، فتبرز على نفسه، وظل على ذلك الوضع الكريه حتى اليوم التالي. قال إن هذا أبشع ما حدث له في حياته.

اليوم فقط أفهمك يا أبي، أفهم نفورك من الثورة والمظاهرات والسياسة، أفهم خوفك علينا بعدما رأيت البطش والسواد على الجهتين، ووصلت إلى قناعتك الخاصة بأصعب الطرق. فهمتك متأخرًا لكني فهمت.

* * *

١٨ أكتوبر ٢٠٢٢

رغم كل شيء لم يداخلني الشك في أن الأزمة ستنتهي بطريقة أو بأخرى، حتى ذلك اليوم، حين جاء استشاري الجراحة ضمن وفد من أطباء وممرضين. شعرت بالهيبة من طريقة دخولهم معًا، عرفت أن أمرًا جللًا سيتم إعلانه.

قال الطبيب إن حالتي في يومها الثامن لا تبدي أي استجابة لمحاولاتنا، بما في ذلك تناولي سائل «جاسترو جرافين» قبلها بثلاثة أيام، وهو ذو أثر بالغ الحدة في تحريك الأمعاء وتوليد الإسهال، لكنه لم يسفر معي إلا عن نوبة قيء رهيبة. انهال السائل مختلطًا بعصارة صفراء حامضية من أنفي وفمي، وفهمت تعبير «كادت روحي تخرج معه».

واصل الطبيب: الحل الجراحي الوحيد المطروح هو عملية تحويل مسار إخراج الفضلات إلى كيس يخرج من بطنك، وسيبقى هذا هو وضعك حتى نهاية حياتك!

قلت له: كنت أظن أن المطروح هو أن هذا إجراء مؤقت ثم يعاد وصل الأمعاء، لكنه قال إن هذا غير وارد في حالتي بالنظر إلى وجود عدة مواضع للاختناق بالجزء العلوي، وليس هناك اختناق واحد سفلي، وكذلك بالنظر إلى كون التحاليل أظهرت وجود الخلايا السرطانية حرة في «السائل البريتوني»؛ وبالتالي سيعوق هذا أي التئام.

قبل أن أستوعب الصدمة واصل حديثه: لكن بالنظر إلى كون بروفيسور أركناو قد أخبرنا بوقف علاجك بعد فشله مرة أخرى، فإن سؤالنا هو: هل يستحق الأمر ذلك؟ خيارنا الحالي سيظل محاولة الوصول لحل بلا جراحة، لكن حان الوقت لتضع في الاعتبار خيارات غير محببة أخرى.

قلت له: تحدث بصراحة، أنت تقصد أنه حان وقت الانتقال إلى العلاج التلطيفي؟

قال: أقول إننا اقتربنا جدًّا، وسيكون عليك اتخاذ القرار، هل تريد أن «ينتهي الأمر» في المستشفى، أم في منزلك؟

فوجئت بنفسي أبكي، صوتي يتحشرج، أفقد القدرة على تكوين عبارات ذات معنى.

ارتبك الجميع.

بالكاد قلت له إنني سأواصل المحاولة بالطرق غير الجراحية ولنرَ ما سيحدث، فوافقني على ذلك وقال: فلنجرب غدا جرعة «جاسترو جرافين» أو «باريوم» أخرى.

شعرت بصدمة كبيرة. رغم أن شعوري الغالب هو أني سأموت بذلك المرض، لكني كنت دائمًا أتهرب بالتفكير في أن أرقامي تقول إنه ما زالت أمامي أشهر على الأقل. لا فشل كبدي حاد ولا دمار ضخم في المخ أو الرئة.

أدركت فجأة كم كنت أعيش في الإنكار والتهرب، كما أدركت فجأة كم أنا متشبث بالحياة ولا أريد الاستسلام أبدًا لفكرة رحيلي الوشيك مهما كانت واقعية.

فورًا دخل طبيب «إدارة الألم» فور مغادرة وفد الجراحة، وقد كانت لحظة مثالية؛ بسبب شعوري بهلع رهيب من الموت وسكراته، ومن أني سأعاني آلاما أبشع في مستقبلي القريب.

أحب هذا الرجل؛ د. فوير، وأشعر معه بالثقة في قدراته السحرية على تخفيف الآلام، وإخلاصه لهذا الهدف.

سألته: أريدك أن تخبرني بوضوح، لو وصلنا إلى ذلك القرار، هل ستكون نهايتي دون ألم؟

قال لي: ثق بي، أضمن لك أن تكون النهاية بلا ألم، وبلا وعي، وأن «ترتاح في سلام».

سيتضمن الأمر جهازًا يضخ بالدم جرعات مستمرة مرتفعة من المورفين تضعني في حالة بين الوعي واللا وعي، وتزيل الآلام كافة.

لاحقًا تحدثت مع صديقي د. الدسوقي أحمد؛ الطبيب المصري في ألمانيا، والمختص بالعلاج التلطيفي حيث يعمل مع مرضى سرطان الرئة في مراحلهم النهائية. كان حديثه بردًا وسلامًا.

أكد لي ما كنت أعرفه سابقًا، وهو أنه لا شبهة للانتحار في قرار كهذا إذا حان وقته، فقد حاولت طويلًا العلاج. قال إن لدينا في التراث الإسلامي سوابق لذلك في باب أحكام «المريض الذي لا يُرجى برؤه»، فالأمر مطروق منذ قرون، وما نفور أبناء الشعوب الشرقية عادة منه إلا بفعل العادات والأعراف.

قال إنه يمكن أيضًا إضافة أحد مشتقات مادة «بينزودايازيبين» المهدئة مع المورفين، وهكذا تزول مشاعر الخوف والفزع، ويحل السلام.

أعرف ما يقصده، فقد تعاطيت عقار «لورازيبام» من تلك الفئة لفترة سابقة عانيت فيها من نوبات الهلع. فور تعاطيه أشعر داخليًّا بالهدوء التام، رغم أي صخب محيط.

بقدر ما أشعر دائمًا بالإهانة لغروري البشري حين أعترف بسيطرة الكيمياء على مشاعرنا التي نحسبها أكثر تعقيدًا ورقيًّا، بقدر ما طمأنني وجود حلول واضحة.

لكني بعد اطمئناني لتلك النقطة وجدتني فجأة أتجاوز التفكير فيها تماما، لأنتقل من مشاعر الفزع إلى مشاعر الغضب الشديد.

غضب من ذلك الغادر، وإصرار تام على أني لن أسمح أن يحدث هذا لي.

قررت أن اليوم التالي سيكون يومًا للعذاب لكني سأحتمله كي أنجو، سأخفض جرعات المسكنات الهائلة التي أتعاطاها؛ لأن من أعراضها الجانبية بطء حركة الأمعاء، وكذلك سأتعاطى كمية أكبر من ذلك السائل المسهل «جاسترو جرافين» مهما كانت آثاره المؤلمة.

رغم أني غير متحمس كثيرا لتوصيف «مقاتل السرطان» الذي يضفي توقعات معينة قد لا تتوافق مع كل المرضى، وقد تمثل عبئا عليهم، لكني في هذه اللحظة تحديدًا استحضرت تمامًا ذلك الوصف.

سأقاتله وأنتصر عليه في هذه الجولة على الأقل بأي ثمن. سأقدم الكثير من الآلام قربانًا للوحش عله يرضى ويفلتني من أنيابه ولو قليلًا.

كانت أختي تترجم المحادثات لأبي وأمي. المزيد من الدموع والبكاء والصمت التام، فالموقف أكبر من أي حديث.

فقط قال أبي باقتضاب إنه يمكن أن نسأل د.جورج حنا لعل لديه شيئًا من خارج الصندوق. روى لي أبي أنه جاءه مريض بحالة «انسداد أمعاء»، وكان يفترض أن يقص الجزء المسدود ويعيد وصل الأمعاء، لكنه بعد فتح البطن وجد موضع الانسداد كرة ذات ملمس يقبل التفتت والحركة، فدفعها بأصابعه ببطء حتى وصلت إلى فتحة الشرج، ليظهر أنها كتلة من قشور اللب! وهكذا حُلت الأزمة دون إتمام العملية نفسها.

أشرقت ذرة أمل، لكن ظهر أن د.جورج مسافر خارج بريطانيا. اكتمل الحصار.

لكني لم أعرف أن أمي قد عادت إلى المنزل، وقد وضعت بدورها خطتها الخاصة..

* * *

وهذه أمي .. الملاك.

حين تزوجت الشابة إلهام ابنة الأسرة المدينية المتوسطة، لم يخطر ببالها حقًّا معنى «شظف العيش».

فوجئت بعد الأيام الأولى بزوجها يصارحها بأنه يدفع كامل مرتبه يوم قبضه لسداد ديون الزواج؛ مما يعني أن حياتهم باقي الشهر تتوقف على دخل غير منتظم من عمله بمساعدة أطباء أكبر، وكذلك على دخلها الضئيل كمعلمة مبتدئة «بالحصة».

لم تتوقف إلهام كثيرا عند غياب اللحوم التي كانت تأتي فقط كهدايا من القرية، لكنها تأثرت بغياب الفواكه التي تزامنت مع غياب زوجها أيضا؛ فقد كان يبيت أيامًا في عمله بالمستشفى.

صارت تتعمد زيارة منزل أهلها لتأكل من الفاكهة لديهم، لكن دون أن تلفظ حرفًا عن معاناتها، بل بالعكس، تتعمد أن تقول: «النهاردة جوزي اشترى لنا كذا.. دخل عليَّ بكذا!».

تخيلت أمي نموذجًا يوضع في القاموس ويُشار له بسهم مكتوب عليه «زوجة أصيلة»!

ربما لهذا صارت بعد تحقق الازدهار المالي تحرص على وجود فواكه طازجة دائما بالمنزل. لم تعبأ قط بلمعان الذهب، بل بألوان الفواكه.

لم تكن والدتي تحب المطبخ، ولطالما قالت إن تضييع ساعات طويلة في عمل أصناف المحاشي ونحوها هو أمر رائع للبعض لكن ليس لها، لكن أصنافًا معينة تخصصت فيها، ومنها «سلطة الفواكه» التي طالما أعدتها بإتقان وتفنن، بعدما كبرت وعرفت القصة صارت لتلك السلطة قيمة معنوية أهم من قيمتها الغذائية.

أيضًا لطالما أحبت أمي مشاعر الاكتشاف والفضول، كأن بها جانبًا طفوليًّا لا يزول أبدًا، ولعلي منها أخذت شغفي بتجربة كل جديد من السفر والتعرف على الغرباء، إلى تذوق أصناف الطعام الجديدة، وهي أمور حُرمت منها أيضًا في بداية زواجها.

سرعان ما كشفت الأيام عن نواقص أهم من الفاكهة: أين طفلك؟

كان قد مر على زواجهما نحو عام، وهي فترة كبيرة في الصعيد، لتبدأ التساؤلات الهامسة تتصاعد، خاصة في قرية زوجها. بحكم العادات الظالمة تتجه الأنظار غالبا إلى الزوجة لا الزوج، رغم أن السبب علميًّا قد يكون من أيهما.

أخبرها أبي أن الوقت ما زال مبكرا، ورفض أن يذهبا إلى طبيب، لكنها قررت أن تذهب لطبيبها الخاص: الله.

قرأت أن في يوم الجمعة «ساعة استجابة»، أي أنها «لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه». ما هو ذلك التوقيت بالضبط؟ اختلفت الآراء، فقررت أن تغطيه كله. في ذلك اليوم جلست في شرفة منزلها وحيدة، وظلت تدعو من الظهر إلى المغرب. شعرت بذلك الشعور النوراني يغزو قلبها، لمسة

الثقة أن الاستجابة قد حدثت. بعد أيام ذهبا إلى الطبيب ولم يكن يخالجها ذرة شك في النتيجة: مبروك، أنتِ حامل يا مدام.

لاحقًا ظهر أنها حامل في توأم؛ اثنين من الذكور في عين العدو، وهكذا جئت أنا إلى الدنيا، وليكتمل الأمر دعت أمي أن تلدني في الثاني عشر من ربيع الأول؛ يوم المولد النبوي، وقد كان، وُلدت في ذلك اليوم بالضبط!

كنت مولودًا لسبعة أشهر فقط، مع توأمي أحمد. لم يحتمل الدنيا أكثر من ثلاثة أيام ثم رحل. طلبت والدتي ألا تراه كي لا تتعلق به، فأتم والدي منفردًا كل إجراءات الدفن، بينما كرست أمي نفسها لأجلي، أنا ذلك «الفأر» الراقد في الحضانة كما فكرت حين فوجئت بمظهري الضئيل القبيح المغطى بالشعر.

كثيرا ما شكت في أني سأعيش، لكنها لجأت للدعاء مرة أخرى، ثم شعرت بتلك اللمسة الواثقة، ولم تخذلها من جديد، وإذا بذلك الفأر يستحيل طفلًا جميلًا جديرًا بأن توضع صورته على علب لبن الأطفال كما كانت تمازح شقيقاتها.

كنت أول فرحتها؛ فنلت أجمل رحيقها، وله الفضل المباشر لكثير مما أنا عليه الآن.

هي من غرست فيَّ حب القراءة، وكم كانت تبحث عن أي فرصة لشراء كتب للتلوين أو القراءة. رغم أن ظروف الأسرة المالية سيئة، لكنها تجتهد لتجد لي أفضل الملابس، وأجمل الكتب. تسجل لي صوتها على شرائط، قد تغني فيها وتطلب أن أغني معها،

أو تردد سور القرآن القصار وتطلب أن أردد معها. كم تفننت في تلك الألعاب.

كنت طفلا مشهورًا في المدرسة لسرعة قراءتي، كان ذلك بفضل أمي؛ معلمتي الأولى.

بعد سنوات كانت هي أول من اصطحبني في حياتي إلى معرض القاهرة الدولي للكتاب، وقتها كانت حصيلتي فقط «مجلد مجلة ميكي»، بينما أترك لها مسئولية أن تعود محملة بأبهج الكتب الملونة، وأحدث أشرطة كاسيت أغاني الأطفال، لأطلع على أكياس الكنوز فور عودتنا.

أصبحتُ أكثر شهرة في المدرسة لأن لديَّ دائمًا كتبًا ومجلات أحب إقراضها للزملاء، فتظهر الألقاب «الواد بتاع ميكي»، «الصحفي»، «سقراط».

تمر السنوات، وأذهب للمعرض وحيدا، ولا أذهب إلى جناح دار الهلال حيث مجلدات ميكي، أو نهضة مصر حيث ميكي الجديدة، بل ألتهم مجلدات الأعمال الكاملة لجمال الغيطاني وخيري شلبي وأمل دنقل وفؤاد حداد وقائمة لا تنتهي، كانت بدايتها عند أمي.

وكما بذرت فيَّ القراءة، فقد بذرت أمورًا أخرى. قيمًا مثالية ربما تكون قد جعلت حياتي أصعب لكنها أرضى للقلب.

تحذرني مرارًا من الغش في الامتحانات وتسهب في شرح كارثية ذلك الفعل؛ فيؤدي ذلك بي لموقف درامي شهير. كنت بالصف الثالث الابتدائي، وهو عام «شهادة» يأتي فيه المراقبون من

مدارس مختلفة، وشاهدت معلمة تنقل إجابة من أحد الطلاب إلى آخر، فانتظرت وصول مراقب الدور ورفعت يدي وقلت له: هوا لما أستاذة تاخد الإجابات من طالب وتديها لطالب مش ده يبقى غش؟ اتسعت العيون وساد الذهول، سألني: من فعل ذلك؟ قلت له: الأستاذة دي، واسأل اللجنة كلها. أشرت لها متهِمًا بصرامة عجيبة على طفل. تصادف أن كان المراقب رجلًا حازمًا نادرًا فصرخ فيها: قومي روحي على بيتك يا أبلة!

صرت وأنا الطفل ضئيل الحجم رعبًا لكل المراقبين، وكل اللجان التي أحل فيها.

قالت لي أمي إنها فخورة بي.

لم تتعمد أمي أن تكون سببًا في نضجي قبل الأوان، بل حاولت ككل الأمهات إحاطتي بالفقاعة، لكنها تصاريف الحياة.

كان عمري وقتها ٨ أعوام فقط، حين سألني شخص عن قريبي فلان الذي كان يوصلني إلى المدرسة هل «خرج»، أم لا.

لم أفهم، قلت له إن أمي أخبرتني أنه مسافر فقط، فارتبك وسكت.

عدت أسألها سؤالًا طفوليًّا بحسن نية: المسافر يقول إنه «رجع»، فلماذا سألني اليوم فلان لو كان قريبنا قد «خرج»؟ لامس سؤالي لحظة ضعف؛ فانهار السد. بدأت تبكي صامتة. فأرتبك وألح لأفهم. أخيرا صدمتني لأول مرة في حياتي بشكل مبسط بأن الشرطة ليست دائمًا في خدمة الشعب، وأن السجناء ليسوا فقط اللصوص والمجرمين.

تمَّ إطلاق سراح قريبي هذا بعد أيام قليلة، وطوت الأسرة القصة بالصمت والنسيان كدأبها، لكن من الواضح أن لا وعيي الطفل لم ينسَ.

لعلي لهذا بدأت تؤرقني أسئلة الشأن العام، وأولى دوائرها هي مدرستي. في الصف الأول الإعدادي نفذت أول تطبيق عملي. أردت اتخاذ أي رد فعل ضد معلم سادي استخدم جلدة سوداء غليظة لينهال ضربا على جسد زميل لي، بكيت وأنا أشاهده يتعرض لجلد تعذيب لا عقاب.

انتظرت وصول أبي لأحتمي به، خاصة أن ذلك المعلم يعرفه، وذهبت إليه مناديا: يا أستاذ فلان. فنظر لي مبتسما: نعم؟ قلت: أنت ظالم!

لم أنتظر ردًّا وغادرت المكان فورًا متجهًا إلى أبي. لاحقًا اشتكى له المعلم المصدوم ما فعلت، فحكيت لهما أسبابي، وأني فعلت ذلك لأنها قولة الحق. لم تلمني أمي.

جانب آخر من تعقيدات الحياة تعلمته من حرص أمي المبكر على إشراكي معها تفاصيل مغامراتها مع الأعمال الخيرية الفردية أو المؤسسية، وعايشت معها منذ طفولتي طريقة نصب شيطانية يتبعها متسولون لاستنزاف أموال الأفراد أو الجمعيات الخيرية، فضلا عن تعقيدات بلا نهاية بملف «الغارمات».

كم من امرأة رثة الثياب تحمل طفلًا يمزق بكاؤه القلوب ظهر لاحقًّا أنها نصابة أغنى من أسرتنا شخصيًّا، وكم من مستعفف

يحاول ألا يمد يده رغم خلو منزله من رغيف خبز حرفيًّا. لا بديل عن «بحث اجتماعي» بالغ الجدية، بعده فقط يمكن إطلاق العنان للعواطف.

فضلا عن أسئلة غير مثالية كثيرة عن توزيع الموارد. لدينا تبرع بعشرين ألفا، هل نوزع ألف جنيه على عشرين أسرة فنسعد عددًا أكبر، أم نعطي المبلغ كاملًا لأسرة واحدة تغطي مصاريف ابنتها بكلية الطب فنحقق «أثرًا نوعيًّا» أكبر؟

احتفظت أمي بعاطفيتها المثالية خارج ذلك السياق، ولطالما شهدت مراهقتي مشادات حادة معها حول تصديقها وصفات العلاج التقليدي و«الطب النبوي» ممن أعتبرهم نصابين أو جهلة على أقل تقدير. مؤخرًا طرحت على استحياء فكرة بحثي عن علاج في الخلطات التي يبيعها مسجد مصطفى محمود وقالت ببراءة إنه «مش معقول يكونوا نصابين وهما في مسجد مصطفى محمود!»، انفجرت غضبا فضحكت وقالت إنها أول مرة تسمع صوتي بهذه القوة كالأيام الخوالي؛ لذا ستواصل استفزازي.

دائمًا ما تذكرني آراء أمي السياسية بآراء «الست أمينة» في ثلاثية نجيب محفوظ التي اعتبرت أن ملكة إنجلترا بالتأكيد لديها قلب أم؛ مما يجعلها ستوقف المآسي لو عرفت عنها.

وهكذا للمفارقة كانت أمي العاطفية المثالية هي نفسها منبع تعليمي الفصل الصارم بين العواطف والمعايير الموضوعية، وكم أفادني هذا في كل أصعدة حياتي.

لكن شيئًا واحدًا لم تنجح في غرسه فيَّ، وهو قدراتها الخاصة على الدعاء بيقين الإجابة.

كلما ضاقت بي الدنيا وانقطعت الأسباب، وشكوت إليها، قالت لي إن وجودي كاملًا جاء على يد دعوة منها؛ فلا مستحيل أمام دعاء يدفع القدر.

ترفض أمي الدعاء المتوارث: «اللهم إني لا أسألك رد القضاء، ولكني أسألك اللطف فيه»؛ لأنه يتناقض مع أحاديث نبوية تقول إن الدعاء يغير القضاء.

دائما تكرر أن الدعاء والقدر يتدافعان، كأنها معركة، وأمي هي المقاتلة الأولى بصف جيش الدعاء ضد قدر مكتوب يحتاج تغييره تلك اللمسة المعجزة.

كثيرًا ما حاولت يا أمي حتى في أشد فترات حياتي تدينًا، لكن من يملك قلبًا كقلبك؟

حين أفكر فيها أستحضر صورة ثابتة: أمي ساجدة تبكي وهي تتحدث مع الله، تطلب شيئًا أو تشكره على شيء.

أذكر مثلا واقعة «الحج العاجل». حين كنت طالبا بالإعدادية اشتد بأمي الشوق العارم إلى أداء فريضة الحج، قدمت مع والدي لحج القرعة الحكومي ولم يتم اختيارهما، وكذلك لحج بجمعيات وشركات سياحة، وكلها كان دورهما سيحل بعد سنوات، فأصبح ملجؤها هو برنامج «الجائزة الكبرى» من تقديم جمال الشاعر حيث كان يوزع يوميًّا رحلات عمرة وحج. كل يوم تشترك في مسابقة

البرنامج وأراها تدعو وتبكي. مع اقتراب نهاية الشهر أراها تضع ذهبها أمامها ساجدة تبكي. لاحقًا أخبرتني أنها كانت تنذره صدقة لو فازت بالبرنامج.

أخبرها أنه لن يحدث شيء لو ذهبا للحج بعد عام أو اثنين، لكنها تقول إني لا أفهم شعور الشوق، ولا أفهم أن قلبي قد لمسه اليقين بأني سأحج هذا العام تحديدًا وليس بعده.

كانت مندهشة أن شعور الاستجابة قد لمسها بالفعل لكنها لم تحدث، والأيام تمر، وها قد بدأ الحجاج يسافرون وانتهى الأمر، وفجأة انفتحت السماء.

تلقى والدي اتصالا من إحدى الجمعيات التي كانت قد أبلغته سابقا أن دوره يأتي بعد عامين. قالوا له إن سلسلة مصادفات حدثت، أدت إلى اعتذار أو تعثر أوراق كل من يسبقهما، فدخل اسمهما في آخر لحظة إلى رحلة هذا العام.

فوجئت بأمي تلقي نفسها ساجدة وتخاطب الله صارخة باكية: «يبقى إنت عايزني. يبقى إنت ما طردتنيش من رحمتك». حُفر هذا المشهد في ذاكرتي للأبد.

لكن الأمر ليس سهلا، لدى أمي مجموعة من القواعد الخاصة:

قاعدة ١ : القناعة بمنطقية الدعاء

صحيح أنه لا شيء يصعب على الله، لكن على الإنسان ألا «يعتدي في الدعاء». لن تدعو بأن ينبت لها جناحان. حين كنت أطلب أن تدعو

لي أن أكون من أوائل الكلية تقول إنها لا يمكنها الشعور بهذا الدعاء؛ لأنها ترى مستوى مذاكرتي الذي لا يؤهلني لذلك.

قاعدة ٢: الإلحاح

يمكن لها بلا ملل أن تكرر آلاف وآلاف المرات أذكارا وآيات، تقرأ البقرة يوميًّا؛ لتدعو ذات الدعاء ساعات تلو ساعات.

تفضل أن يكون ذلك طيلة الليل. كنت أمر عليها فأجدها سقطت غافية من الإجهاد، فأقول لها إن دعاء النهار كالليل، «ماذا يفعل الله بعذابكم؟»، لكنها تصمم أن المشاعر مختلفة.

قاعدة ٣: الوسائل المساعدة

وعلى رأسها الصدقة، وما تسميه «شحاتة دعاء الصالحين»، فتفتح فجأة «غرفة عمليات دعاء» حيث تجري عشرات الاتصالات بكل من تلتمس فيه فعل الخير، خاصة لو كانت له تجارب سابقة مع الدعوات المستجابة.

ظلت المثالية للاعتقاد القلبي، لكن في التطبيق العملي وضعت أمي معايير صارمة حول «البحوث الاجتماعية» اللازمة.

قاعدة ٤: اليقين علامة الاستجابة

تقول أمي إنها تشعر بالاستجابة حين تشعر بعلامة معينة في قلبها أنها وصلت لليقين التام في تحقق ما تدعوه، وأن هذا لا يحدث دائمًا.

هذه المرة استجوبتها متشككًا عن دعوات محددة تهمها وأعرف أنها لم تستجب، فاعترفت بأنها لم تشعر بلمسة اليقين تصلها فيها.

بعد سنوات قرأت كتاب «السر» حول «قانون الجذب»، وشاهدت الفيلم الصادر بذات الاسم عام ٢٠٠٦، لأندهش من مدى اقتراب ما يتحدثون عنه بمفاهيم علمانية مما تتحدث أمي عنه بمفهوم ديني.

ترى الكاتبة روندا بايرن أن هذا هو أعظم قانون في الكون، وأنها جمعته من حكم منثورة منذ آلاف السنين في الحضارات الشرقية، ثم من معلمين ينفذون ذلك الأسلوب بوعي أو بدون وعي.

خلاصة ذلك «القانون» هي ثلاث خطوات: اطلبْ ـ آمنْ ـ تلقَ.

تقول إنه إذا أردت شيئًا فعليك أن تكون محددًا جدًّا به، ثم عليك أن تؤمن بيقين أنه حدث بالفعل، تتعلم برمجة عقلك بطريقة إيجابية لتعيش تلك الحالة السعيدة واقعًا، ثم تستعد لتلقي ما سيحدث فعلا.

مثلا إذا فكرت «لا أريد زيادة وزني» فإن العقل يحذف أداة النفي وتتحول إلى «أريد زيادة وزني»، لكن التفكير يجب أن يكون «أريد وزنا مثاليًّا». إذا فكرت فيه يوميًّا كأن ترى جسدك كذلك بالفعل، بل ينعكس على أفعالك فتتوقف عن شراء الملابس الواسعة وتشتري مقاسك الجديد ، فإن عقلك يتحول إلى ما هو أشبه لمحطة بث هائلة تجعل الكون كله يتعاون لتحقيق ما ترغب به.

يزعم عشرات الأشخاص في الكتاب والفيلم تحقق ذلك بدءًا من أبسط الأمور كشخص تخيل شكل ريشة حتى جذبها إليه فعلا وسط زحام نيويورك، وحتى من استخدموا القانون ليحظوا بملايين الدولارات.

بالطبع الأمر يستدعى نقدًا منطقيًّا؛ لأنه يتم إسناد كل حالات النجاح إلى القانون، بينما يتم إسناد الفشل إلى أن الشخص كان يشك

في نجاح الأمر ولم يوقن به فعلا، أي أنه هو من أخطأ التطبيق، وهي أمور تقديرية جدًّا.

لكني من جديد لا أحتاج للذهاب بعيدا. صحيح أنه لم يخترع العلماء جهازا يقيس نسبة «الشك ـ اليقين»، لكن لديَّ جهازي السري: أمي.

* * *

في كتابه الشهير «فجر الضمير» يصل عالم المصريات هنري برستد إلى أن أقدم نصوص تحمل مبادئ أخلاقية للبشر على الإطلاق قد وصلت لنا من حضارة قدماء المصريين، وأن منبع تلك الأخلاق كان هو الترابط الأسري.

نقرأ في نقوش قبر أحد النبلاء من القرن السابع والعشرين قبل الميلاد: «إني لا أقول كذبًا؛ لأني كنت إنسانًا محبوبًا من والده، ممدوحًا من والدته، حسن السلوك مع أخيه، ودودًا لأخته».

في المتاحف في مصر ولندن وباريس ونيويورك شاهدت مرارًا تماثيل وصور زوج وزوجة متحابيْن في أوضاع رومانسية. مثلًا ذلك التمثال البديع للملك منقرع؛ باني الهرم الأصغر، مع زوجته التي تحتضن جسده بيديها، أو تمثال مدهش آخر للملكة تي وزوجها الملك أمنحتب الثالث وبناتهما الثلاث، وتظهر الملكة بذات حجم الملك وقد أحاطت ظهره بذراعها، والأمثلة لا تنتهي.

قدس قدماء المصريين بر الوالدين، فكتب أحدهم مفتخرًا أنه حرص على أن يدفن في ذات القبر مع والده «زارو» رغم إمكانه

أن يبني قبرًا مستقلًّا، بينما تشتهر قصة «سبني» ويعني اسمه «حارس الباب الجنوبي»، فقد حدث أن والده «مخو» قام برحلة إلى قلب إفريقيا، فقتل على يد قبيلة هناك، فقام نجله برحلة مليئة بالمخاطر حتى استخلص جثمان والده.

ومن اللافت بالنسبة إليَّ أن النصوص الفرعونية كثيرًا ما جعلت ذلك البر مستحقًّا بحسن أفعال ذلك الأب. هذه رسالة أخلاقية سابقة لعصرها بكثير تقول إن الأبوة ليست معطى طبيعيًّا، بل تُصنع بالاختيار والقرار.

في برديات «تعاليم بتاح حتب»، المحفوظة في لندن وباريس، نقرأ النصائح التي وجهها بتاح؛ وزير الفرعون جد كا رع، قبل نحو ٢٤٠٠ سنة قبل الميلاد، يتكرر فيها حث الأبناء على طاعة آبائهم واحترامهم، لكن الحديث يتم توجيهه أيضًا للآباء:

«وأنت أيها المرء، علم ابنك الكلام المتوارث، فربما كان مثالا يحذو حذوه أبناء العظماء، وقد يجدون فيه الفهم والعدل لكل من يخاطبه، بما أن الإنسان لم يولد حكيمًا».

استأت للغاية حين ثارت مؤخرًا هجمة ضد المذيع محمود سعد، الذي جهر بأنه لا يحب والده ولا يحترمه؛ لأنه هجرهم صغارًا دون سبب، ولم يعبأ بهم قط معنويًّا ولا ماليًّا رغم قدرته على ذلك. ما كان أسهل أن يغازل محمود سعد مشاعر الجمهور، ويدعي المثالية ويكرر المحفوظات، لكنه بنبله وشجاعته باح بحقيقة ما يحس به.

هذا ما آمنت به دائما، الأبوة مسئولية هائلة، ليست دفتر توفير اشتريته للمستقبل، وليس من حقي أن أطالب ابني في كبري بما لم أقدمه له في صغره، وعمومًا كنت أقول دائمًا إنه لا مشكلة لديَّ على الإطلاق في مفهوم «دار المسنين»، بدلًا من أن أكون عبئًا على أحد.

كان ذلك حين كنت أظن أني سأصل لمرحلة «المسنين»..

وفي تراثنا العربي نجد قصصًا عديدة حول ذلك، كقصة عمر بن الخطاب الذي اشتكى له رجل سوء معاملة ابنه، فلما سأل الابن أخبره أن أباه أساء اختيار أمه، وأساء اختيار اسمه، و«لم يعلمني من الكتاب حرفا»، فوجه حديثه للشاكي: «عققت ابنك قبل أن يعقك».

أقدر اليوم كم أنعمت عليَّ الحياة بلا أي فضل مني أني ولدت في تلك الأسرة، لوالديْن هما من بدآ البر بي، واختارا الاجتهاد للوصول لمفهوم الأبوة والأمومة الحقيقي، وما أصعب ذلك.

ينقل كتاب «فجر الضمير» تعليق عالم النفس وليام ماكدوجال على أثر قيم الأسرة عند الفراعنة على نشأة الأخلاق البشرية بالكامل: «فمن هذه العاطفة (أي حنان الوالدين)، ومن الدافع الذي يحدو بها إلى الحب والرعاية، ينشأ الكرم والاعتراف بالجميل والحب والشفقة وحب الخير الحقيقي وكل أنواع الخلق المجردة من الأنانية، ففي تلك العاطفة تنبت الجذور الرئيسية لكل تلك الصفات التي لولا هذه العاطفة ما وجدت قط».

* * *

١٩ أكتوبر ٢٠٢٢

أمضيت ليلة بالغة السوء، خلالها صحوت قرب الفجر لأدخل في نوبة قيء حادة رغم عدم تناولي أي طعام وشراب. كنت أتقيأ عصارة معوية مريرة، مختلطًا بها قليل من بقايا الطعام، ميزت فيها ـ على سبيل المثال ـ سمسمًا من بقايا «بقسماط» تناولته قبل أسبوع.

ملأت طبقًا ورقيًّا مخصصًا للقيء، ثم طبقًا ثانيًا. يتناثر رذاذ السائل القذر على المنضدة والسرير.

بصعوبة تساعدني إسراء لأصل للحمام، أجثو على ركبتيَّ أمام المرحاض وأتقيأ روحي. أتذكر مشاهد المدمنين الذين يموتون في لحظات كهذه. أبشع نهاية ممكنة.

نحو السادسة صباحًا نمت أخيرا، كان نومًا غريبًا في عمقه وهدوئه. صحوت شاعرًا بسكينة واطمئنان وبلا ألم، كأنه يوم عادي جدًّا، للحظات نسيت أين أنا، كأني في منزلي، وشعرت أن أمعائي تتحرك بشكل بالغ الاعتيادية، لا ألم ولا حركات حادة.

دخلت إلى الحمام. فُرجَت!

هكذا أتى الحل بلا أي جهد ولا ألم! استعددت لخوض المعركة لكنني انتصرت دون أن أحارب.

عرفت بعدها أن هناك من حارب مكاني، لقد استخدمت أمي سلاحها السري.

أمضت الليلة كاملة حتى الصباح تدعو. قالت لي: أنا أقسمت على الله، قلت له: أقسم عليك بك أن تنجي محمدًا اليوم،

ثم جاء في قلبي يقين الاستجابة، وأنا حين أشعر به أعرف أنه سيستجيب، وقد فعل!

وأنا أصدقها.

فليعتبره المؤمنون دعاء مستجابًا تمكن من تغيير القدر، أو ليعتبره غير المؤمنين «قانون الجذب» الكوني أو أي شيء، لكن هذه القوة النورانية جاءت ومستني. أصدق حقًّا أني شعرت بلمستها.

أصدق أن أسرتي أنقذتني، أنقذني قمري وشمسي وكوكبي.

أصدق أن يد المعجزة امتدت لتنتشلني في آخر لحظة هذه المرة، لكن هل تمتد مرات أخرى؟

ما زال الوضع خارق الصعوبة. لم أتناول أي علاج منذ جلستي الأخيرة في الرابع من أكتوبر، ولا أعرف حقًّا ما العلاج الذي يمكن أن يحتمله ما بقيَ من جسدي لأجربه في أي مكان بالعالم.

تقول أمي إني يجب أن أوقن أنا أيضًا مثلها بالشفاء، فأخبرها أني عاجز عن ذلك، ومن مثلكِ يا أمي؟ فهل سيكفي يقينها ليغطي على نقص يقيني؟ هذا ما ستجيب عنه الأيام القادمة.

وردتي البيضاء الخارقة

«الحب ـ أعزك الله ـ أوله هَزل وآخره جِد، دقَّت معانيه لجلالتها عن أن تُوصف، فلا تُدرك حقيقتها إلا بالمعاناة».

«وقد اختلف الناس في ماهيته وقالوا وأطالوا، والذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع.. والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾؛ فجعل علَّة السكون أنها منه».

طوق الحمامة ـ الإمام ابن حزم الأندلسيّ (٩٩٤م – ١٠٦٤م)

* * *

٣٠ أكتوبر ٢٠٢٢

يتكور جسدي على السرير بينما أكتم صرخات الألم.

أقرُّ وأعترف أني أتعذب لارتكابي جريمة خطيرة: الأكل.

كنت قد خرجت من المستشفى من جولة «شلل الأمعاء» الماضية في ٢٢ أكتوبر؛ حيث طلبت من الأطباء قبلها محاولة

إطلاق سراحي في هذا اليوم؛ لأحتفل بعيد ميلادي مع أسرتي في ٢٣ أكتوبر، وقد تعاونوا على إنجاز ذلك.

بالإضافة إلى أبي وأمي واثنيْن من إخوتي، فقد حضر قريبان آخران؛ أحدهما يعمل بدولة خليجية، والآخر مهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية. تجمع عائلي مبهج لم أشهده منذ سنوات طويلة.

كانت طبيبة التغذية قد منحتني جدولًا مشددًا بأصناف الطعام المسموحة، عدت خطوات للخلف. كل شيء محظور إلا السوائل والمهروسات منخفضة الألياف. البرنامج يتحدث عن تصعيد تدريجي لكن دون جدول زمني واضح.

شعرت في الأيام الأولى أني عدت لطبيعتي تمامًا، فرحة كبيرة عززتها سعادتي بدفء الأسرة المفقود، وهكذا في اليوم قبل الأخير تجرأت على دعوتهم لمطعم إسباني أحبه، رغم أني اكتفيت ببطاطس مهروسة وعينات ضئيلة. مرت الليلة بآلام مبرحة لكنها ما زالت محتملة، هكذا ظننت أن تجربة أخيرة قد تمر، خاصة أن اختيار ابن خالتي كان لمطعم راقٍ يقدم «اللحوم المعتقة» المعروفة بطراوة أليافها.

لكن النتيجة كانت كارثة. انتفاخًا وصعوبة تنفس وآلامًا رهيبة. أشعر كأن سيفًا من نار يدخل بطني يمين فُم المعدة، موضع المرارة، ويخترقني حتى يخرج أسفل لوح الكتف اليمنى.

تسألني إسراء: لو فسنذهب للمستشفى، فأرفض بعناد: «لا، أنا ما صدقت خرجت». لكنها تتجاهلني، وتبدأ في إعدادات المستشفى. تتصل بصديقة لبيت لديها يحيى، تملأ حقيبة الملابس.

أنظر لها مستغربا ما تفعل، فتقول باقتضاب: احتياطي.

لكن أداءها ليس به احتياط، بل قد اتخذت قرارًا.

كالمجنون تعاطيت كل أدوية الألم والالتهاب بالمنزل. نابروكسين.. ترامادول.. كوكودامول.. أي شيء.

بعد أقل من ساعة انهرت، ارتميت على السرير أتوسل لإسراء أن نذهب للمستشفى فورًا. لم تلمني بحرف بل ساعدتني بلطف، لكن بحزم أيضًا.

في الطريق أنظر إلى وجهها وهي تقود السيارة، فأرى فيه القوة والإصرار قبل الحزن. لا وقت للحزن.

في المستشفى أصل لنقطة الانهيار، في لحظة تنفجر الآلام في كل مكان. كل عظامي وعضلاتي وأعصابي تصرخ. لا يمكنني التنفس. أعرف أعراض تأخر جرعة المسكن الرئيسي كل ١٢ ساعة عن موعدها، وهي تحدث مضاعفة الآن رغم أني تناولته. واضح أن انسداد الأمعاء أغلق تمامًا الامتصاص عبر الفم.

فريق التمريض يريد إنهاء إجراءات دخولي وتسجيل بياناتي بالنمط المعتاد، بينما أشدد على طلب جرعة المسكن الطارئة قبل أي شيء.

فجأة أفقد السيطرة تمامًا. أبكي وأعوي وأتلوى. أستغيث وأتوسل بالعربية والإنجليزية. داخلي جزء مشفق على إسراء من مشهدي هذا لكني خارج أي تحكم. تصرفت إسراء بسرعة، «اطمن يا حبيبي»، خرجت مسرعة وعلى وجهها تعبير صارم، أسمعها تتحدث بحدة

عن أولوية إيقاف آلامي قبل أي شيء، وسرعان ما جاءت حقنة مورفين تنقذ الموقف.

في اليوم التالي أجريت فحوصات، وتلقينا معًا المزيد من الضربات القاصمة:

أولًا: فيما يخص الانسداد وشلل الأمعاء الصورة واضحة تمامًا هذه المرة. السبب هو الورم وليس العملية أو أعراض أدوية. تظهر كتل الخلايا السرطانية وقد اخترقت الأمعاء التي تبدو بطانتها ببعض المناطق وقد امتلأت بـ«بؤر مندمجة»، فضلًا عن الخلايا الهائمة في السائل البريتوني، وهذا سبب تعدد مناطق الانتفاخ والانسداد.

قال الطبيب: إن هذه الصورة بجانب عودتي السريعة تُرجح أني قد دخلت مسار الانسداد وشلل الأمعاء المتكرر، وأني لن أستعيد القدرة على الطعام والشراب بما يكفي لتلبية حاجة جسدي للأبد؛ لذلك تمَّ الانتقال للتغذية عبر الوريد (تي بي إن) لمدة ١٢ ساعة في اليوم، وسيتم ترتيب تجهيز المنزل لذلك أيضًا.

ثانيًا: فيما يخص السرطان فقد حقق قفزة خلال ٣ أسابيع فقط منذ الفحص الأخير. الكتل زادت حجمًا وعددًا. ثم نرى تشكيلة من الآثار السرطانية على مختلف الأعضاء: تضخمًا بالكلية اليمني، تزايد سوائل غلاف الرئتيْن، الفص السفلي من الرئة اليمنى يفقد مرونته. تنفسًا أصعب، اختناقًا ماديًّا فوق اختناقي المعنوي.

قال الطبيب: إنه بناء على التطورات الأخيرة فأنا أصبحت غير مؤهل لتلقي عقار «لانزورف»، الكيماوي عبر الفم الذي كنت أتحفظ عليه؛ لأنه من غير المرجح أن أستعيد قدرتي على الأكل والامتصاص. حقًّا «رضينا بالهم..».

ما البديل؟

قال: حيث إني أثبت عدم الاستجابة لمختلف الأدوية المناعية المرخصة والتجريبية، بينما الشيء الوحيد الذي أحرز قدرًا من تعطيل تقدم المرض هو الكيماوي عبر الدم، فلنجرب الآن مزيج «فولفوكس» FOLFOX .

قلت له: أنت تعرف أن هذا قريب جدًّا من مزيج «فولفيري» الذي يحتوي على عقار «أوكزالبلاتين» الذي كان أول برنامج تناولته، وقد فشل بالفعل، وهو أصلًا كان أقوى من «فولفوكس».

قال: إننا جربناه منذ نحو عام، فلا مانع من العودة لتجربته الآن مع التعديل الأخير، ولنرَ ما قد يحدث.

قلت له: لا بأس.. فلنواصل المسار التقليدي، وفي الوقت ذاته، كما تعرف، أنا بدأت بالفعل مراسلة مراكز بحثية في بريطانيا والولايات المتحدة باحثًا عن تجربة مناسبة.

أعادني للواقع قائلًا: «هذا من كون آخر الآن»!

This is from another universe now!

لم أكن مستوعبًا بعدُ لحقيقة وضعي، فنظرت له مستغربًا من هذه العبارة.

فهم صدمتي، فكرر بصوت منخفض ونبرات هادئة للغاية لكن واضحة جدًّا: عزيزي محمد، أنت الآن غير مؤهل لأي شيء! أنت لست مؤهلًا لتلقي أي علاج في العالم، ولن تقبلك أي تجربة علاجية بالعالم!

فلنركز الآن على الهدف التالي وهو تحسين صحتك العامة فقط، والسيطرة على آلامك، وتحسين أرقام وظائف الكبد والكلى وغازات الدم، وحصولك على الغذاء. بعدها إذا تجاوزت ذلك كله وأصبحت مؤهلًا يمكن أن تفكر في أي شيء آخر..

شعرت بضيق تنفس، وبداية تصاعد خفقات قلبي، وأنا أستوعب معنى كلامه. كأنهم يزفون لي خبر رحيلي للمرة الثانية خلال أسبوعيْن.

نسيت النقاط التي كنت قد اتفقت مع إسراء على أن نسأله عنها، وارتبكت فعجزت عن الوصول للملف الذي سجلتها به على هاتفي، فقط نظرت إلى إسراء دامعًا متسائلًا، فوجدتها متماسكة، وواصلت الحديث معه عن تفاصيل الأيام القادمة.

لكم تغيرت إسراء! هل هذه نفسها تلك الفتاة الهشة المترددة التي عرفتها؟ كنت أناديها: «يا وردتي البيضاء». هكذا كنت أراها، بتلات وردة رقيقة أخاف أن أتنفس قربها كي لا تتناثر، أو بلورات زجاج شفيفة لا تكاد تُرى.

عبر سنوات علاقتنا انبعثت إسراء أخرى، إسراء ذات جوهر أصلب وأقوى. بتلات وردة بيضاء رقيقة حقًّا لكنها ليست هشة، بل تزداد

تماسكًا كلما تعمقت بطبقاتها. بلورات بالغة الشفافية حقًّا، لكنها لا تنكسر أبدًا، بل تنافس أغلظ ألواح الزجاج المضاد للرصاص!

لم يكن الأمر مفاجئًا تمامًا؛ فقد كان من أسباب إعجابي بها منذ البداية تلك القوة الكامنة داخلها. لمستها ضمن حكاياتها الطريفة عن «صراعات البقاء» الطفولية ضد أشقائها الذكور الثلاثة، وحتى مواقف حاسمة اتخذتها في أثناء دراستها أدت لاطمئناني أني لا أبدأ علاقة مع «بنت عويلة». لم أحب قط نموذج الفتيات المعزولات تمامًا عن العالم في فقاعة معقمة، ولطالما تعجبت ممن يريد الزواج من «قطة مغمضة» ستتحول عبئًا عليه.

رغم ذلك ما زلت أتساءل: هل كانت هذه القوى المدهشة كامنة داخلها، أم هي خلق جديد تولَّد تدريجيًّا؟

اليوم بينما يساورني الخوف من أن قصتنا تدنو من نهايتها، وأن الفراق الأبدي ينقض علينا، فإني أجدني أتشبث بذكريات البداية وتأمل الرحلة، لعل فيها ما يسري عني، ويخفف قلقي على مستقبل من قد أتركهم خلفي.

لو كنت حقًّا سأفارق يحيى، فإن مما يعزيني أن يكون ميراثه مني خير أهل وأجمل أصدقاء، وما تيسر من طيب الذكريات، والأهم هو أجمل وأقوى أم: إسراء.

* * *

لم تكن بدايتنا عادية، لقد اختارتني إسراء قبل أن أختارها.

التقينا للمرة الأولى، في تجمع أصدقاء بمجموعة «فيس بوك» خاصة بالقراءة والكتابة الأدبية. قالت إنها بمجرد أن رأتني وقع في قلبها فورًا شعور أنها ستتزوجني!

كانت تعاني وقتها من تجارب سيئة مع متقدمين للزواج بالطريقة التقليدية (صالونات)».

يومها اتصلت بصديقتها تحمل لها البشرى: «باركيلي يا فلانة النهاردة قابلت اللي هتجوزه!»، لكن صديقتها سخرت منها حين عرفت أن كل الأمر لا يجاوز تحية سطحية بيننا.

قررت هي أن تبادر، فراسلتني تسأل عن تفاصيل تخص كتاباتي في مدونتي القديمة. كان يمكن أن تكون رسالة كغيرها، لكن روحها لمستني منذ الأسطر الأولى، شعور لا يفهمه إلا من جربه، كأنه التقاط بث إذاعي مفاجئ على المحطة المطلوبة بالضبط.

مع استرسال حديثنا لم تمضِ أسابيع إلا وقد أطلق نصفي العاطفي نداء اكتماله، لكني لم ألبِّ النداء فورًا.

لماذا كنت أقاوم؟

في كتابه «طوق الحمامة»؛ أجمل ما كُتب بعيون التراث العربي حول الحب، يخصص الإمام ابن حزم فصلًا بعنوان «باب من لا يحب إلا مع المطاولة»، يقول فيه: إن نوع الحب الذي يفضله، ليس حب النظرة الأولى، بل الحب الذي يأتي بعد «طول المخافتة، وكثير المشاهدة». يتحدث عن نفسه: «وما لصق بأحشائي حُبٌّ قطُّ

إلا مع الزمن الطويل، وبعد ملازمة الشخص لي دهرًا، وأخذي معه في كل جدٍّ وهزل».

ويؤكد أن ذلك لا ينفي قوله في بداية الكتاب: «إن الحب اتصال بين النفوس في أصل عالمها العُلوي»، فالنفوس في عالمنا قد «حجبت حقيقتها الطبائع الأرضية»؛ لذلك تحتاج وقتًا لتكشف عن حقيقتها وتجد مفاتيح اتصالها.

كانت مقاومتي في البداية بسبب السؤال الأوليّ: هل أنا أحبها حقًّا؟

سرعان ما وجدت إجاباتي:

نعم، أحبها؛ لأني أصبحت أجد عيني تتأمل بانبهار كل تفصيلة في ملامحها، كل شعرة رمش، وكل مسام في الجلد. أحب شكل أسنانها حين تبتسم، وحركة عينيْها حين تمزح. لا عجب أن كانت أولى علامات الحب عند ابن حزم هي «إدمان النظر».

أحبها؛ لأن استقراري النفسي أصبح بالكامل مرتبطًا بها، ولا يمكنني الاطمئنان والهدوء إذا كانت هي تشعر بأدنى ضيق حتى لو لسبب خارج عني.

أحبها؛ لأني أصبحت أشعر بالفخر حين أحدثها أو ألتقيها. بمجرد أن أمشي جوارها أشعر فورًا دون أي تفسير عقلاني أني ممتلئ فخرًا، وأني مميز فوق البشر.

أحبها؛ لأن هواي صار يوافق هواها. حين تخبرني أنها تحبّ أو تكره شيئًا أو شخصًا، لا أوافقها مجاملة، بل حقًّا يتحول شعوري العاطفي نحو هذا الشيء أو الشخص لحظيًّا.

أحبها؛ لأني أصبحت «أحبُّ من الأسماء ما وافق اسمها، أو شابهه، أو كان منه مُدانيًا» كما قال قيس بن الملوح قبل ألف عام. أصبحت أذني بالغة الحساسية لالتقاط اسمها أو أي كلمة حروفها قريبة منه.

أحبها؛ لأننا وجدنا بيننا «العلامات». أمور صغيرة جدًّا مشتركة يصعب أن أجدها مع أي شخص آخر، كإعجابها الشديد بفرقة «الطمي». كانت إسراء تعشق مسرحيتهم «ثورة قلق» التي لم تكن متاحة وقتها على الإنترنت. كلانا انبهر فعلًا بتلك العلامة اللطيفة. كم شخصًا يعرف الفرقة فضلًا عن المسرحية تحديدا؟

«وأنا ما ليش حيلة..غير أسئلتي الضئيلة».

إذن أجبت عن السؤال الأساسي، فلماذا ما زلت أعاند؟

قاومت لأني أرى أن ذلك المكون المعنوي الغامض في الحب، على جماله وإيماني به، ليس كافيًا وحده، بل ثمة عوامل عقلانية ومادية أخرى يجب أن تتكامل قدر الإمكان.

كنت أحاول تحييد مشاعري؛ لأحكم على العوامل الموضوعية قدر الإمكان.

أقول: «قدر الإمكان»؛ لأن الحب يعمي ويصم، حقًّا «عين الرضا عن كل عيب كليلة».

أحاول المساءلة بنقدية للصفات التي أحبها فيها، بل إني أعدِّد العناصر المجردة لاتفاقنا بقضايا الشأن العام السياسية، وبآرائنا الاجتماعية والدينية، حتى لو اختلفنا في بعض التفاصيل.

أستعرض العوامل الخارجة عنَّا مثل مناسبة الأسرتيْن لبعضهما، والوضع المتوقع لمستقبلي المهني، وكذلك محاولتي فهم أبعاد شخصيتها بشكل متجرد قدر الإمكان.

أخيرًا انهار السدّ وأخبرتها في يوم لا يُنسى. أذكر خفقات قلبي وصعوبة تنفسي وارتباك حواسي، كأنّي أشم رائحة الضوء وأرى نور العطر.

وما أجمل من «أول الحب»!

أذكر المرَّات الأولى من كل شيء. أول نزهة، وأول لمسة، وأول عناق. ارتباك شفتيْنا في أول قبلة، ثم تعلمنا معًا كيف تعلو الموجة. أول مرة ذهبنا إلى البحر في مرسى مطروح، وأول مرة سافرنا خارج مصر بعد زواجنا.

أول مرة قرأت لها شعرًا، حين أسمعتها في الشارع غيبًا قصيدة «لمدح زهر اللوز»، ففوجئت بوجنتيْها تحمران خجلًا، اكتشفت أن هذا يحدث حقيقة لا في خيال الشعراء.

هل ما زالت تنتظرنا مرَّات أولى أخرى؟

سرعان ما أظهرت إسراء قدراتها أمام تحدٍّ غير متوقع. كان والدها رغم كرمه البالغ قد فاجأنا برفضه مقترحنا أن «نكتب الكتاب» في موعد مبكر عن الزفاف بضعة أشهر لا أكثر، فكانت

النتيجة أن قررت إسراء معي بكل حسم أننا سنتزوج فورًا، بأي شكل، ومهما كانت النواقص.

لم نجد قاعة مناسبة للزفاف، فضلًا عن عدم توافر قدرتي المالية الفورية، فقبلنا بأي خيار متاح. كانت قاعة متواضعة، محدودة المساحة والخدمات، لكن لم يهمنا إلا أنها بأقرب تاريخ، ٣١ من مايو ٢٠١٣، وأنها كافية لتقديم الطعام للأسرتيْن القادمتيْن من خارج القاهرة.

لاحقًا عرفنا كم كنا محظوظين بذلك القرار؛ لأننا لو كنا قد استجبنا لمقترح التأجيل إلى ما بعد عيد الفطر، فقد كان هذا هو بالضبط توقيت أحداث فضّ رابعة وما تبعها من حظر للتجوال، وآثار مست عائلتيْنا. كان زواجنا سيتأجل طويلًا أو يُلغى بالكامل.

لم أكن أفهم شيئًا عن ترتيبات الزفاف، وكل شيء تمَّ ترتيبه بارتجال وسرعة. قامت فرقة متواضعة المستوى إلى حد هزلي بزفافنا بشكل سريع، وحدثت أخطاء في كل شيء؛ عدد الكراسي، ومكونات الوجبات، والإضاءة والتصوير بالغ الرداءة، وغيرها من تفاصيل معكِّرة.

توترت خوفًا من توترها، لكن أدهشني هدوءها التام وتقبلها كل شيء ببساطة. قالت لي لاحقًا إنها قالت لنفسها إن كل هذا سيُنسى وسيبقى أننا فعلنا ما أردنا.

ثم انتهت «ليلة العمر» بمشهد أسطوري:

كانت شقتنا في الطابق الثامن من بناية لم تكتمل بعدُ، حتى إنها بلا مصعد، وكان يفترض أن يتمَّ تركيبه خلال فترة الخطوبة، لكن الشركة تأخرت كالعادة، وكانت هذه من أسباب رغبة الأسرتيْن

بالانتظار: «معقول عروسة هتطلع ٨ أدوار بفستان الفرح؟»، «مستحيل أجيلك الصباحية لو اتجوزتوا على الحال ده».

لكن إسراء لم تتردد لحظة، لم يستغرق الأمر منها وقتًا للتفكير أصلًا. رأتها مجرد تفصيلة تافهة. وهكذا في يوم زفافنا كنست بفستان فرحها الأبيض سلمًا قذرًا مليئًا بالتراب والأسمنت وبقايا البناء لثمانية طوابق.

لقد انحفر مشهد دخولها المنزل في ذاكرتي إلى الأبد. كأني أراها الآن، ترفع طرف فستانها الذي تحول أسفله للأسود الفاحم، محاولة ألا تلوث الأتربة سجادة الصالة الجديدة. تلهث من المجهود، لكنها تبتسم.

إسراء التي عرفت هوسها التام بالنظافة، والتي تكفي ذرات غبار لا ترى بالعين المجردة لتعكير مزاجها، أدهشتني بقدرتها على تجاوز كل شيء لأجل «إرادة السعادة».

رأيت يومها أمامي بطلة خارقة، أعظم من ملصق يظهر مجد «سوبر مان» طائرًا فوق ناطحات سحاب نيويورك.

أعرف اليوم أن هذه كانت خير بداية رمزية لحياتنا.

ستكرر إسراء خوارقها، حتى تصل ذروة ما لديها من منح مادي ومعنوي بعد حلول اللعنة السرطانية على أسرتنا، كأن كل ما سبق كان دون أن ندري إعدادًا وإنضاجًا لهذه اللحظة المشئومة.

* * *

في حياتي مررت بخيباتٍ كثيرة؛ بسبب أمور تعلقت بها وانتميت إليها بلا حدود .. إلى حد التضحية بالوقت والمال والجهد، والاستعداد للتضحية بالروح.

في بداية ارتباطنا، سألتني لماذا أسألها صادقًا كل يوم مساء: «إنتِ راضية عني؟». فأخبرتها أني لا أرى الحب إلا هكذا؛ ذوبانًا في المحبوب وتعلقًا به، بينما قالت إنها تستغرب تلك الصيغة الكبيرة. قالت لي: «إنتَ عندك أوفر إخلاص». قالت إني بشكل عام أعيش حياتي بملحمية و«واخدها جد أوي»، بينما بعضها أحداث عادية لا تستحق كل هذا التورط العاطفي.

ربما أخذت من أمي تلك المبالغة في العاطفية، وتحميل القضايا أكبر من قدرها.

لكني جربت كل أنواع الخيبات يا إسراء..

خيبة «ما كنتش مستاهلة:

في أمور مثل التضحية بمجموعي في الصف الثاني الثانوي؛ لأني انشغلت جدًّا بالكتابة عن مشروع داخل منتدى روايات عن شخصيات د. أحمد خالد توفيق. فزت بأكبر نقاط في تاريخ المنتدى، وأصبحت أغنى عضو، لكن هل هذا اللقب الكارتوني يساوي عامًا كاملًا مغتربًا في طب المنيا؟!

خيبة الفشل:

مثل فشلي في أهداف خاصة وعامة بعد استنفاد الدموع والعرق والمشاعر. فشلت في نهاية الكلية في الحصول على نيابة بالجامعة

(وإن كانت الخدمة بوزارة الصحة قد أضافت لي خبرة مختلفة)، فشلت في مشاركاتي بحملات البرلمان والرئاسة في ٢٠١١ و٢٠١٢، كل من دعمته بصوتي أو بمشاركتي في حملته الانتخابية خسر. أذكر شلالات الدموع ليلة إعلان نتيجة الجولة الأولى. مع بعض أجمل وأنبل الشباب والفتيات جاءوا بلا موعد. فقط نبكي تائهين. أواجه حقيقة الصورة العملاقة التي أنا ذرة منها: لقد فشلت الثورة المصرية والربيع العربي، صارت كل الأحلام والآلام ودماء الشهداء تاريخًا ليرويه أمثالي بعد أن نتحول لمسنين خائبين آخرين... حقًّا لقد «مسنا الحلم مرة».

خيبة سوء الحظ أو النصيب:

كقصة حب قديم صادقة لم تكتمل بسببي، أو كعدم نشر أول ورقة بحثية شاركت بها في تقرير للأمم المتحدة وعلقت عليها آمالًا كثيرة، أو كخسارتي مبلغًا ماليًّا في مغامرة استثمار طائشة.

خيبة الخديعة:

كما حدث بعد اكتشافي ارتكاب أشخاص كنت أظنهم مثاليين، أتفاخر بكونهم قدوتي و«مثلي الأعلى»، لأخطاء فادحة. أفهم نواقص البشر، لكن الكوارث الأخلاقية ليست منها. لقد تورط أستاذي فلان حقًّا في اختلاس أموال، وقام عزيزي فلان حقًّا بالتحرش. قد أحاول في البداية التبرير أو التشكيك هامسًا بيني وبين نفسي، ثم سريعًا تأتي لحظة الحقيقة الأليمة.

خيبة «كم كنت غبيًّا»:

وهي أكثر الخيبات مرارة على الإطلاق، حين تكتشف خطأ أفكار أو آراء لا أشخاص. كم اعتنقت أفكارًا وأجوبة بيقين تام، تكونت داخلي عبر سنوات من البحث والتجارب، واتخذت بناء عليها قرارات عملية تؤثر في حياتي كلها، ثم أكتشف بعد لحظة تنوير درامية، أو بعد تراكم عكسي تدريجي، أني كنت أحمق أحمق. كنت أخادع نفسي، وكان عقلي متأثرًا بانحيازات عاطفية و«خرائط ذهنية» مسبقة.

كلما اتسع عالمي أدركت مدى ضيقه السابق.

كلما اتسع علمي أدركت جهلي.

بعد خيبات كثيرة أصبحت أقل ملحمية، أقل يقينًا في كل شيء.

ثم أحببت إسراء.

أقول لنفسي: انتظر حتى تتأكد. يكفيك خيبات. تريثت وقاومت ثم «اندلقت!»

أصبح كل مخزون الانتماء والإخلاص واليقين المطلق لها وحدها، ولم تخيبني قط بحمد الله.

مع إسراء لا فشل، ولا سوء حظ، ولا خديعة، ولا غباء.

راحة نفسية تامة؛ حيث أكون أنا كما أنا حقًّا، بلا ذرة إخفاء أي شيء أو خجل من شيء. أقول لها: لو سأصفك بكلمة واحدة فهي أنكِ مريحة.

أكثر راحة من أنسب وسادة لظهري المتألم، أو موسيقى عذبة لقلبي الكسير.

راحة لا يعكرها إلا حبة بازلاء عابرة تحت الوسادة، أو انكسار عابر في اللحن، تنقلب حياتي حتى يزول سريعًا بحمد الله.

وكل شيء وأي شيء آخر في الحياة، أصبحت أقصر وجوده على حدوده.

في إحدى روايات الكاتب الليبي إبراهيم الكوني يقول: «كل خسارة لم نخسر بها أنفسنا خسارة عابرة»، وأنا أصبحت أقول: «كل خسارة لم أخسر بها إسراء خسارة عابرة»، إسراء هي نفسي، وسواها كل شيء يمكن أن يمرَّ.

لديَّ الآن هذا الاطمئنان النادر نحو المستقبل. بالطبع لا أمان من غدر الزمان

وتقلباته، لكن معي أمانًا أني لن أكون وحيدًا وخائب الأمل..

شكرًا للحياة التي منحتني إسراء وسط قدر لا نهائي من الاحتمالات ألا يحدث ذلك.

وأدعو لكل من أحبَّ أن يمنحه الله «إسراءه» الخاصة، سواء كانت حبًّا أو غير ذلك من كل ما يقيَ من الخيبات، كل الخيبات.

* * *

٧ نوفمبر ٢٠٢٢

أستيقظ مفزوعًا على مزيج البلل والعار لليوم الثالث على التوالي. بقرف أتلمس بنطالي آملًا أن يكون هذا عرقًا، لكنني أعرف أنه بول.

ثم أتشمم نفسي بأقل لمسات ممكنة لأعرف هل هو البول فقط، أم سربت برازًا أيضًا كالأمس. تبًّا، إنها تلك الرائحة الكريهة، وذلك الشعور اللزج المقزز.

أتحرك بحذر كي لا أحدث أدنى صوت، لكن إسراء تستيقظ بالفعل، تسرع نحوي.

قبل أي شيء تغمر وجهي ورأسي بالقبلات وتهمس: «ولا يهمك يا حبيبي». ذكية كعادتها. تعرف أن تنظيف مشاعري من الذل والقهر، يأتي قبل تنظيف جسدي من الأوساخ.

أصرخ داخلي بلا صوت: إيه اللي بيحصللي ده؟!

لا أكاد أصدق أني أعيش أكثر كوابيسي رعبًا على الإطلاق؛ كابوس الارتداد إلى «أرذل العمر».

شهدت ذلك مع بعض كبار السن في الأسرة، ومع حالة تعرضت لضرر في المخ. كل تفاصيل «بامبرز الكبار» والمشمع والقسطرة البولية والحقن الشرجية وغيرها.

أن يتحلل جسد الإنسان أمام ناظريْه، ويفقد أبسط مقوماته كمستقل بالغ ليرتدَّ طفلًا قاصرًا.

تزامن ذلك مع استمرار انتفاخ قدميَّ، أعرف جيدًا «قدم الفيل» المرتبطة بأعراض الفشل الكبدي لدى بعض كبار الأسرة أيضًا. كانت جدتي، رحمها الله، تطلب مني أن أرفع لها قدميْها إلى السرير ليمكنها النوم. هأنا ذا لا يمكنني رفع قدميَّ للسرير، ويجب أن تحملها إسراء حملًا.

ما زلت مصدومًا من سرعة التدهور الذي حدث.

قبل أيام أخبرنا الأطباء أول جدول زمني مبدئي لوضعي الحالي، كنت أتصور أن ينتهي الأمر خلال أيام خاصة أن الانسداد جزئي هذه المرة، لكنه أخبرنا أن أتوقع البقاء بالمستشفى لستة أسابيع قبل الآن.

لم أبقَ بالمستشفى لهذه الفترة بشكل متواصل في حياتي حتى بعد العملية الكبرى!

من جديد أتلقى الغدر وتدمير الخطط من ذلك «الخبيث».

قبل نحو ثلاثة أشهر، مع بدء البرنامج العلاجي الرابع، كنت قد جلست مع إسراء كصديقيْن، نشرب القهوة باللبن التي أعدَّتها لنا بجهازها اللطيف، ونتناقش حول مشاعرنا.

قلت لها إني لم أعد أستطيع تخيل نفسي حيًّا بعد سنوات بأي حال.

تذكرنا أيام بداية المرض، وحيلنا النفسية المتفائلة للغاية. محاولاتي تطبيق «التأمل» بعدة أساليب بعضها طريف مثل تخيل نفسي تحولت مقاتلًا مجهريًّا أقضي على خلايا سرطاني بنفسي في رحلة داخل خلاياي، وكذلك محاولاتي تطبيق «قانون الجذب» بتخيل رؤية نفسي كامل الشفاء والمعافاة. توافقنا أن قسوة الوقائع جعلت كليْنا عاجزًا الآن عن ذلك.

كلانا نأمل في يقين أمي وإن كنا لا نجده. كما شرحت سالفًا فالمعجزة تظل أمرًا بالغ الندرة، وحتى الأديان لم تَعِد المؤمنين

بالضرورة بالنصر والشفاء في الدنيا، بل يخاطب القرآن الصحابة بوعدٍ مختلف تمامًا ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ ﴾. كون أن أمي يمكنها جمع ذلك مع تأكدها من حدوث المعجزة لي تحديدًا بآلية «الدعاء اليقيني»، فهي قدرات أحب أن أتخيلها، أحاولها، لكني أبعد ما أكون عنها.

لكن يمكنني تطبيق «حيلة نفسية دفاعية» أخرى، وهي الخيال متوسط المدى، خاصة أنه ليس مستحيلًا أن ينجح البرنامج الجديد جزئيًّا لمدة أشهر أخرى. فلأضع أهدافًا سقفها عام على الأكثر، وهكذا ما زلنا في سياق تقدير الأطباء الذين قالوا إن أمامي عامَيْن على الأكثر.

وعدتني إسراء بأن تساعدني، وهكذا وضعنا مخططًا لأشهر قادمة، تضمن أن نسافر في رحلة قصيرة في سبتمبر، وأن أستقبل أسرتي في أكتوبر، وتنتهي بأن أزور مصر في فبراير لتحقيق حلم طفولي بعقد حفل توقيع في معرض القاهرة الدولي للكتاب؛ حيث أجمع ما كتبت حول المرض سواء ما نشرت على صفحاتي أو نصوص أخرى لم أنشرها.

أغمض عينيَّ وأتخيل تلك المشاهد المبهجة. بل إني أجهز قائمة بالمأكولات الثقيلة المدججة بأسلحة الدمار الشامل. طيلة عمري لم أكن شخصًا «أكيلًا»، لكن فقط بعدما صار الطعام عسير المنال وجدتني أنغمس في صفحات وقنوات «الفود بلوجرز»، بما فيهم من كنت أراهم الأكثر ثقل دم وسماجة!

أحاول تجنب التفكير في الجانب الرثائي من كل تلك الأحلام؛ كوني أود وداع من وما أحب، فأجدني أبتسم. أفتح عينيَّ فأرى إسراء تبتسم لي مشجعة.

مضى الأمر في البداية حسب الخطة بشكل ما، سافرنا إلى باريس لأول مرة في حياتي ليوميْن ونصف اليوم فقط، كنت قد فكرت أنه ليس معقولًا أن أعيش في أوروبا كل هذه السنوات وقد أموت ولم أرَ «عاصمة النور» وكذلك تحمَّس يحيى بشدة للمقترح. تذوقت الطعام الفرنسي الجديد بشهرته، وكان من ألطف اللحظات حين رأينا «الموناليزا» في متحف اللوفر، فبدأت إسراء الغناء من مطلع فيلم «الكويسين» الكوميدي: منى يا منى يا موناليزا .. أهلًا يا مراحب يا خطوة عزيزة.

سجلت إسراء لحظات الفرح المختلس الجميل تلك على هاتفها، لكني لم أستطع منع نفسي من لحظة تخيل أني سأموت قريبًا، وسيصبح هذا الفيديو ذكرى طريفة يشاهده من بعدي فيضحك ويتذكرني ويترحم عليَّ.

وكما يخاف المصريون من الضحك العالي الذي قد تتلوه مصيبة فيتمتمون: «اللهم اجعله خيرًا»، تحققت النبوءة معي، فبعد تلك الأيام الباريسية السعيدة فورًا، عانيت في قطار العودة فور تناولي وجبتي من آلام مبرحة هي ما تطورت لتؤدي بي للانسداد الأول ثم انفرط عقد كل شيء..

الآن أصبحت أرى موعد شهر فبراير بعيدًا جدًّا.

تتصارع داخلي صورتان غائمتان، هل أراني جالسًا لأوقِّع الكتاب وبقربي أبي وأمي وإسراء، أم أنا غائب وأرى إسراء هي من تطلق الكتاب، بينما صورتي معلقة في الخلفية وعليها شريط الرثاء الأسود؟

* * *

في كتابه «في الحب والحب العذري» خصَّص الكاتب السوري صادق جلال العظم فصلًا بعنوان «مفارقة الحب»، يناقش فيه أن الحب تتجاذبه دائمًا «نزعة الاشتداد»، وذروتها المغامرة الغرامية، مقابل «نزعة الامتداد»، وذروتها مؤسسة الزواج.

الفارق بينهما كمفهومي «اللذة»؛ تلك الومضة الساحرة العنيفة، و«السرور»؛ ذلك الهادئ المعتدل.

اليوم بعد كل هذه السنوات أفهم تمامًا الفارق بين نوعي الحب، كما أفهم أنه لا غنى عن تكوين المزيج الخاص منهما لنجاح كل علاقة.

لو كان الحب بشكل مستمر هو لحظة اللذة في همسة غزل، اندماج جسديْن، وأمثالهما، لكانت إذًا الجنة على الدنيا، ولصافحتنا الملائكة في منازلنا حقًّا!

لكننا في الواقع نهبط إلى تحديات وتعقيدات بلا حصر، بعضها لظروف خارج طرفي العلاقة، وهو ما يتطلب صفات وقدرات، وأيضًا تخطيطًا وتوفيقًا، فالمكون السماوي وحده لا يكفي بدون اجتهادنا الأرضي العمدي.

واليوم بعد كل هذه السنوات أعرف أننا كنا موفقين بأن أوقفنا علاقتنا على أساسيْن صلبيْن:

الأساس الأول هو الشفافية والحديث معًا مهما كانت النتائج، مهما اختلفنا، المهم ألا نترك علاقتنا في دائرة رد الفعل لأهوائنا أو لظروف خارجية.

وجدنا أن الأمر يستحق تنظيمًا عمديًّا. بعد خلاف كبير وجدنا أننا فيه راكمنا مشكلة لم نتحدث عنها لأشهر، فاتفقنا على أن نتحدث ١٥ دقيقة في اليوم عن علاقتنا ببنود محددة: هل ضايقتك اليوم؟ ما أفضل ما حدث مني اليوم؟

غالبًا لم يحدث ذلك يوميًّا، لكننا على الأقل احتفظنا بهامش المحاولة والتذكير دائمًا.

الأساس الثاني هو الفكرة الحاكمة لموقع كليْنا من العلاقة، اتفقنا أن الأنسب لنا هو موقع «شريكي السكن».

لسنوات عشت في «شقق عُزَّاب». أمضيت عامي الأول الجامعي طالبًا مغتربًا بكلية طب المنيا حيث عشت مع ٣ زملاء من كليات مختلفة، وبعد التخرج كررت التجربة في القاهرة مع صديق واحد أو عدة أصدقاء.

هذه الحياة المشتركة دائمًا ما كانت تتطلب جانبًا من توزيع المسئوليات: (ماذا سنأكل؟ من سيغسل ملابسنا أو سيذهب بها للغسيل؟ من سينظف المنزل؟)، أو إدارة الخلافات: (لماذا حصل فلان على الوسادة الأفضل؟ لماذا لم يدفع فلان نصيبه من مقابل تنظيف سلم العمارة؟).

شهدت أنماطًا كثيرة لحلول توزيع المهام أو لحل الخلافات، ما يجمعها هو أن الأصل بيننا حسن النية، أننا صدقاء أو على الأقل زملاء ورفاق سكن، أي بيننا «خواطر وعشم»، لدينا رصيد يسمح بالتفاهم بندية ومساواة وفي ذات الوقت بودٍّ ولطف. إذا فقدنا تلك العناصر تنهار الرابطة، وسيغادر أحد الشباب الشقة باحثًا عن بديل.

اتفقت مع إسراء أننا لا يناسبنا نمط تشبيه الحياة الزوجية بأنها «سفينة لو ليها ريسين تغرق»، أو أنها «شركة ليها مدير»، وبالطبع مساحة من «ملزم» و«غير ملزم» تأتي من عوالم القضايا والخلافات لا المودة. بل نحن نبدأ حياة مشتركة لشخصيْن متماثليْن تمامًا في الاستقلال والكرامة والحقوق والواجبات، كالأصدقاء المتساكنين في منزل.

لو أننا في شقة طلبة وقرر أحدنا أن يحسم خلافنا حول مسئولية النظافة بأنه هو رئيس المنزل بالطبيعة؛ لأنه «الأذكى»، أو «الأكبر سنًّا» أو أي معطى آخر، وعلى الباقين «الطاعة»، ما كان رد الباقين إلا طرد هذا المعتوه.

أما لو كانت له مزايا قوة فعلية؛ كونه مثلًا أصبح يتحمل دفع الإيجار كاملًا في وقت عجز فيه الآخرون، فسيفرض سلطته فعلًا. و«سيطيعه» الباقون، لكنهم لن يكونوا سعداء، ولن تجمعهم لاحقًا نزهات ومغامرات الأصدقاء التلقائية.

اتفقت مع إسراء على أن تكون روح الأصدقاء المتشاركين هي الحاكم العميق لحياتنا، من أبسط التفاصيل إلى أكبرها.

على سبيل المثال، اتفقنا على أنها حين تخبرني بأنها ذاهبة لزيارة منزل أهلها، فإني لا أشعر أني زوج رائع أنتظر العرفان لتنازلي عن حق «الإذن في خروجها»، كما أنها لا تشعر أنها حصلت مني على تنازل رهيب كون الأصل أنها أسيرة في منزلها!

الأمر بسيط جدًّا، الأصدقاء يُعلمون بعضهم بأماكن تواجدهم ولا «يستأذنون» بعضهم. مجرد بديهية.

رغم ذلك كم اكتشفنا لاحقًا صعوبة إزالة الرواسب الذكورية على كليْنا.

خلال إحدى سهرات المرض بالمستشفى فاجأتني إسراء باعترافها أنها لم تتوقع أني سأحمِّلها مسئوليات متساوية فعلًا، ظنت أنها محظوظة بمزايا كذا وكذا، ثم فوجئت أني أتعامل بشكل طبيعي وتلقائي مع هذه الأمور في مقابل تحميلها بنفس الطبيعية والتلقائية مسئوليات تصنف عادة كمهام رجالية.

لكنها فاجأتني وفاجأت نفسها.

كنا على المستوى النظري ناقشنا التحديات التي نتوقعها: الإدارة المالية، إدارة النشاطيْن اليوميين (طعام، نظافة)، حياتنا المهنية، الإنجاب، بل حتى إبقاء جذوة الحب مشتعلة بشكل واعٍ هو تحدٍّ يتطلب عملًا منظمًا كترتيب سفر أو نزهة دورية. لكن اليوم أعرف كم كانت مفاجآت الحياة عسيرة على التوقع، كما كانت قدرات إسراء دائمًا تبهرني بالجديد.

من أوليات صدمات المثال والواقع كان تحدي الإدارة المالية، في أثناء الخطوبة أخبرتني أنها لا تحب شعور «اليد السُّفلى»،

أو أنها تنتظر من ينفق عليها. كانت تعمل بالفعل في موقع إخباري لكن بأجر زهيد، وبعد زواجنا حصلت على شهادة «مونتسوري» الخاصة بالتدريس لمرحلة رياض الأطفال؛ فالتحقت بمدرسة أيرلندية في المعادي.

من حيث الشكل اتفقنا على أن نضع أموالنا بشكل مشترك داخل درج مخصص في غرفتنا، ويسحب منها من يحتاج ما يشاء، وهو ما تطور لاحقًا عبر السنوات، فأصبحنا نتشارك أرقام الكروت البنكية، وكذلك وضعنا اسمينْا بالعقود كافة المتعلقة بمسكننا وبالفواتير.

لكن الأهم هو المضمون والشعور لا الشكل.

اتفقنا على أن المهم هو أنه بكل ذرة في داخلنا نشعر أن هذا «مال الأسرة»، سواء كان مصدره أنا أو هي، فقد جاء هذا المال لأن الطرف الآخر يقدم مساهمة بقيمة «عمل غير مأجور». في حالتنا النموذج واضح: تركت إسراء عملها للتفرغ ليحيى لمدة ٤ سنوات كاملة؛ مما أثر في تراجعها المهني والمالي، بينما أنا أنمو وأتقدم. هذا حقها، لا مجاملة ولا مثالية، بل توصيف بحت.

أضعنا ساعات طويلة أيام الخطوبة في نقاشات كهذه، لكن تحدي الواقع كان مختلفًا تمامًا إلى حد مضحك: لا أموال لنقتسمها. أفلست منذ أيامي الأولى!

أنفقت بلا حساب في «أسبوع العسل» في الجونة، فكرت ببقايا الثقافة الذكورية أنه لا يصح أن أظهر أمامها عاجزًا عن دفع ثمن

مطعم غالٍ أو رحلة سافاري. نفد كل جنيه نملكه قبل خمسة أيام من نهاية الشهر، فلجأت للاقتراض من أحد أقاربي. صارحت إسراء كاتفاقنا على الشفافية المالية، ففوجئت بغضبها الشديد، وقالت إنها تفضل الجوع عن أن نبدأ حياتنا بالاستدانة.

كانت تلك المرة الأولى التي أرى وجهها الحازم. أحضرت ورقة وقلمًا وقالت: اكتب هنا كل مليم بيدخل لنا في الشهر. واجهتنا مشكلة أن بعض مصادر دخلي غير منتظمة. بعد بعض الحسابات وصلنا إلى أن الحد الأدنى الثابت من الدخل لدينا هوا كذا جنيهًا؛ إذن يجب ألا تزيد نفقاتنا عنه مطلقًا، ثم قسمت بنود النفقات من مواصلات وطعام وفواتير بحيث يتفق الرقمان بالضبط.

لن نشتري الخضر من مكان عملي بالمعادي، بل قرب منزل الأسرة في حلوان أو من أمام مترو الملك الصالح.

لن آخذ أبدًا سيارة أجرة إلى عملي بالدقي، بل سأستخدم خط مواصلات المترو والميكروباص.

كنت أنظر إلى تلك الفتاة القوية تولد، أسعد بها، لكني لا يمكنني منع نفسي من التساؤل: من أنتِ؟

* * *

٩ نوفمبر ٢٠٢٢

أرفع رأسي من النوم فجرًا محاولًا أن أصل لصحن القيء الورقي دون أن أحدث صوتًا يوقظ إسراء. من حقها أن تنام قليلًا.

كان الأطباء قد أعطوني جرعة «جاسترو جرافين» وهو مادة مُسهلة قوية تحرِّك الأمعاء، وكذلك تستخدم كصبغة ليظهر مدى الانسداد.

لكن إسراء تصحو فورًا، تناولني بصمت وسرعة صحن القيء فأتقيأ ثم تمتدّ يدها بمنديل في اللحظة المناسبة بالضبط لتمسح لي فمي، ثم برشفات مياه، ثم تهمس: عايز حاجة تاني يا حبيبي؟ أطلب منها الانتظار لينتظم تنفسي بينما أنا واقف. ترفع إسراء ساقيَّ الثقيلتيْن واحدة تلو الأخرى لإعادتي للسرير. أطلب تعديل وضع وسادتي، بعد عدة محاولات لضبط ارتفاع المرتبة. تغطيني. أخيرًا ستعود لنومها بعد فاصل استغرق نحو ساعة، وسيتكرر بعد ساعة أو ساعتيْن على الأكثر.

ذات يوم أخبرني ابني أن من قدرات الرجل العنكبوت «سبايدر مان» الخارقة، شعوره بالخطر الآتي من خلفه دون أن يراه. قلت له: هل تعرف أن أمك لديها نفس القدرة؟ فبدأ في الهتاف لها: ماما سوبر هيرو. ماما سوبر هيرو.

لم يكن تعبيري مجازيًّا.

منذ عام، بعد عملية استئصال الورم، فقدت تمامًا قدرتي على النوم المتصل ٨ ساعات كما كنت طيلة حياتي. كل يوم أصحو خلال الليل عدة مرات لأسباب متنوعة: آلام، ضيق تنفس، آلام صدر، كوابيس، جفاف الحلق وأحيانًا الجفون حتى إني أحتاج فتح التصاقهما بأصابعي.

في المقابل لا أعرف بالضبط متى اكتسبت إسراء تلك الحاسة السادسة: بمجرد أن أصحو تشعر بي، دون أن أصدر أي صوت، تتحدث بينما عيناها مغمضتان: إنتَ كويس؟ محتاج حاجة؟

كل يوم، كل ليلة.

غالبا أكتفي بطمأنتها فتواصل النوم، وأحيانًا أطلب مساعدة ما.

في اليوم التالي أسألها لو تذكر ما حدث، أحيانًا تذكره وأحيانًا أخرى لا تعرف أي شيء.

منذ المرض فاجأتني إسراء بما يكفي من القدرات الخارقة حتى صار الطيران احتمالًا غير بعيد.

قالت ورقة علمية من جامعة سالزبورج الأسترالية إن أدمغتنا لا تنام بشكل كلي، بل تحتفظ بقدر من الوعي يوازن بين الحاجة للنوم والحماية. يقوم المخ بتنبيه الجسد إذا استمع لصوت غير مألوف، عبر إطلاق موجات اسمها «كيه»، بينما يواصل النوم إذا كانت الأصوات المحيطة مألوفة.

لعل هذا من أقسى ما يفعله ذلك المسخ السرطاني: تغييره لكل ما نعرفه عن أنفسنا والآخرين. تلك القدرة بعقل إسراء قد تطورت بشكل عكسي، فأصبح صوتي المألوف هو علامة الخطر المحتمل لا العكس!

وبالمثل من أشد لحظات المرض ألمًا نفسيًّا هي حين وجدتني أبتعد عن إسراء لا إراديًّا؛ لأن الغثيان الحاد جعلني لا أطيق أي رائحة بما فيها رائحتها..

منذ زواجنا وأنا أقول إني أعشق تلك الرائحة. دائمًا أطلب منها ألا تضع عطورًا أو أي شيء يغير رائحتها. أحب ملء رئتيَّ بعبير رائحة شعرها وجسدها.

مرة أخرى يتدخل العلم بلهجته الجافة محاولًا ترجمة العواطف إلى كيمياء: ربما سر الحب هو «الفيرمونات»، وهي مواد كيميائية هرمونية يفرزها الجسد مثل العرق بمناطق الإبطيْن والأعضاء التناسلية، من المؤكد أثرها في انجذاب بعض الحيوانات لبعضها، بينما ما زال دورها في البشر محل جدل.

بوجه عام، أومن أن العواطف البشرية أعقد بكثير من تلك التفسيرات الخطية، رغم حقيقة اعترافي بدورها الهام في ذات الوقت، كواحد من العناصر المركبة للعملية.

أومن بالجانب العلمي للحب، كما أومن بجوانبه العملية، كما لا يمكنني إلا الاعتراف بمكون آخر غيبي ما تتلاقى فيه الأرواح أو «هالات الطاقة» أو غيرها من مسميات سر الحياة العميق الغامض داخلنا.

إن ادعاء أن الحب هو مجرد تفاعلات كيميائية فقط، يشبه ادعاء أن الرسم ينبع من المكونات الكيميائية للألوان، أو أن الموسيقى هي محصلة الأخشاب والبلاستيك التي تكون الآلات الموسيقية.

١٣ نوفمبر ٢٠٢٢

من جديد أنتفض وسط الليل صارخًا من الألم؛ فتقفز إسراء من سريرها لتناولني رشفات مياه أرطب بها حلقي الجاف، وفي نفس اللحظة تضغط على التنبيه الخاص باستدعاء التمريض عاجلًا.

أتلوى وأتأوه فقط، بينما تطلب إسراء بسرعة إسعافي بحقنة المسكن الإضافية.

منذ نحو ٢٥ ساعة أنا بين الألم والغيبوبة والهلاوس.

أغمض عينيَّ لحظة فأرى نارًا ودخانًا، فأستيقظ مفزوعًا. أرى إسراء تبكي. أغمض عينيَّ في اللحظة التالية فأرى أنيابًا؛ فأفزع من جديد، حتى يغلب النوم كل شيء.

كانت الأمور قد بدأت تتحسن، توقف عدم تحكمي في البول والبراز فجأة كما بدأ. كان الأطباء قد شكوا في أن السبب ضغط من العظام على عصب ما؛ فقاموا بعمل أشعة رنين مغناطيسي أظهرت عدم تضرر الأعصاب. قالوا: ربما السبب عرض جانبي لدواء معين مضاد للغثيان؛ فخفضت جرعة الدواء، وجنبًا إلى جنب لجأت لسلاح «طب مكمل» نادرًا ما خذلني، وهي تمارين العلاج الطبيعي. استعنت بمقاطع فيديو على «يوتيوب» لأطباء ومعالجين مختصين، وبدأب أصبحت أكرر بمساعدة إسراء تلك التمارين مرتين يوميًّا.

نجحت!

استعدت التحكم في أعضائي الحساسة، وما أدق ذلك التوصيف المستخدم لها في اللغة العربية، وكذلك بدأت أستعيد قدرتي على الأكل حيث سمحوا بالانتقال من مستوى «سوائل شفافة» إلى «سوائل حرة» إلى «طعام مهروس فئة ٤» .

فجأة حدث الانهيار بعد فحص الأعصاب مباشرة.

يومها مساء اندلع ألم شديد في كتفي، ظننته في البداية من أعراض بقائي لأكثر من ساعة في وضع غير مريح، بينما أنا دائمًا حساس لتلك الأمور بسبب مشاكل التواء عمودي الفقري، لكن الأمر تفاقم.

في اليوم الثاني والثالث انفجر ألم رهيب لا يوصف، مجرد بقاء كتفي مكانه أصبح مؤلمًا.

سمعتني إسراء أهلوس: أنا بكره جسمي. فهمست بين دموعها: لكن أنا بحبه.

سمعتني أصرخ: أنا عايز أقطع دراعي. فهمست: بعد الشر.

العلاج الفوري كان قفزة كبيرة بمعدل المسكن مشتق «المورفين» الذي أتعاطاه، نجح ذلك فعلًا في تخفيف الألم، لكنه على الجانب الآخر أفسد تمامًا كل تحسن أحرزته بانسداد الأمعاء، عاد الشلل كما كان بالضبط، وقيء مستمر، لا شيء ينزل للأسفل، ولَّد هذا بدوره المزيد من المغص والتقلصات.

ما كل هذا الجنون؟

بالأمس أتلمس رقبتي فوجدت كتلة صلبة بيضاوية في حجم اللوزة يسار خط المنتصف مباشرة. بمجرد أن ضغطت قليلًا زأرت آلام كتفي، وتحديدًا توزيع العصب المميز الذي يعطي الشعور للإصبعيْن الخنصر والبنصر. لقد وجدت اللعين، أم هو من وجدني؟!

شكَّ الأطباء في كونه تضخمًا للغدة للدرقية، ثم أثبتت الأشعة أنها عقدة لمفاوية متضخمة.

اليوم أصبحت «اللوزة» في حجم ثمرة مشمش صغيرة. تضخم مرعب في يوم واحد!

اتفق الأطباء على أنه لا بديل عن إزالتها موضعيًّا، وسيتم ذلك بالعلاج الإشعاعي الدقيق. أجريت اليوم فحصًا لتحديد هل يمكن

استبدال البرنامج الاعتيادي الذي قد يستغرق جلسات إشعاع يوميًا ببرنامج آخر يضرب مرة واحدة مكثفة.

ثم استجدَّت ظاهرة أخرى: انحباس الغازات!

مع كل رشفة من أي سائل أشعر بفقاعة غازية محشورة. مع الوقت فهمت أنها بالضبط آلية مشاكل الأطفال في سن الرضاعة مع التجشؤ أو «التكريع» كما نسميه بمصر.

اكتشفت الحل، وهو بالضبط نفس الحل مع الأطفال: ضربات خفيفة متكررة منتظمة بعد كل بضع رشفات.

أشعر بإحباط شديد بسبب كل هذا الارتداد.

كل يوم أخسر عضوًا أو وظيفة من عضو. كأني أتساقط بالتدريج. هل أموت بالتقسيط؟

أصارح إسراء بأفكاري الرثائية فتطلب مني التوقف عن هذا التفكير، وأنظر لجوانب إيجابية.

أتأملها نائمة على سرير مستواه منخفض للغاية تحتي، فأقول لها: يا إسراء كإنك بتعملي اللي بيقولوه في الأفلام «فضلت قاعدة عند رجل جوزها تخدمه»، فتقول إنها تفخر بهذا التشبيه مادامت هي من اختارت أن تفعل ذلك لحبيبها، بل تؤكد أنه «ده العادي» لأني كنت سأفعل المثل لو تبادلنا الظروف، «مش كده ولا إيه؟»، فأقول لها إني أقسم إني لو كنت مكانها ما فعلت إلا ذلك، ويشرفني أن أكون عند قدميْها لأخدمها، لكني أحمد الله أنني أنا المصاب لا هي. نتشارك البكاء.

بالتوازي تستمر إسراء الخارقة في فعل ما لم أتوقعه:

تواصل عملها في مجالها بـ «بحوث السوق» في واحدة من الشركات الكبرى عالميًّا، بل أبلغوها رسميًّا قبل أيام بحصولها على علاوة نهاية العام، أي حققت مستهدفاتها فلا مجاملات في الأرقام.

كانوا قد منحوها بسبب ظروفي استثناء العمل الدائم من المنزل. لكنه حقًّا «عمل». تسهر معي في هذا الجحيم الليلي ثم أفتح عينيَّ في الثامنة فأجدها تفتح شاشتها المليئة بالجداول والأرقام. كلانا يفضل الاعتماد على الذات طالما كان ذلك ممكنًا لآخر لحظة متاحة.

بالتوازي كل خطط و«روتين» يحيى تمضي حسب المعتاد إلى حد كبير، تذهب به إلى مواعيد تمارين السباحة والفنون واجتماعات المدرسة. حتى أنا في لحظات وعيي بالمستشفى قمت كالمعتاد بمهمة اختيار وجباته للأسابيع القادمة.

ولا ينفي ذلك طبعًا حصولنا على مساعدات كبيرة من أصدقاء رائعين تمَّ دمجهم في الخطة بتنسيق بطرق كثيرة تشمل مجالسة يحيى وتوصيلات لمدرسته أو للمستشفيات وشراء متطلبات وغيرها..

لا أعدد هنا أسماء الأصدقاء ورفاق الرحلة من المصريين والعرب زملائي وأحبائي، كي لا أنسى أحدًا فأغفل سهوا فضل كثيرين، بل إني لا أنسى أطباء وأفراد تمريض كانوا حقًّا لا مجازًا ملائكة رحمة. من أصبحت أعده صديقي العزيز الدكتور ديفيد فوير مختص إدارة الألم، ولطالما أنقذني بحلوله المبتكرة لتخفيف آلامي، والطبيب ذا الأصول الإفريقية د. إلكيم الذي يسمعني بكل صبر. الممرضة

الآسيوية شير التي صادقت أمي بكل لطف، وكذلك بالطبع طبيب الأورام بروفيسور أركناو الذي يحاول معي لآخر لحظة لمساعدتي على الوصول لتجارب جديدة، وكذلك بروفيسور جورج حنا الذي منحني من وقته وعلمه بصراحة ولطف. الجميع منقوشون في قلبي وأقول لهم: جمائلكم لا أنساها ما حييت.

* * *

لكن بالعودة إلى مسار حياتنا الماضية أجد أيضًا أنها لم تسر دائمًا بذات سلاسة تحدي الإدارة المالية، وعلى رأسها تحديات الإنجاب وما يتطلبه من ترتيبات الحياتيْن المهنية والشخصية.

كنا قد اتفقنا في أثناء الخطوبة على تأجيل الإنجاب، قلنا بصراحة إنها فرصتنا الوحيدة لنكون منفرديْن في علاقة لشخصيْن لا لثلاثة، واتفقنا بصراحة على أنها أيضًا فرصة لنا لننفصل إذا ظهر أننا غير مناسبيْن لبعض.

لكن بعد ستة أشهر فقط، همست لها باسمًا: إسراء، أنا عايز أخلف منك.

كانت إسراء تعي تمامًا متطلبات القرار وتأثيراته، وحاولت أن تشرح لي أن كل شيء في حياتنا سيختلف بعدها، لكني كنت مندفعًا بعاطفية وقد أحببت مظهري وأنا والد في أسرة صغيرة.

كانت إسراء وقتها تدرس للحصول على شهادة التدريس الدولية « مونتسوري» لحبها للأطفال، وبالفعل سرعان ما وجدت عملًا في حضانة أيرلندية بحي المعادي.

بالتوازي كنت أنغمس في أعمالي العديدة المتوازية، حتى إن أغلب فترة الحمل أمضيناها في منزل أسرة إسراء كي تساعدها أمها.

كنت قد وعدتها أننا سنقسم عبء الطفل علينا بالتساوي بالضبط. وعد أحمق. كيف سنفعل بينما اتفقنا على اختيار الرضاعة الطبيعية للطفل ما دام بإمكانها ذلك صحيًّا، وكذلك باختيارنا أنها لن تتركه أبدًا مع مربية إلا حين يمكنه التعبيرعن نفسه؟

لم أكن أفهم ما تتطلبه تلك الخيارات من وقت ومجهود، وقصرت في تقديم المطلوب مني، والنتيجة أن إسراء كانت لعامَيْن لا تنام تقريبًا، تصحو لترضع يحيى، بينما أنا أغط في نوم عميق. قالت لي إنها أحيانًا احتاجتني ونادتني فلم أرد من فرط عمق نومي متأثرًا بيوم عملي الطويل فبكت قهرًا.

لكن زادت الأزمة تفاقمًا بعدما سافرنا إلى لندن قبل نهاية العام الثاني من زواجنا، في قفزة كانت خارج المخطط.

فجأة لم تعد حولنا أي دوائر دعم أسري، نبدأ من جديد ببطء صنع دوائر أصدقاء صار بعضهم اليوم من أحب البشر وأكثرهم تقديمًا للمساعدة، بينما ابتعد آخرون، فضلًا عن ارتفاع أسعار كل الخدمات المعاونة لتنظيف المنزل وخلافه.

صار خلافنا الدائم يدور حول نقطة محددة: إسراء ترى أنها تعمل طيلة اليوم مع يحيى، وبالتالي فمجرد عودتي للمنزل صار هو مسئوليتي أنا الأولى، وهذا لا يجعلنا متساوين فأنا هكذا أرعاه فقط ساعتيْن أو ثلاثًا يوميًّا بالإضافة إلى الإجازات.

لكن زاوية رؤيتي مختلفة تمامًا: أنا في الخارج أعمل أيضًا ولا ألعب!

أنا لا أتفِّه أبدًا من مدى مشقة العمل المنزلي، لكني لا أقبل أيضًا التسفيه من مشقة العمل غير المنزلي!

لذلك فالحساب العادل هو أن وقت عملي بالخارج يكافئ تمامًا عملها بالداخل، وما بقيَ هو ما نقتسمه ٥٠٪ - ٥٠٪.

وأنا أصلًا أريد هذه الـ ٥٠٪ ليس لملذاتي وأهوائي؛ بل لأعمل أيضًا، أعمالًا تحتاجها هذه الأسرة التي تعيش في إحدى أغلى مدن العالم المصممة ليعيل الأسرة بها دخلان لا دخل واحد.

لكنها ترد عليَّ محقة بأني أقول ذلك فقط، لكني أفعل كذا وكذا تطوعًا بلا مقابل، وكذا بمقابل زهيد، فأرد عليها أنه حتى هذا العمل التطوعي اليوم قد يتحول مصدرًا ماديًّا مستقبلًا، فضلًا عن أن هذا الجانب التطوعي وحتى «المزاجي» من حياتي وكتابتي موجود منذ عرفتيني، منذ متى وأنا لا أفعل؟ فترد: يفترض منذ أنجبت.

منذ تزوجنا إلى اليوم لم نذكر قط كلمة «انفصال» إلا في مرَّات على أصابع يد واحدة مرتبطة تحديدًا بهذا الملف فقط، أو في مرة أخرى خارقة الاستثنائية حين ابتدع ضابط ما بجهة أمنية أن يمنع سفر إسراء ويحيى ويسحب جوازات سفرهما كوسيلة لابتزازي دون أي طلب محدد، لم أفهم إلى اليوم دوافع سيادته، لكن إسراء تعاملت مع القصة بصلابة مدهشة، ومنها قرار بتقدمي لتوكيل طلاق للسفارة المصرية في لندن! وكما حدثت الأزمة فجأة انحلت فجأة،

بعد استجوابات ونحوها عادت جوازات السفر دون أن نفهم هل تمَّ حل المشكلة ذاتيًّا أو عبر وساطات خير أشكر أصحابها.

لكن ما يعنيني حقًّا هو تلك المرة التي أنا مسئول فيها عنها، وقلت لإسراء لاحقًا، ومنذ ما قبل السرطان، إنها أسوأ ما أخطأت به في حياتي معها؛ وهي قراري الأناني بالسفر إلى زمالة دراسية في البوسنة عام ٢٠١٨. فجأة وجدتني إسراء أخبرها أني سأتغيب شهرًا لأدرس زمالة إعلامية ما.

وضعتها أمام الأمر الواقع كأنه من الاعتيادي أن تعيش وحدها تمامًا مع ابنها في بلد غريب.

وكالعادة لا تأتي المصائب فرادى، شهد ذلك الشهر تحديدًا سيولًا جارفة أدت لانهيار سقف منزلنا المتهالك حرفيًّا (أمضينا خمس سنوات في منازل كانت تابعة سابقًا للبلدية، كلها قديمة البنية وضيقة، قبل أن «يوسعها ربنا علينا» كما أصبحت أقول بعدها، حين أمكننا الانتقال لمنزلنا الأخير المستقل ذي الحديقة بذلك الحي الأبعد والأرخص والأجمل). شاهدت منظر سقف غرفة النوم الصادم حيث انهار جزء من خشبها وتحته ألياف العزل المبطنة وجبل من الطين دمر السرير الفارغ وقتها لحسن الحظ. ترعبني إلى اليوم فكرة أنه كان يمكن أن يسقط فوق إسراء ويحيى، كما يرعبني تخيل شعورها يوم سمعت صوت الانهيار فجرت مفزوعة لحجرة النوم وشاهدت ما حدث.

تابعت إسراء مع العمال وصاحب المنزل إصلاح السقف، ثم تركيب أرضيات جديدة، وموكيت جديد، ووحدات تدفئة

جديدة، وفي أثناء ذلك ساهمت في نقل أثاث المنزل كله لغرفة واحدة وإعادته، ومبيتها مع ابنها منفردة بغرفة بديلة، إلخ.. إلخ من المهام الشاقة.

منذ «واقعة البوسنة» تلك انكسر بيننا شيء عاطفيّ ما لم يعد بعدها قط للأسف..

قبلها كانت إسراء أحيانًا تناديني بينما أنا ساهر لأكتب لتطلب أن آتي الآن فورًا لأنه لا يمكنها النوم وحدها، لكن منذ ذلك اليوم انتهى ذلك تمامًا. قالت لي إني أنا من جعلتها تعتاد النوم وحيدة بلا أي مشاكل، وما أقسى ذلك الشعور. اعتذرت طويلًا، لكن لا تغير الاعتذارات من الواقع.

وإن كان ثَمَّ عزاء فإنه في وقت مقارب أتمَّ يحيى سنواته الأربع، فحان دور إسراء للعودة إلى سوق العمل، وصممت إسراء على أن يكون ذلك مستقلًّا عني وبعيدًا عن مجالي الإعلامي أو الطبي، وكذلك بعيدًا عن «المونتسوري» والأطفال حيث يكفيها طفل واحد في المنزل. سهرت إسراء يوميًّا تغرق مواقع التوظيف الإنجليزية برسائلها التي غيرت فيها بالسيرة الذاتية ترتيب المؤهلات والخبرات حسب مجالها الأقرب لدراستها بالكلية: إدارة الأعمال والتسويق، حتى حصلت بلا أي واسطة على عملها الحالي.

قالت إسراء بعدها إنها تدريجيًّا أصبحت أيضًا تتفهم بعض الأمور بشكل مختلف، مثل أنماط معينة من ضغوط العمل والانغماس فيه.

في آخر عيد زواج سعيد لنا في مايو ٢٠٢١، حجزنا يومينْ في فندق، استغللناهما للاستجمام والتقارب ونقاش ما مضى. كلانا

اتفق على ما نشعر به من رضا بحمد الله بعد ثماني سنوات من الزواج أو عقد من العلاقة.

عبر السنوات نضجت علاقتنا أكثر، صارت العواطف أهدأ، لكنها أكثر استقرارًا.

كلانا تغير في أفكاره وآرائه وبعض طباعه، تطورنا معًا بهدوء، واحترمنا مواضع الاختلاف، وحاولنا المقاربة في مواضع التقارب.

أنا كسبت صديقًا ذكيًّا لا أثق إلا به قبل أي شخص آخر.

تكفيني نظرة رضا في عينيْها لملابس جديدة لأقتنع بها فورًا، أو نظرة استهجان لأكرهها بشدة. أقول لها: «أنا بلبس لزبون واحد».

دائمًا كانت إسراء أول من يقرأ لي مقالاتي وأعمالي قبل النشر وكم أفادتني بشدة، وكم أجريت تعديلات بناء على ملاحظاتها البناءة.

لم أصل إلى معاييرها في النظافة المنزلية لكني ارتقيت، كما أن بعض العواصف ما زالت تنجم من مبالغتي في العمل لكنها صارت أكثر تفهمًا.

سبق لي أن شبهت الكتابة بالطبخ، المقادير في كل الوصفات واحدة، لكن لا توجد طبختان متطابقتان تمامًا، يتداخل عدد لا نهائي من العوامل، بعضها يمكن حسابه مثل مصدر الخامات، أو نوع الفرن، وبعضها خارج الحسابات مما نصفه شعبيًّا بـ «النَّفَس» أو يُترجم احترافيًّا إلى عامل الخبرة.

العلاقات الإنسانية أيضًا وعلى رأسها الحب كذلك.

مثلًا لا يوجد «ترمومتر» لقياس الدرجة التي تتحول عندها صفة الاهتمام المرغوبة إلى صفة الحصار المرفوضة. وثمة شعرة بين التمسك بالرأي وبين العناد، بين الكرامة والغرور، بين احترام الخصوصية واللا مبالاة.

ما يحدد الدرجات المضبوطة لكل متطلب من الشريك هو توازن دقيق يتطلب من الطرفيْن سعيًا، وصبرًا، ومصارحة.

تمَّ إنضاج علاقتنا على نار هادئة جدًّا.

لم أعد أنظر بانبهار إلى إسراء بشكل مثير للضحك من حولنا؛ لأنها أصبحت جزءًا مني.

إسراء أصبحت «أنا».

هل أفكر لو كانت يدي أو قدمي يمكن أن تغادرني؟

أذكر أننا تساءلنا: هل يمكن أن تمضي بنا الحياة سعيدة هكذا رغم كل شيء؟

قلت لإسراء: ربما تستمر ولو لبعض الوقت، ولسنا هانئين بكل شيء بالنظر إلى ما حدث منذ وفاة والدتها تحديدًا.. قلت هذا قبل أيام فقط من التشخيص.

كأن اللعنة كانت شبحًا يحلق فوقي ويستعد لإسدال ستاره الأسود على حياتنا بينما نحن نتحدث ونضحك ولا ندري شيئًا بعدُ عن النبأ الرهيب..

* * *

أربع إيدين، أربع شفايف على الفطار، وشاي بلبن
أربع إيدين، وأربع شفايف على الفطار
يبوسوا بعض ويحضنوا نور النهار
بين صدرها وصدره وبين البسمتين
بيحضنوا الحب اللي جامعهم سوا على الفطار
ويحضنوا الشمس اللي بتهز الستار
وتخش من بين الخيوط وبعضها مع الهوا
في الأوضة ترسم نفسها على أرضها
على البساط اللي اشتروه مع الجهاز
على الغرام اللي اشتروه
من غير تمن، وع الإزاز
ويشربوا الشاي باللبن في فنجانين
بيصحوا قلبي كل ليلة في المنام
وبيكتبوا بلون منور فزدقي
على الهوا الأسود وع الجفن اللي نام
بيكتبوا بلون منور فزدقي كلمة: سلام

من أغنية شاي بلبن ـ كلمات الشاعر صلاح جاهين ـ غناء يسرا الهواري (التي كانت سابقًا عضوة بفرقة الطمي)

اعتبرناها إسراء وأنا الأغنية المعبرة عن حياتنا، ولطالما تشاركنا غناءها.

* * *

١٤ نوفمبر ٢٠٢٢

رائحة فضلات البشرية تملأ غرفتي.

في البداية لا أفهم هل هناك مشكلة صرف في مستشفى مرموق بقلب لندن.

ثم أستوعب أن المشكلة من عندي. هل عدت لفقد التحكم في فضلاتي؟! أتحسس ملابسي الداخلية فأجدها سليمة.

تدريجيًّا أفهم أنه ذلك السائل البني الذي تقيأت منه كثيرًا في الأطباق المفتوحة المنثورة حولي، وكذلك في كيس نزح السوائل.

إنني أخرج من فمي الآن فضلاتي البشرية.. خرائي!

كانت القصة قد بدأت في ليلة مجنونة بالأمس؛ حيث استيقظت منتصف الليل فجرًا وأنا في حالة من الهلع والهذيان لم أعهدها قط. حقًّا أنا لا أعلم من أنا، وأين أنا. أحاول تذكر من صاحب هذا الجسد. من هذه الفتاة الحزينة أمامي. أحاول الوصول إلى جسدي ولا أصل إليه، كأن روحي انفصلت تمامًا عنه. أراني من الخارج وأتحدث إليَّ لكن صوتي لا يخرج. قرأت لاحقًا أن هذا يشبه ما مرَّ به بعض من تناولوا العقارات المهلوسة «سايكيديليك» ويسمونها رحلات «تريبس». لكني لم أتناول أي شيء.

بهلع فكر جزء مني: هل أنا جننت وهذا ما يفعله المجانين حيث يبقون للأبد في ذلك الوضع المعلق، أم أنا أموت وتخرج روحي الآن؟ أخذت أهتف بالشهادتيْن بصوت مرتفع وهستيريا أمام حوض الحمام، ما أفزع إسراء بشدة، لكنها رغم ذلك احتفظت

بقدرتها على استدعاء التمريض ليعطوني جرعات أدوية عاجلة أعادتني للحياة بشكل ما.

اليوم صباحًا قالوا إن ما يحدث من أعراض هو استمرار للانسداد التام، واحتجاز مادة الجاستروجرافين، خاصة أن الممرضة فشلت بالأمس في إدخال الأنبوب الذي انحشر مرتيْن. لذلك قرروا اليوم تركيب الأنبوب تحت أشعة «إكس» مع طبيب متخصص ومخدر موضعي.

وهكذا وجدتني قد تحولت إلى مشهد السيارة تحت يد الميكانيكي، جسدي أقرب لمجرد آلة يتم تسليكها. كان الطبيب يغير مقاسات القسطرة ويدفع بشدة فانفجر القيء مني واختنقت، فتوقف الطبيب وخيرني بين أن يكتفي بهذا القدر أم يكمل ويدفع بشدة محاولًا فتح ذلك الانسداد الرئيسي. أراني المشهد في الشاشة فتملكتني قوة هائلة، هي روح المقاتل التي يتحدثون عنها، فقلت: لنكمل فورًا مهما حدث؛ وهنا دفع الرجل القسطرة بشدة مرة وأخرى، ثم انفجر السيل أخيرًا.

سيل من «خرائي» الكريه المحشور منذ نحو أسبوعيْن، وها هو يملأ حولي صحون القيء الورقية فضلًا عن كيس الأنبوب الذي يحاول التمريض ملاحقته.

شعرت بالرثاء الشديد لإسراء وهي التي كانت تأنف من أدنى خدش للنظافة أو الرائحة، فهي تتحمل الآن كل هذا بطيب نفس.

تذكرت أبيات المعتمد بن عباد الرثائية لبناته اللائي شاهدهن يلعبن متسخات، بعد أن كنَّ متعطرات بأغلى العطور حتى إن المعتمد في واقعة شهيرة استبدل الطين بمزيج المسك والعنبر لزوجته:

يطأن في الطين والأقـدام حافيـةً

تشكو فراق حذاءٍ كـان موفـورا

قد لوّثت بيد الأقـذاء واتسخـت

كأنها لـم تطـأ مسكـًا وكافـورا

لكن المعتمد يعترف بذنبه، فالزمان قد دار عليه بعدما «وكم حكمت على الأقوام في صلفٍ»، بينما أنا لم أحكم في صلفٍ أو غيره على أحد، فما ذَنبي؟

انتهزت فرصة مغادرة إسراء لأحد شئون يحيى فقررت أن أغير ما بيدي، تراجعت كمية القيء فقررت التوقف عن استخدام كل الأطباق الورقية المفتوحة وتخصيص واحد فقط مغلق بالحمام، وكذلك تناولت جرعات إضافية من مضادات القيء، وعطرت الغرفة بمعطر للجو. ناديت الممرضة لتساعدني على تغيير ملابسي التي اتسخت هي الأخرى بالسائل البني الكريه، ورششت على نفسي عطرًا أعرف أن إسراء تحبه.

هكذا ستقتصر رائحة فضلاتي (خرائي) في داخل هذا الكيس ذي السوائل القريبة من أنفي، ولأجد أنا حلولي الخاصة.

كانت إسراء تنوي أن تساعدني على تغيير ملابسي حين تأتي، لكنها فوجئت بما حدث وسعدت به.

إن كان بيدي شيء أقدمه لها فليكن هذا؛ أن أخفف من رائحة خرائي، فيا لها من هدية سرطانية رومانسية!

* * *

في مقطع من كتابها «باولا» تروي إيزابيل الليندي أنها حاولت إقناع زوج ابنتها المحتضرة بالتسرية عن نفسه، تقنع نفسها عبر إقناعه بتقبل فكرة فقدها، لكن إرنستو يرفض بإصرار:

«لا معنى لأيِّ شيء من دون باولا. ليس هناك ما يستحقّ الذكر. فمنذ أن أغمضت عينيْها انزاح الضوء عن الدنيا. لا يمكن للربّ أن ينتزعها منِّي، وإلَّا فلماذا جمعني وإيَّاها؟ ما زالت أمامنا حياة طويلة لنتقاسمها معًا! إنَّه امتحان فظيع، ولكنَّنا سنتمكَّن من تجاوزه..»

لكن لاحقًا لا يجد أرنستو مفرًّا من التساؤل الحائر:

«أنكون أنا وباولا قد أحببنا كثيرًا، واستنفدنا بشراهة السعادةَ المخصَّصة لنا؟ أنكون قد التهمنا الحياة؟»

* * *

١٧ نوفمبر ٢٠٢٢

هواء!

أبحث عن ذرة هواء واحدة فلا أجد!

أشعر بضيق تنفس فأرسل رسالة لأمي أطلب منها أن تدعو لي أن يفرج عني.

الساعة الحادية عشرة، كنت قد تناولت أدوية ما قبل النوم ذات المواد المُغيبة وتمَّ توصيلي بالتغذية الوريدية المعتادة التي أبقى عليها ١٢ ساعة يوميًا، لكن هذه المرة ما اختلف هو توصيلي بكمية

إضافية من المحلول الملحي لتنظيف مجرى الكلى الذي تزايدت فيه أرقام «اليوريا».

فجأة أعجز عن سحب نفس واحد.

خرج مني زفير ولا شهيق بعده.

أرى الموت حرفيًّا.

أقفز واقفًا بشكل يفزع إسراء، بينما أهمس بصوت متحشرج بالشهادتيْن.

بالأرقام بدأ معدل الأكسجين يهبط في الدم رغم أني أضع قناعًا يمدني به.

بآخر ما بقيَ من رمق الحياة نزل عليَّ الإلهام، كاسم أمي: السبب هو هذا المحلول الإضافي. رأيته وقد تراكم في آخر مساحة باقية في صدري وجذعي؛ حيث كنت قد لاحظت قبل أسبوع أن يومًا كهذا ترك أثرًا لم يزل في كمية الانتفاخ بقدم الفيل عندي.

صحت بجنون بينما أرى الموت في الممرضة التي استدعتها إسراء أنه يجب الآن فورًا فصل كل شيء عني. مفزوعة أوقفت التدفق لكنها ذهبت لتسأل الطبيبة الأكبر عن الفصل؛ لأنه يعني عدم إمكان استعادته طيلة الليلة. سرعان ما أتى الرد بالإيجاب وأن هذه المضاعفات قد تحدث!

أمضيت ليلة جحيمية. بالكاد تمكنت من استعادة بعض التنفس بعد ساعة. ثم صرت أغفو وأصحو وأهلوس بين أدوية

المسكنات والمنومات المتلاحقة، وأنظر إلى عقرب الساعة بينما هو لا يكاد يتحرك.

يمرّ عمر كامل في الأحلام، أرى فيه أصدقاء قدامى وذكريات طفولتي المبكرة. أول طبيب أطفال لي، وأول شجار مدرسي أحمق. ثم أجد أنها خمس دقائق فقط مرَّت، وأن إسراء قربي تمسك يدي وتبكي. أسمع إسراء تهمس: لا حول ولا قوة إلا بالله.

لكني في نهاية الليلة نزل عليَّ هدوء وسكينة بشكل مفاجئ ونمت ساعتيْن، ثم ساعتيْن.

في اليوم التالي تحوَّل هذا إلى هاجسي الجديد: التنفس.

لحسن الحظ كان لدى الأطباء ما يفعلونه. جعلوا الأمر أولوية جسدية ونفسية لهذا اليوم. هكذا تمَّ عمل إجراءات تتضمن عملية جراحية لنزح سوائل الرئة اليمنى، وهكذا تمت إضافة صديق آخر «صديق الوزن» لي، هو علبة بلاستيكية كبيرة ممتدة من أنبوبة غليظ يحمل سوائل الرئة.

وكذلك كان أفضل قرار هو خفض كمية السوائل التي أتلقاها عبر التغذية الوريدية.

أسفر هذا عن تحسن فعليٍّ لحظيٍّ كبير. لا أصدق عيني وأنا أرى أكياس سوائل ودماء كبيرة تخرج من بطني ورئتيَّ.

وهكذا اليوم فقط ألتقط أنفاسي اللاهثة وبسرعة أدوِّن الأحداث الماضية وأعيد تركيبها مع نصوص قديمة عبر أشهر لإنتاج هذا الفصل الخاص بإسراء الذي طالت كتابته لأشهر وانتهى بي الآن

أن أملي السطور عليها شفويًا محاولًا عدم بعثرة الفقرات، وفي الوقت ذاته ألا أتحدث باسم إسراء؛ لتكون كما هي دائمًا، ذات صوت مستقل لا يتداخل مع صوتي.

بالعودة إلى مسار ذاك اليوم: عانيت مساء تعقيدات جحيمية من نوع آخر، فلم يعد بإمكاني النوم على جانبي الأيمن الذي اعتدته بعد تركيب الأنبوب، وهكذا صار على إسراء أن تقوم كل ساعة أو اثنتيْن بتباديل وتوافيق عديدة على ترتيب وسادتي لأنام فقط على ظهري، بالإضافة إلى إمدادات دوائية لا تنقطع.

في اليوم التالي بحمد الله تمت إزالة «مسمار جحا» هذا من رئتي فكأنما أعتقوني.

أحاول الابتعاد عن الحكم المكررة، لكني لا يمكنني مقاومة التفكير في أنه ما أهون دنيا لا تساوي دخول أو خروج نفس هواء أو شربة ماء أو لقمة طعام.

هي أمور طالما سمعتها، لكن معايشتها مختلفة تمامًا، وحقًّا وصدقًا «الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى».

* * *

ابني الحبيب يحيى،

لأول مرة أوجِّه لك الحديث في هذا الكتاب الذي لم أضع اسمك في إهدائه، لا لشيء إلا لرغبتي في عدم تحميلك أي عبء نفسي ولو بإلزامك بقراءته.

هذه ليست رسالة لتقرأها كوصية بعد وفاتي، بل أرانا نقرؤها معًا كمحاولة لإمضاء «كواليتي تايم» كما يسمونه هنا، أو ربما تحب أن تتعلم أفضل عن اللغة العربية، وقتها سيكون أبوك وكتابه في الخدمة إن لم تجدنا مملين. أفهم تمامًا الفارق بين من لغته الأولى العربية أو الإنجليزية وأنا عازم على احترام اختياراتك واختلافاتك.

كم أبهرتني يا بنيَّ منذ سنواتك الأولى.

في لحظة ما من عامك الثاني انفجرت داخلي مشاعر الأبوة نحوك بلا حدود. أنبهر وأنا أرى معجزة تكوُّني تتكرر. هناك «محمد» آخر صغير أراه لكنه ليس أنا بالضبط، بل هو.

حرفيًّا أشعر أني أنظر «للذي قلبيَ الآنَ تفاحةٌ في يدَيْه
للذي قلبيَ الآنَ كرةٌ بين رِجْليْه
للذي لو نامَ
روحي ترفرفُ مثلَ الفراشةِ
فوقَ سريرِهِ
ولو استيقظَ الآن
ينتعلُ القلبَ قبلَ حذائِهِ».

أعرف أنك نبت إنجليزي من أصول مصرية، ولست مثلي مصريًّا ثم لتقلْ جوازات السفر ما شاءت، وكم أحترم اختلافنا هذا.

أنت ابن جيل نجومه «يوتيوبرز» و«تيك توكرز»، كثيرًا ما حاولت فهمهما معك، وكثيرًا ما أحببت نجاحنا معًا في الاتفاق على آليات

لبحث مصداقية كلامهما، ومن هما الأفضل في تبني القضايا المفيدة.

كم أحببت حين فاجأتني في «السوبر ماركت» بإشارتك إلى علامة «فري تريد»، ومعناها أن المزارعين يحصلون على رواتب أفضل لذلك يجب أن أدعمهم، أو حين فاجأتنا أنك طرحت في مناقشة الفصل قضية عدم تساوي المرأة والرجل في الدخول، أو حين طلبت مني التبرع لدعم فريقك المفضل لتنظيف المحيطات. كانت أفكاري مختلفة تمامًا ومحدودة تمامًا في سن الثامنة!

كلي شوق لأرى أفكارك مراهقًا، لكني منذ الآن مطمئن عليك، فقد شهدت كيف تعاملت بنضج شديد مع إبلاغ إسراء لك بصراحة بحقيقة وضعي الصحي.

كما حاول جدي يومًا ما أن يحمي أطفاله بفقاعة عن مآسي الحياة، وكذلك حاول أبي وأمي، حاولت أنا أيضًا واكتفيت بالحديث العام عن أني مريض في بطني.

لكن إسراء أخذت المبادرة، واستشارت متخصصة نفسية للأطفال، وهكذا سمعت منها للمرة الأولى اسم مرضي: السرطان، وأخبرتك عن صعوبة العلاج. كم أسعدني أنك كنت عمليًّا تؤكد أني أحصل على أفضل الأطباء والأدوية.

تدريجيًّا أظهرت عواطفك أكثر. ألحظ حرصك على تقديم كل ما بيدك لإسعادي، كالقراءة ونقاش المعلومات معي، أو كالهمس بصوت منخفض وقت نومي، أو كالحذر عند احتضاني.

كنت دائمًا ترفض فكرة أن ننجب لك أخًا أو أختًا ثم فجأة غيرت رأيك، تحديدًا بعد توقيت تشخيصي، لعل ذلك تأثرًا

بلقائك بأبناء إخوتي وإخوة إسراء بمثل عمرك، لكنك توقفت عن ذلك بعد أن أخبرناك.

كم تأثرت حين حكى ابن جارنا أنك طلبت منه أن يكون أخاك لمدة عشر سنوات لأن «بابا مريض بالسرطان ولا نعرف لو كان سيعيش أم لا». يومها ناقشت مع إسراء خيار تجميد حيواناتي المنوية كاحتياط لا يضرّ ثم القرار لكما.

حين توفِّيَ «تكنوبليد»؛ نجم يوتيوب الشهير الذي كنت أنت تتابع مقاطعه عن لعبة ماينكرافت، خشيت أن تصدمك القصة، لكني أحببت رؤيتك الإيجابية لها قلت: لقد توفِّيَ بعد أشهر قليلة فقط بينما أنت عشت أكثر من عام، أنت بطل يا بابا.

بل أنت البطل يا حبيبي. نعم، سنفعلها معًا.

وبطاقة الأمل في المستقبل تلك، ورغم أني لم أتلقَّ أي علاج منذ نحو شهريْن، وكلما سألت طبيبًا تردَّد في فعل أي شيء في المرحلة الحالية إلا «إدارة يوم بيوم»، حتى إن أحدهم خرق المعايير العلمية وقال لي : «ليس أمامنا إلا أن ترفع يدك للسماء». أقول إنه رغم كل ذلك فقد بدأت أراسل تجارب علاجات أقرب لخيال اليوم وواقع الغد؛

الأولى هي «الفيروسات قاتلة السرطان» Oncolytic viruses

الفكرة بسيطة، إذا كان تعريف الفيروس أنه غلاف بروتيني يحقن مادته الوراثية داخل خلايا معينة فيستخدمها لتكاثره ثم يدمرها، فلماذا لا نعدل فيروسات تهاجم الخلايا السرطانية؟ سنُمرض المرض!

الثانية هي «العلاج بالخلايا المناعية» CAR-T cells

سيتمُّ سحب الخلايا الخاصة بي من جسدي، ثم تعديلها وراثيًّا؛ بحيث تتعرف على الخلايا السرطانية، ثم إعادة حقنها لي هي نفسها.

للأسف بدأت أتلقى ردودًا بالرفض بالفعل، «فات الأوان»، «العبء الورمي في جسدك أعلى من معاييرنا».. إلخ. لكني كلما أغلقت ملفًّا لا ألتفت وأحاول النظر لما بقي بعده. وفي نفس الوقت أحاول مقاومة الأعراض المفاجئة المتجددة والآلام. قبل أيام قال الأطباء إن ما بقي قد لا يجاوز شهرًا أو اثنيْن على الأكثر، لكني أدير الحياة ولو ساعة واحدة باقية تلو ساعة، لا يومًا تلو يوم. وأحاول السلام على من أحب من الأسرة والأصدقاء ولو برسائل فقط.

ابني الحبيب،

أود أن أحكي لك قصة: تمَّ تشخيص إصابتي بالسرطان بعد وفاة جدتك بنحو عام بنفس المرض. كانت إسراء حزينة جدًّا لكنها أيضًا عملية جدًّا، وفورًا تسلمت مكاني حضور دروس قيادة السيارة لعلمنا بمدى أهميتها في هذه الفترة.

ذات يوم عادت أمك سعيدة جدًّا، قالت لي إن أمها سلمت عليها اليوم. أرتني مقطع فيديو مبهرًا. شاهدت ببغاء ملونًا جميلًا نادر الوجود، ريشه أزرق سماوي وبرتقالي وأبيض، ظل يسابق البشر والسيارات ليبقى طائرًا جوار شباك إسراء بالضبط لمسافة طويلة بينما هو ملتفت إليها.

جربت تغيير سرعتها واتجاهها عدة مرات فظلَّ الطير الجميل يتابعها.

قالت إنها شعرت في قلبها بأن هذا الطائر هو أمها تطمئن عليها وتحييها.

سبق أن حاولت أن أسأل وأقرأ من النواحي العلمية أو الماورائية أو الدينية أين تذهب روح الإنسان أو وعيه العقلي، هل أبقى في قبري أعاني الملل؟ هذا سيكون حاسمًا في مسألة اختيار دفني في لندن، أم مع الأسرة في مصر، أم هو مجرد جسد وتطوف الروح حول العالم بحرية.

لكن الأكيد أني لم أرتح قط في أي مرحلة من مراحل علاقتي الخاصة بالدين أو العلم لفكرة الفناء العبثي.

أنا أصدق أن جدتك اطمأنت على إسراء في صورة ذلك الطائر يومها.

وأنا أيضًا لو غبت عنك يا بني بعد عشرين يومًا أو شهرًا أو عشرين عامًا فثق أني سأكون في مكان ما أنظر إليك. لعلي في نسمة هواء أو تراكم قطرات الندى، أو في أصغر وردة بيضاء تذكرني بأمك.

لعلي أظهر في «تشابك كمي» لا يُرى بالعين المجردة بين أجزاء أصغر من الذرات.

أنت جئت لتحكي لي ما شاهدته على «بي بي سي راوند» عن هذا «التشابك الكمي» الذي هو موضوع جائزة نوبل عام ٢٠٢٢؛ حيث قد يفتح الباب لتحقق خيال الانتقال الآني.

لا يفهم الفيزيائيون إلى اليوم كيف تتصل جزئيات تحت ذرية بينها مجرات كاملة، لكن هذا ما يحدث ورأوا نتائجه في المعمل بالفعل.

لا أحد يفهم بالضبط جوانب عديدة من فيزياء الكم، تجعلها أقرب لتلك المساحة الرمادية بين العلم و«الغيب».

وفي تلك المساحة أعرف أنه ستظلّ تلك الطاقة من حبي تحيط بك وبأمك سواء كنت أنظر إليكما بعينيَّ أو أنظر إليكما بعيون كل ذلك الكون الفسيح الجميل.

أنا قادم أيها الضوء

وجدتني لا أكتب يوميات مريض، بل أكتب أحداثًا ومشاعر، ما جربته وما تعلمته، سيرة ذاتية لي ولجيلي أيضًا.

ودونما أشعر عبرت كتابتي من الخاص إلى العام، وهكذا تنقلت بين شرح علمي إلى أخبار التطورات السياسية، ومن تفنيد خرافات حول ما يسمى بـ «الطب البديل» إلى متابعة وفاة الملكة إليزابيث، أتأمل في الموت والحياة.

لو تحققت نجاتي بمعجزة ما، فسأسعى نحو ذلك الضوء الذي زادت خبرتي به وتقديري له في أيام مرضي، وسأمنح ما أستطيع عرفانًا لكوني محظوظًا بزوجة مضيئة، وبأبٍ وأمٍّ مضيئَيْن، وبالكثير من الأصدقاء الذين يطمئنني نورهم لحقيقة الخير في الدنيا.

ولو وافاني القدر بالوقت الذي قدره الأطباء، أرجو أن يكون ما بعد نفقي نورًا وهدوءًا، وأن يمرَّ عبر هذا الكتاب بعض الضوء إلى من يقرأ.

محمد أبو الغيط

محمد أبو الغيط: طبيب وصحفي وكاتب مصري. تخصص في الصحافة الاستقصائية وشملت تغطياته حول العالم قضايا تجارة السلاح الدولية، وانتهاكات حقوق الإنسان، والتطرف، وتحقيقات الفساد وتتبع الأموال. عمل مدققًا للحقائق، وأشرف على إنتاج تحقيقات ودرَّب صحفيين لصالح عدة مؤسسات، كما عمل بمجال الإنتاج التلفزيوني لقنوات عربية وأجنبية، وكذلك عمل مذيع راديو عبر الإنترنت.

9 789770 937990

دار الشروق
www.shorouk.com